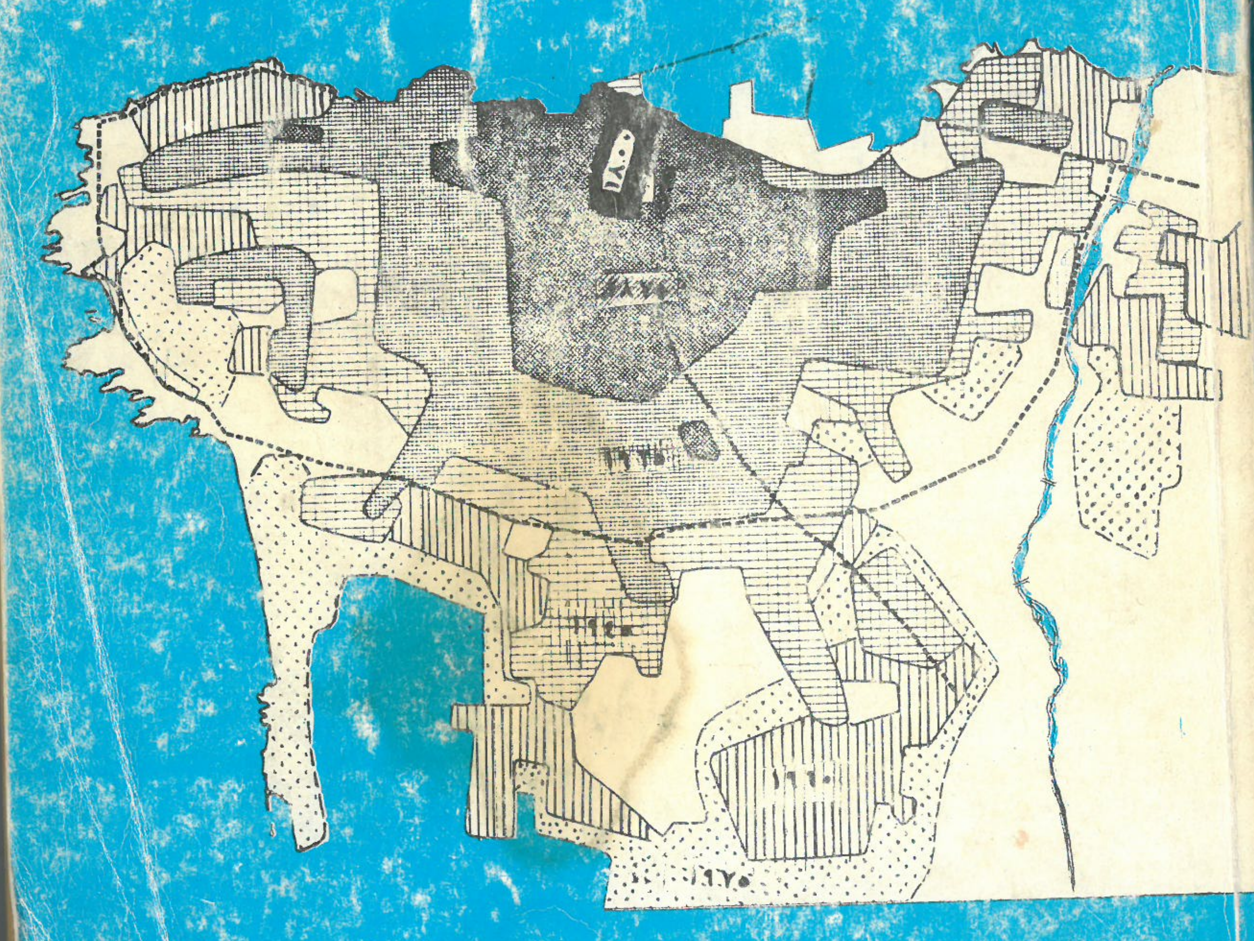
د. عصام محمد شبارو

تاريخ بيروت



مُنذ أقدم العصور حتى القرن العشرين

دار مصباح الفكر

خريطة الغلاف

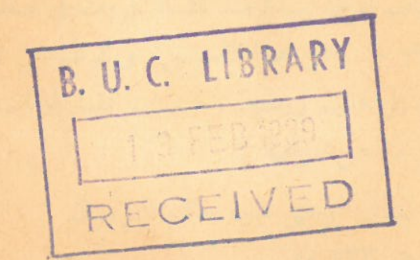
تطور مدينة بيروت منذ نشأتها وحتى القرن العشرين نقلاً عن :

Plan directeur de la ville de Beyrouth p 59.

د. عصام محمد شبارو

تاريخ بيروت

منذ أقدم العصور حتى القرن العشرين



دار مصباح الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

دار مصباح الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع
ص. ب ١١٣/٦٥٥٨
بيروت - لبنان

المقدمة

دمرت حرب السنتين ١٩٧٥ - ١٩٧٦، المنطقة التي كانت تقوم عليها مدينة بيروت القديمة داخل سورها وأبوابها وأبراجها وقلعتها، وأتت على أسواقها ومتاجرها ومظاهر الحياة فيها. وكأن الهدف الحقيقي هو القضاء على تراث وحضارة هذه المدينة العريقة، وذلك باستئصال ماضيها، وتغيير بنيتها البشرية والاقتصادية والثقافية، حتى تصبح قرية صغيرة يطويها النسيان.

هذا ما دفعني إلى التسلح بالقلم، وتحدي البندقية التي تدمر بيروت منذ سنة ١٩٧٥، لأسطِّر موجزاً لتاريخ المدينة التي نشأت فيها «بيروتياً» على دين الإسلام، ومذهب العروبة لغة القرآن الكريم.

وبالرغم من هويتي، حاولت قدر المستطاع البحث عن الحقيقة، والتجرد في الكتابة. ومن أجل الحقيقة هذه، اكتفيت الآن بصفحات من تاريخ هذه المدينة، أطلقت عليها اسم «تاريخ بيروت». وهو كتاب موجز يبدأ منذ نشأة بيروت في مطلع الألف السادس قبل الميلاد وينتهي سنة ١٩٢٠ م. وعلى هذا الأساس، وبالرغم من العادة التي درج عليها المؤرخون لتقسيم التاريخ إلى قديم ووسيط وحديث، فقد ارتأيت تسهيلاً للبحث تقسيم تاريخ بيروت إلى خمس مراحل تاريخية:

المرحلة الأولى: بيروت منذ نشأتها وحتى نهاية حكم الرومان (٦٠٠٠ ق. م - ٦٣٣ م).

المرحلة الثانية: بيروت في ظل الحكم العربي الإسلامي (٦٣٤ - ١١١٠ م).

المرحلة الثالثة: بيروت تحت الاحتلال الغربي الصليبي (١١١٠ - ١٢٩١ م).

المرحلة الرابعة: بيروت في ظل دولة المماليك المسلمين (١٢٩١ - ١٥١٦ م).

المرحلة الخامسة: بيروت في ظل دولة الأتراك المسلمين (١٥١٦ - ١٩١٨ م).

وقد ارتأيت التوقف في الحديث عن بيروت عند سنة ١٩١٨ و١٩٢٠، أي حينما انتهى الحكم التركي وأصبحت بيروت عاصمة دولة لبنان الكبير، لأن الحقيقة المؤلمة أن هذه الدولة كانت مقدمة لقيام الجمهورية اللبنانية وبالتالي غرس بذور الشقاق بين أهالي هذه الجمهورية خلال الأحداث التي شهدتها بيروت والمنطقة التي تحيط بها في السنوات، ١٩٤٣، ١٩٤٨، ١٩٥٢، ١٩٥٨، ١٩٦١، ١٩٦٧، ١٩٦٩، ١٩٧٠، ١٩٧٣، والتي بلغت ذروتها منذ ١٩٧٥ - ١٩٧٦ وحتى كتابة هذه المقدمة...

وهذا الأمر يحتاج إلى دراسة خاصة، قد تشترك فيها الأجيال المقبلة، لأنه لا يمكن بحثها وتحقيقها بتجرد وموضوعية، إلا بعد انتهاء «الكابوس» الذي يخيم على بيروت، وبعد تحرير جميع المدن والقرى من الاحتلال الصهيوني المغطى بمظلة دولية. كما أنه لا يمكن عزل بيروت عن تاريخ المنطقة وحضارتها.

وقد اعترضتني بعض الصعوبات في البحث والتنقيب عن تاريخ بيروت، وخاصة في المرحلة الأولى أي منذ نشأة بيروت وحتى نهاية حكم الرومان أو حتى الفتح العربي الإسلامي؛ فلا توجد مصادر تحمل اسم بيروت في تلك المرحلة، وحتى في المراحل الثلاث التي تلتها، أي منذ الفتح العربي الإسلامي وحتى نهاية حكم دولة المماليك، يكاد يكون كتاب «تاريخ بيروت» هو المصدر الوحيد الذي يتعلق بتاريخ بيروت في تلك الفترة، خاصة وأن مؤلفه صالح بن يحيى (ت ١٤٤٦ م) ينتمي إلى أمراء الغرب الذين شاركوا في الدفاع عن بيروت ضد الفرنج، بل وشارك هو نفسه في غزو قبرص. أما الفترة الأخيرة من تاريخ بيروت، أي من الفتح التركي الإسلامي وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى، فتكثر المصادر التي يمكن الاستعانة بها، رغم ندرة التي تحمل منها اسم بيروت.

لذلك كانت المهمة تتطلب التأني والصبر في قراءة عشرات، بل مئات المصادر، للعثور أحياناً على جملة أو عبارة تتعلق ببيروت؛ فالمصادر باستثناء «تاريخ بيروت» لا تختص ببيروت، بل يتكلم بعضها عن المنطقة التي توجد فيها، في حين يتكلم معظمها في أمور مختلفة ومتنوعة يصعب على الباحث أن يدرك لأول وهلة أنها قد تحوي شيئاً يتعلق ببيروت، مما أدى إلى ورود أسماء كثيرة، وحوادث عديدة، لن يعرف القارىء العادي أنها يمكن أن تحمل في بعض زواياها إسماً أو حادثة تخص بيروت، لأن مواضيع وعناوين هذه المصادر الكثيرة ليس بيروت في مرحلة معينة من المراحل التي ذكرتها، أو في فترة معينة من تاريخها الطويل... وهذا يتطلب التدقيق والمقارنة حتى نصل إلى الهدف المنشود.

أما المراجع التي تتعلق بتاريخ بيروت أو مساجدها، مثل «بيروت وتاريخها» للويس شيخو، و«بيروت في التاريخ» لداود كنعان، و«ولاية بيروت» لرفيق التميمي ومحمد بهجت، و«بيروت ولبنان في عهد آل عثمان» ليوسف الحكيم، و«تاريخ المساجد والجوامع الشريفة في بيروت» للشيخ محمد طه الولي، و«مساجد بيروت» لمصطفى صالح لمعي وغيرها... فقد حاولت أن لا أطلع عليها إلا بعد الفراغ من قراءة المصادر الأصلية التي تعتبر الأساس الحقيقي لبناء هذا الكتاب «تاريخ بيروت» وهو بمثابة مقدمة للمجلدات الضخمة التي أعد لها منذ أربع سنين، وقد تحتاج إلى فترة مماثلة حتى أضعها بين يدي القارىء، كما ينبغي أن يكون ذلك المرجع الأساسي لتاريخ بيروت.

وقد اعتمدت على الخرائط والصور لتوضيح تطور مدينة بيروت، فكان كتاب Plan directeur de la ville de Beyrouth الذي وضعه مجلس تنفيذ المشاريع الكبرى لمدينة بيروت، وكتاب بيروت «خرائط وصور» من منشورات جامعة بيروت العربية، وكتاب « Notre Mémoire » Beyrouth لفؤاد دباس، عوناً لي في هذا المجال.

وقد رافقت عملية إخراج هذا الكتاب صعوبة أخرى لا تقل أهمية عن كتابته، وهي من يطبع وينشر كتاباً يتعلق بمدينة بيروت وخاصة في الزمن الرديء الذي تمر فيه؟ فالذهنية التجارية لدور النشر تتقبل المواضيع العامة، التي يمكن توزيعها بسرعة في الدول العربية الإسلامية، وكأن تاريخ بيروت ليس تاريخ العروبة والإسلام. وحدها دار مصباح الفكر فتحت أبوابها لهذا الكتاب، لأنها أدركت أهمية مثل هذه المواضيع، وأن تاريخ المدن العربية الإسلامية هو تاريخ العرب والمسلمين، فشكراً للدار التي أتمنى أن تبقى مصباحاً للفكر العربي الإسلامي.

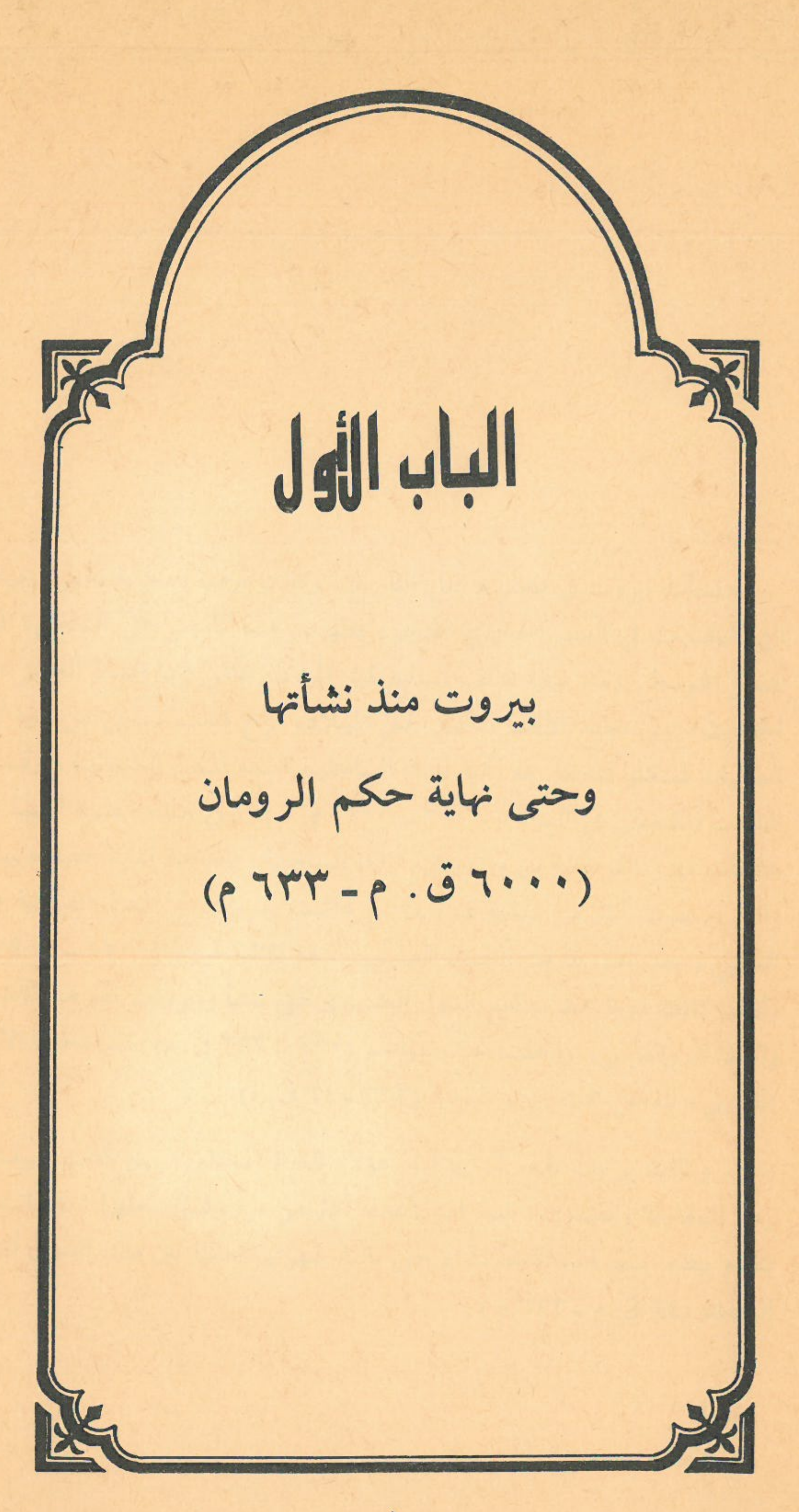
وأخيراً يقتضي واجب الوفاء أن أذكر بالشكر والامتنان، المؤرخ البيروتي يحيى أحمد الكعكي الذي فتح لي أبواب مكتبته الخاصة، والتي تطل على غابة الصنوبر حيث مدرسة وجامع الحرج، وهي مكتبة عربية إسلامية اختار لي منها عشرات المصادر والمراجع، فكانت عوناً كبيراً في تأليف هذا الكتاب.

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما سعيت إليه، والله الموفق.

عصام محمد شبارو

بيروت، عين المريسة في ٧ حزيران ١٩٨٦ م

الموافق أول أيام عيد الفطر السعيد ١٤٠٦ هـ



الباب الأول

بيروت منذ نشأتها
وحتى نهاية حكم الرومان
(٦٠٠٠ ق. م - ٦٣٣ م)

نشأت بيروت في عصر ما قبل التاريخ، وكانت أرضاً صخرية تغمرها مياه البحر التي انحسرت في العصر الحجري القديم، فظهرت هذه الأرض على الشاطىء الشرقي للبحر المتوسط. ومنذ نهاية الألف السابع قبل الميلاد، عاش فيها إنسان العصر الحجري الحديث. وفي مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، نزح شعب سامي من شبه الجزيرة العربية، فسكنها لتحمل مع بقية المدن الساحلية اسمه المدن الكنعانية، وقد سكنها الشعب الكنعاني في الفترة (٢٠٠٠ - ١٢٠٠ ق.م). وفي هذه الفترة أيضاً تبلورت علاقات مصر الفرعونية ببيروت وبقية المدن الساحلية، وخاصة مدينة جبيل «بيبلوس»، والتي استمرت أكثر من ثمانية قرون. ثم عاشت بيروت مع المدن الفينيقية عصرها الذهبي، بعد تحررها من النفوذ المصري، لمدة ثلاثة قرون (١٢٠٠ - ٩٠٠ ق.م). ولكنها كانت دوماً محط مطامع الدول الكبرى التي تنشأ وتزول، فعبرها الأشوريون والكلدان والفرس، ودخلت تحت نفوذهم (٩٠٠ - ٣٣٣ ق.م) كما دخلها الاسكندر المقدوني، لتدخل تحت حكم اليونان (٣٣٣ - ٦٤ ق.م).

وكانت بيروت تفتح أبوابها أمام هؤلاء الغزاة المحتلين؛ بينما كانت صيدا وصور رمزاً للمقاومة والعنفوان، فدمرهما الأعداء أكثر من مرة وشرد أهلهما. وكانت بيروت تتقدم ببطء وسط هذه الأحداث، حتى نالت شهرتها العالمية بين مدن الشرق أثناء حكم الرومان (٦٤ ق.م - ٦٣٣ م).

الفصل الأول

نشأة مدينة بيروت في العالم القديم

تعتبر بيروت من أقدم مدن الشرق الأوسط القديم، فقد تكونت أرضها في العصر الحجري القديم لتطل على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وسكنها شعبها في العصر الحجري الحديث، أي منذ نهاية الألف السابع قبل الميلاد.

١ ـ الموقع والتكوين الجيولوجي:

تقع بيروت على الشاطيء الشرقي من البحر المتوسط الذي يحدها من الشمال والغرب، كما يحدها ساحل جبل لبنان من الجنوب، وجبال لبنان من الشرق. وتقع جغرافياً على خط العرض الشمالي ٢٧ً ٥٤َ ٣٣°، وعلى خط الطول الشرقي ٥٠ً ٨َ ٣٥°.

وتقوم مدينة بيروت فوق هضبة بشكل رأس يمتد في البحر مسافة تسعة كيلومترات، ويذكر علماء الجيولوجيا أن هذه الهضبة القائمة عليها بيروت كانت جزيرة منفصلة عن الجبل، وذلك في عصر ما قبل التاريخ. وكان الوادي الذي يجري فيه اليوم نهر بيروت وما يجاوره من السهل، مغموراً بمياه البحر التي أخذت تهبط تدريجياً ليحل مكانها سهل رملي ربط الجزيرة (بيروت) بهضبات جبل لبنان. ومنذ ما قبل التاريخ أيضاً ـ أي العصر الحجري القديم ـ يبدو أن الإنسان سكن ضفاف الأنهار، مثل نهر الجوز ونهر إبراهيم ونهر الكلب ونهر بيروت؛ وفي فرن الشباك وبئر حسن والروشة؛ حيث عاش في جماعات تقطف الثمار، وتزاول الصيد.

٢ ـ تسمية بيروت:

اختلف المؤرخون في أصل اسم بيروت، ولعل أفضل تفسير، أن الإسم مشتق من

كلمة بيروتا الآرامية[1]، ومعناها الصنوبرة «Bruta Ilois»[2] وقد تكون الكلمة العبرية بئروت «Be'erôth»، وهي جمع كلمة بئر. ذلك أن بيروت اشتهرت بوجود أشجار الصنوبر في جوارها منذ القدم، وكذلك اشتهرت بآبارها العديدة.

وبيروت « Bayrût »، ورد ذكرها في رسائل تل العمارنة « Be - Rû - Ta » (بيروتا)، وفي النقوش المصرية « Bi'-ur-ta » كما ورد في التوراة «Bê eroth» (بيروث)، وهي البيرة قرب رام الله، وفي نبوءة حزقيال ٤٧ : ١٦ «Berotha» «قرب حماة» [3].

ويروي المؤرخ البيروتي سَنْكُنْ يَتُنْ، الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد، «أنّ الإلّه إيل أو عليون، وهو أوّل ملوك جبيل، تزوج الآلهة بيروت قرينته، ثم بنى مدينة فدعتها زوجته بيروت باسمها». ويقول الشاعر نونس، في قصائدالإلـهديونيسيوس، «ان بيروت أوّل مدينة بناها الإلّه إيل بنفسه، وهي وحدها أنشئت قبل سائر مدن المعمور»[4]. ثم يردف سنكن يتن قائلاً: إن إيل أهدى بيروت إلى إلّه البحر بوصيدون (يدعى نبتون عند الرومان)، وإلى جميع الآلهة المعروفين بكبيري (Cabires)، الذين اخترعوا فن الملاحة.

وهكذا ترجع الأسطورة بناء مدينة بيروت إلى ملك جبيل، الذي بناها جنوب مملكته إكراماً لزوجته، والتي سميت المدينة باسمها.

كما تذكر الأساطير أيضاً أن بروه «Beroé» زوجة أوجيكس Ogygès هي التي سمتها بيروتوس Be'routos[5]، وهو مشتق من اسمها، وقد قامت بتشييدها عندما اختار أوجيكس زوجها الملكي هذا المكان من الشاطيء ليرتاح فيه بعد غزواته العديدة[6].

---

(١) أنيس فريحة: أسماء المدن والقرى اللبنانية، ص ٧٦.

(٢) وذلك حسب التسمية السريانية التي ذكرها أنيس فريحة نقلاً عن مقال في مجلة «المشرق»، اشترك في كتابته الأب يوسف حبيقة والأب اسحق أرملة. «أسماء القرى اللبنانية ـ مجلة المشرق سنة ٣٧ ـ عدد تموز ـ أيلول ١٩٣٩، ص ٣٨٧ ـ ٤١٢».

(٣) Encyclopédie de l'Islam 2 , T 1 p 1171 - 1173. S. V Bayrut

(٤) لجنة من الأدباء: لبنان مباحث علمية واجتماعية، جـ ١، ص ٢٦٣.

(٥) هنري غيز: بيروت ولبنان، جـ ١، ص ١٦.

(٦) المرجع نفسه، جـ ١، ص ١٩٢.

٣ ـ أصل الشعب الذي سكن بيروت:

بدأت هجرة الشعوب السامية من شبه الجزيرة العربية نحو الشمال الشرقي في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد. ومن هذه الهجرات تفرعت شعبة كنعان، التي سكنت الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وشعبة أمورو، التي سكنت الداخل، في الثلث الأخير من الألف الثالث قبل الميلاد. وليس لدينا دليل على وجود الساميين قبل الهجرة الأمورية ـ الكنعانية. ويمكن أن يكون أصل الشعب الذي عاش في بيروت والساحل قبل تلك الهجرة، هو مزيج من عروق وشعوب عاشت في العصر الحجري الحديث، أي منذ نهاية الألف السابع قبل الميلاد، وربما تداخلت فيه بعض العناصر السامية. وعلى هذا الأساس يمكن إطلاق كلمة كنعان والكنعانيين على الأرض والشعب السامي الذي عاش في بيروت وساحل البحر المتوسط الشرقي، منذ نهاية الألف الثالث قبل الميلاد وحتى هجوم الشعوب البحرية حوالي القرن الثاني عشر قبل الميلاد، أي في الفترة (٢٠٠٠ ـ ١٢٠٠ ق.م). كما يمكن اطلاق تسمية فينيقيا والفينيقيين على الأرض والشعب السامي الذي سكن بيروت والساحل، منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد وحتى فتوحات الاسكندر المقدوني، أي في الفترة (١٢٠٠ ـ ٣٣٣ ق.م).

فالشعب الذي سكن بيروت والمدن الساحلية، سواء سمي بالكنعانيين أو بالفينقيين، هو شعب سامي. والسامية هي تسمية لغوية تطلق على الذين يتكلمون اللغة السامية، وهم الشعوب الأكادية والآشورية والبابلية والكنعانية ـ الفينيقية والآرامية والعبرية والحبشية. وهذه الشعوب تتقارب في اللغة، والمؤسسات الاجتماعية، والعقائد الدينية، والصفات النفسية، والأوصاف الطبيعية. ونستنتج أن الموطن الأصلي لهذه الشعوب السامية هو شبه الجزيرة العربية، حيث كانت تعيش في المكان نفسه وتتكلم اللغة نفسها.

٤ ـ بيروت من أولى مدن العالم القديم:

تعتبر بيروت من أقدم المدن على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وبالتالي من أولى المدن في العالم القديم. ويعود تاريخ تخطيطها إلى أقدم القرون، وكانت رقعة بيروت تضيق وتتسع باختلاف الدول التي مرت عليها من زمن لآخر.

والحقيقة أن الكنعانيين استوطنوا الساحل الشرقي للبحر المتوسط، ثم نمت تلك القبائل وتفرقت واتخذت لها المستعمرات على طول الساحل، وصارت كل منها شبه مملكة صغيرة مستقلة بالحكم والتدبير عن سواها. وأشهر هذه الممالك، مملكة أرواد ومملكة

جبيل ومملكة بيروت ومملكة صيدون ومملكة صور. والمرجح أن الجبيليين هم الذين تقدموا إلى الجنوب، فبنوا أولاً مستعمرة بيروت قبل صيدون، وجعلوها مملكة متاخمة لمملكة جبيل، كان طولها يبلغ من الشمال إلى الجنوب ٣٦ كلم بين نهري الكلب والدامور. أما عرضها فكان معدَّله لا يتجاوز عشرة كيلومترات من شاطيء البحر إلى سفح الجبل. ومع ذلك كانت بيروت ميناءً متواضعاً في تلك الفترة، حيث كانت جبيل هي المدينة الهامة[١].

واعتبر الكنعانيون بيروت مدينة مقدسة، ومكرسة لعبادة «بعل بريت»، حيث كان أهل بيروت يدينون بالوثنية. وإلى عصر الكنعانيين يعود بناء سور بيروت، فيذكر صالح بن يحيى أن «بيروت مدينة قديمة جداً يستدل على قدمها بعتق سورها، ومع عتقه فهو محدث عليها، استخدموه الأولين من خرايب كانت مقدمة أقدم منه بمدد كثيرة لأننا نجد في السور المذكور قواعد من الرخام وأعمدة كثيرة من الحجر المانع، الذي قد تعب عليها الأولين في عملها وجلبها، ونفقوا عليها أموالهم. فدل ذلك على أنها من خرايب قديمة، كانت عظيمة البناء، جليلة المقدار، فاستهانوا الذين جاؤوا بعدهم وجعلوها في السور المذكور مكان الحجارة التي لا قيمة لاستغنائهم عنها بكثرة أمثالها. ودل ذلك على أن العماير الأولى كانت أعظم من الثانية»[٢] ثم يردف قائلاً «ومما يستدل على قدم بيروت، من قدم صيدا وصور بالمجاورة لها، يقال إن صيدا رابع مدينة عمرت بعد الطوفان[٣]. وقد أدى تعدد الممالك الساحلية إلى قيام التنافس والحروب فيما بينها، وقد سعى الصيدونيون أكثر من مرة إلى قهر سلطة أهل بيروت واستعبادهم فردهم البيروتيون خاسرين[٤]».

وكان الخطر الكبير على مدينة بيروت وحكومات المدن الساحلية، من جانب الدول الكبرى التي كانت تحاول السيطرة عليها، بدءاً بمصر الفرعونية، مروراً بالآشوريين والفرس، فاليونان والرومان.

(١) صالح لمعي مصطفى: مساجد بيروت، ص ٣.
(٢) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص٨.
(٣) المصدر نفسه، ص١٠.
(٤) لجنة من الأدباء: لبنان مباحث علمية واجتماعية، جـ ١، ص ٢٦٥.

الفصل الثاني

بيروت ومصر الفرعونية

(٢٠٠٠ - ١٢٠٠ ق. م)

لم تكن علاقات مصر الفرعونية ببيروت على مستوى العلاقات التي قامت بينها وبين جبيل «بيبلوس». ولكن الآثار والرسائل التي عثر عليها تشير إلى أن الفراعنة عرفوا بيروت منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، أي منذ أن تبلورت مطامع مصر التوسعية زمن الأسرة الثانية عشرة، وحتى احكام سيطرتها على بيروت وسائر المدن الساحلية زمن الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، ثم انهيار النفوذ المصري منذ مطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد، أي زمن الأسرة العشرين.

١ - زمن الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ - ١٧٨٦ ق. م):

ظهرت مطامع مصر الفرعونية في التوسع الخارجي، منذ عهد الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ - ١٧٨٦ ق. م)؛ والتي سيطرت على الساحل الكنعاني، وعلى الأخص جبيل وبيروت.

وقد عثر في بيروت على تمثال يحمل اسم الفرعون، وهو حالياً في المتحف البريطاني في لندن، ويعتبر أول أثر ورد فيه اسم بيروت. وهذا الأثر التاريخي عبارة عن وصف رحلة الأمير سنوحي، إلى الساحل الكنعاني، زمن الأسرة الثانية عشرة. وقصة سنوحي تتلخص في خوفه من أخيه الأكبر بعد موت أبيه الملك، حيث جرت العادة أن يقتل الابن الأكبر منافسيه في أغلب الأحيان. لذلك قام سنوحي برحلته، فسار في الصحراء، ووصل فلسطين حيث أصبح أميراً ذا قوة وسلطان. ثم يستدعيه أخوه الذي تبوأ عرش مصر، ويعيد إليه مكانته. ومن رحلته هذه نعرف أسماء ملوك وأمراء المنطقة التي نزلها سنوحي، وأماكن عديدة كانت مسرحاً لرحلته، ومنها بيروت.

٢ ـ زمن حكم الهكسوس لمصر (١٧٣٠ ـ ١٥٨٠ ق. م):

وأثناء فترة حكم الهكسوس «الملوك الرعاة» لمصر (١٧٣٠ ـ ١٥٨٠ ق. م) تميزت علاقاتهم بالود والصداقة مع الساحل الكنعاني، لذلك تركوا بيروت، وباقي المدن الساحلية، تمارس تجارتها بحرية. وهذا الواقع يدل على مدى علاقة الهكسوس بسكان بيروت والساحل، من جهة العرق، أو من جهة اللغة أو التقاليد. والمؤرخ يوسبينوس يذكر «أن البعض يعتبرون الهكسوس من العرب».

٣ ـ زمن الامبراطورية المصرية الحديثة (١٥٨٠ ـ ١٠٨٥ ق. م):

بلغت مصر الفرعونية أوج قوتها ومدنيتها بين (١٥٨٠ ـ ١٠٨٥ ق. م)، خلال حكم الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين. وانعكس ذلك على وضع بيروت وسائر حكومات المدن الساحلية. ففي عهد الأسرة الثامنة عشرة، كان الفراعنة ملوك مصر أول الطامعين ببيروت في القرن السادس عشر قبل الميلاد، فقد سيطروا عليها بعد طرد الهكسوس من بلادهم، ومطاردتهم لهم خارج مصر، حيث غزا أحمس فينيقيا على رأس حملة كبيرة، بهدف تأمين الحدود من معاودة هجوم مفاجيء للهكسوس، فطاردهم حتى كنعان وطهر سوريا منهم.

وفي عهد الأسرة الثامنة عشرة أيضاً غزا تحوتمس الثالث، بحملاته العشرين، سوريا وكنعان بين (١٤٦٨ ـ ١٤٣٦ ق. م)، وأنشأ الإمبراطورية المصرية، وكانت بيروت وسائر المدن تدور في فلكها. وقد طلب تحوتمس الثالث من الأمراء التابعين له، أن يرسلوا أبناءهم إلى مصر، لتنشئتهم على حب مصر والتفاني في خدمتها. وكان لسياسته هذه أثرها في علاقة مصر بالأقاليم.

وكانت أساطيل الفينيقيين ترد إلى مصر. ومن الآثار المصرية، تمثال الوزير سنوسرت غنبح، وتمثال الملك أمنحتب الثالث في بيروت وشمرا، وتماثيل في منطقة بعلبك، وغير ذلك من الآثار التي تثبت الكيان الحضاري الدولي لمنطقة «سوريا ولبنان وفلسطين» في تلك المرحلة[1].

وجاء ذكر مدينة بيروت تحت اسم «بريتا Beruta»، في لوحات تل العمارنة، في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وهذه اللوحات عبارة عن رسائل كتبت بالخط المسماري،

---

(١) أنظر رشيد الناضوري: التاريخ الحضاري والسياسي في منطقة جنوب غرب آسيا.

وتبادلها امنحتب الثالث (١٤٠٨ ـ ١٣٨٠ ق. م) ثم امنحتب الرابع (١٣٧٢ ـ ١٣٤٦ ق. م)، مع ملوك بابل وآشور وأمراء المحميات المصرية على الساحل الكنعاني. فهي رسائل سياسية، كان الأمراء يرسلونها إلى فرعون مصر، الذي يعود إليه الفضل في تعيينهم.

ومن هذه الرسائل التي اشتهرت، رسالة تصف بيروت بالبلدة المنيعة وبالفُرضة البحرية المهمة، وتذكر سفنها وبوارجها الحربية، التي سارت إلى بلاد أموري فظفرت بها[1]. ومن جملة المراسلات رسالتان لعامل الفرعون على بيروت، يفيد سيدَّه «أنه خرج لمحاربة أعداء الدولة بخيله ورجاله وعجلاته، وأنه ردهم على أعقابهم»[2]. وفي كلامه دليل على مناعة بيروت في ذلك الزمان وعلو مقامها، ورقي تجارتها، وسعة ثروتها.

وكانت بلاد كنعان مجزأة بين مصر والمملكة الحيثية، وقد حاول أمراء المدن الكنعانية أن يوقعوا بين هاتين القوتين على الصعيد الدولي، في الوقت الذي كان فيه الأمراء يدبرون المؤامرات بعضهم ضد البعض الآخر على الصعيد المحلي. وقد قام شبه اتحاد مستقل برئاسة جبيل، ويضم إضافة لها بيروت وصيدا وصور وعكا.

وكانت الرسائل تنهال من مدن الساحل بيروت وجبيل وصيدا، تطلب النجدة من الفرعون أمام الخطر الأموري، لكن دون جدوى. فاضطر رب ادي أمير جبيل أن يلجأ إلى بيروت، وأميرها يدعى عمونيرا، وعندما هدد الخطر بيروت لجأ إلى صيدا.

وفي عهد الأسرة التاسعة عشرة، دخل الجيش المصري الساحل الكنعاني، وعبر رعمسيس الثاني (١٢٩٨ ـ ١٢٣٥ ق. م) بيروت، ثم وصل نهر الكلب حيث ترك نصباً تذكارياً. مما يعني أن بيروت كانت ممراً للجيوش الغازية.

وفي أيام مران بتاح، قامت ثورة المستعمرات المصرية سنة ١٢٢٢ ق. م، واشتركت فيها قبائل بني إسرائيل وغرب سورية وفلسطين، فأتلفت بلاد بني إسرائيل وسلبت أرض كنعان.

وفي بداية عهد الأسرة العشرين (١٢٠٠ ـ ١٠٨٥ ق. م)، قدمت الشعوب أو القبائل البحرية من الشواطيء والجزر الشمالية للبحر المتوسط، وهي شعوب لا تمت بصلة إلى العرق السامي. وقد اجتاحت الشعوب البحرية شواطىء تركيا الجنوبية والساحل

---

(١) لجنة من الأدباء: لبنان مباحث علمية واجتماعية، جـ ١، ص ٢٦٦.

(٢) المرجع نفسه جـ ١ ص ٢٦٥.

الكنعاني، وذلك في بداية القرن الثاني عشر ق. م. ووقف الأمراء الكنعانيون إلى جانب القوات المصرية لمجابهة العدو. لكن موت رعمسيس الثالث جعل هذه الشعوب تسيطر على المدن الساحلية ومنها بيروت، وذلك بعد تدمير صيدا وصور. وبدأ الضعف يدب في الامبراطورية المصرية، وانعدم نفوذها في بيروت والمدن الساحلية، ويشير إلى ذلك رحله ون أمون سنة ١١٠٠ ق. م على سفينته من مصر إلى جبيل. وكان الهدف من الرحلة استيراد خشب الأرز، لبناء مركبة فخمة للإله آمون.

ومما يدل على ضعف النفوذ المصري، أن ون أمون ذكر في تقريره عن أمير جبيل زكربعل: «قضيت تسعة عشر يوماً في ميناء هذا الأمير، وكان يرسل إلي كل يوم قائلاً انصرف عني». كما ندد أمير جبيل بون أمون، لأن سفينته لا تحمل راية تظهر انتماءها إلى حلف تجاري.

ومما يذكر تعرض ون آمون، بين حيفا وبيروت، إلى عملية اختلاس، فسرق له أحد رفاقه كمية من الفضة وهي ثمن الخشب.

ومن صور تابع رحلته إلى جبيل مروراً ببيروت. ودامت المباحثات أشهراً، ولم يقبل أمير جبيل بقطع الأخشاب، إلا بعد أن أرسلت مصر بعثة للمجيء بمزيد من الهدايا.

لكن ضعف الامبراطورية المصرية لم يمنع استمرار التبادل الثقافي والتجاري بين مصر وفينيقيا. فأصبح حكام بيروت وسائر المدن الساحلية، يقيدون حساباتهم على ورق البردى، الذي يصدر من مصر مقابل مصنوعات فينيقية. وكانت فينيقيا، في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، تستعمل حروف الهجاء المصرية. كما كان لمعابد أمون وبتاح، أساطيل تجارية وصلت البحر المتوسط، فنجم الثراء عن التبادل التجاري. وكذلك تأثرت بيروت ببناء المعابد على الطراز المصري، في حين تأثر المصريون بعبادة «بعل» إله بيروت.

الفصل الثالث

بيروت والمدن الفينيقية

(١٢٠٠ - ٦٤ ق. م)

يمكن اطلاق كلمة كنعان والكنعانيين على الأرض والشعب الذي عاش في بيروت وساحل البحر المتوسط الشرقي في الفترة (٢٠٠٠ - ١٢٠٠ ق. م)، أي حتى هجوم الشعوب البحرية حوالي القرن الثاني عشر قبل الميلاد. فقد حدث تغيير جذري في الخريطة السياسية لكنعان، نتيجة عوامل ثلاث، أولاها ظهور الآراميون وهم شعب سامي جديد اتخذ داخل سوريا موطئاً له وعاصمته دمشق، وثانيها توحيد القبائل العبرانية وتأسيس دولة واحدة حاولت احتلال المدن الكنعانية لاستيطانها ثم إزالة الوجود الكنعاني، وثالثها هجوم الشعوب البحرية الذي أدى إلى تدمير المدن الكنعانية. وبذلك تقلصت مساحة الأرض التي سكنها الكنعانيون وفقدت أكثر من نصف ساحلها. غير أن طبيعة الساحل الذي بقي في أيدي الكنعانيين استطاعت أن تقدم لهم بديلاً عن الخسارة التي لحقت بهم، ودفعت بهم نحو البحار. لذلك يحسن اطلاق تسمية فينيقيا والفينيقيين على المدن الدويلات الواقعة على ساحل البحر المتوسط الشرقي، منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد وحتى فتوحات الاسكندر، أي في الفترة (١٢٠٠ - ٣٣٢ ق. م). وهذه المدن تقع حالياً على الساحل السوري - اللبناني - الفلسطيني. وكان على الشاطيء الفينيقي خمس مدن رئيسة هي أرواد، جبيل، بيروت، صيدا، وصور...

١ - استقلال بيروت والمدن الفينيقية «العصر الذهبي» (١٢٠٠ - ٩٠٠ ق. م):

كان هدف المدن الفينيقية في هذه الفترة هو التوسع التجاري، فتحول أهلها إلى ملاحين مهرة، وأصبح البحر المتوسط بحيرة فينيقية، وتقدمت صيدا وصور.

ويبدو أن صيدا وصور، كانتا تشكلان جزءاً من دولة صيدونية واحدة، فايتوبعل (٨٨٧ - ٨٥٦ ق.م) ملك صور يظهر في التوراة كملك الصيدونيين، وقد امتد ملكه

شمالاً إلى بيروت. ويمكن القول كذلك بالنسبة إلى بيروت التي كانت تشكل جزءاً من الدولة الجبيلية، رغم أن اسم بيروت لم يظهر في التوراة ولا في الحوليات الآشورية.

٢ ـ بيروت ممر للجيوش الغازية (٩٠٠ ـ ٣٣٣ ق. م):

لم تكن بيروت مثل صيدا وصور في القوة والإزدهار، لذلك فإن أخبارها قليلة سواء في العصر الذهبي للمدن الفينيقية، أو في العهود الآشورية والكلدانية والفارسية، والتي مرت جيوشها في بيروت أثناء حروبها للسيطرة على المدن الفينيقية وسوريا ومصر. ومنذ مطلع القرن التاسع قبل الميلاد، تعرضت المدن الفينيقية للضغط الآشوري، واستطاع آشورنا صربال الثاني فرض الجزية على المدن الفينيقية سنة ٨٧٦ ق.م. كما عبر الجيش الآشوري بيروت، في القرن الثامن قبل الميلاد، وفرض الجزية ثانية على المدن الفينيقية، التي حاولت مراراً الافلات من السيطرة الآشورية. وكان الآشوريون يقومون بحملات تأديبية لها، مروراً ببيروت، كما فعل تغلث فلاسر الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٨ق. م) بانتصاره على حيرام الثاني ملك صور وصيدا، وعلى جبيل وارواد. وكذلك استطاع سرجون الثاني (٧٢٢ـ ٧٠٥ ق.م) إخضاع جميع المدن الفينيقية، باستثناء صور التي حاولت تأليب هذه المدن ضد الآشوريين. ثم جاء آسرحدون وخرَّب صيدا سنة ٦٧٥ ق. م، وقيل انه أقام نصباً تذكارياً على صخرة نهر الكلب شمال بيروت. وأخيراً أنزل آشور بانيبال الضربة القاضية على صور سنة ٦٦٤ ق. م، فاستسلمت وأفل نجمها بعد أن كانت سيدة البحر المتوسط.

وعندما سقطت آشور أمام الجيش الكلداني سنة ٦١٢ ق. م، لجأت المدن الفينيقية إلى الحماية المصرية، وأخذت تتأرجح وسط صراع مصر والكلدان. وبهزيمة الجيش المصري أمام نبوخذنصر الكلداني، في موقعة كركميش سنة ٦٠٥ ق. م، اعترفت المدن الفنيقية بالأمر الواقع، ودفعت الجزية إلى الحكم الكلداني الجديد، وقد احتفظت مقابل ذلك باستقلالها الداخلي.

وباستيلاء كورش الفارسي على بابل سنة ٥٣٩ ـ ٥٣٨ ق.م، إنتقلت المدن الفينيقية إلى سيطرة الفرس، الذين قسموا فينيقيا إلى أربعة أقسام: صيدا وصور وأرواد وجبيل، ولم تأت هذه التقسيمات على ذكر بيروت. حافظت المدن الفينيفية على استقلالها الداخلي طيلة الحكم الفارسي، ولكنها حاولت سنة ٣٥١ ق.م القيام بثورة بهدف نيل الاستقلال التام. ولا نعرف دور بيروت في هذه الثورة التي اندلعت من طرابلس، لتعم الساحل بأسره، ثم تركزت في صيدا التي قاومت الفرس ببسالة ورفضت الاستسلام،

وفضلت حرق نفسها سنة ٣٥٠ ق. م، مما أدى إلى استسلام بقية مدن الساحل. وحتى هذا الوقت كان أهل بيروت، يفتحون الأبواب في وجه الغزاة الآشوريين والكلدانيين والفرس، بينما ترفع صور أسوارها وتبني صيدا قلاعها، فدفعت كل منهما الخراب والدمار.

ثم سقطت دولة الفرس أمام الاسكندر المقدوني، ودخلت بيروت تحت حكم اليونان.

٣ ـ بيروت تحت حكم اليونان (٣٣٣ ـ ٦٤ ق. م):

بعد هزيمة الفرس في ايسوس سنة ٣٣٣ ق. م، زحف الجيش اليوناني بقيادة الاسكندر المقدوني، ففتحت بيروت أبوابها له، مثلما فعلت أرواد وجبيل وصيدا، ثم استسلمت صور بعد مقاومة عنيفة سنة ٣٣٢ ق. م.

وبوفاة الاسكندر سنة ٣٢٣ ق. م، نشب الصراع بين قواده، فدخلت بيروت تحت حكم الدولة السلوقية. وسمح اليونان لأهالي بيروت بإقامة شعائر دينهم، ثم مزجوا بين آلهتهم وآلهة الفينيقيين وكسوها بمسحة يونانية. كما حاولت بيروت وبقية المدن أن تنال استقلالاً نوعياً، فأنشأت مجالس لتدبير أحوالها، وصكت كل مدينة النقود باسمها[1].

ثم سيطرت الفوضى والحروب الأهلية على الدولة السلوقية، فتأثرت بيروت من هذا الوضع، ودفعت الدمار ثمناً لوفاء أهلها، عندما قام رجل اسمه اسكندر بالا يدَّعي الملك لنفسه سنة ١٤٦ ق. م، فنشبت بينه وبين الملك الشرعي ديمتريوس الثاني نيقاتور، حرب ضارية، دافعت فيها بيروت عن حقوق ملكها بشهامة، وكان الانتصار حليفاً لديمتريوس. إلا أن تريفون وزير اسكندر بالا تحزَّب بعد موت مولاه لابنه ديونيسيوس، ليجلسه على كرسي مملكة بيروت ويملك باسمه. وعقاباً لوفاء بيروت لملكها، أغار على المدينة، وخرَّب أبنيتها وبساتينها، وحرقها بالنار سنة ١٤٠ ق.م[2]، فذهبت ضحية وفائها. على أن تريفون نال جزاءه بعد قليل، فغلبه انطيوخيوس سيداتس وهو شقيق ديمتريوس، ومات طريداً خاملاً.

ومع ذلك، لم تبق بيروت على خرابها زمناً طويلاً، بل عاد إليها أهلها، وجددوا

(١) لجنة من الأدباء: لبنان مباحث علمية واجتماعية، جـ ١، ص ٢٦٦.
(٢) المرجع نفسه جـ ١، ص٢٧٥.

بناءها. لكنهم عدلوا قليلاً عن موقع المدينة المدمرة وأطلالها الحديثة، مائلين إلى الجنوب نحو عشرة كيلومترات. فقد عثر على نقد قديم لبيروت يعود إلى سنة ١٢٨ ق.م، عليه شعار المدينة واسم محتسبها نيقون، مما يدل على أن بيروت لم تكن خراباً سوى مدة قصيرة، وبقيت عامرة تتعاطى التجارة.

ومما يذكر أن بيروت وسائر المدن، باستثناء صور، قلَّدت المدن اليونانية في احتفالها بالأعياد الإغريقية، وفي بناء المسارح للتمثيل، والملاعب الرياضية، والحمامات العامة. كذلك قلدتها في اتخاذ حادثة تاريخية هامة تعتبرها بداية للتأريخ، فاتخذت أرواد سنة ٢٥٩ ق. م، وبيروت سنة ١٩٧ ق. م، وصيدا سنة ١١١ ق. م. وهذه هي نظرة المغلوب إلى الغالب، فتعلم أهل بيروت اللغة الإغريقية، وأصبح المثقف من سكان المدينة مزدوج اللغة، يتكلم لهجة سامية في بيته، ويتكلم الإغريقية في الأوساط الفكرية والعلمية.

الفصل الرابع

بيروت تحت حكم الرومان
(٦٤ ق. م - ٦٣٣ م)

وفي سنة ٦٤ ق.م، ونتيجة انتصارات القائد الروماني بومبي، احتل الجيش الروماني بيروت وسائر المدن، ليبدأ عهد جديد هو العهد الروماني. ودخلت بيروت في أوج عصورها.

١ - بيروت «مستعمرة جوليا أغسطا السعيدة»:

عرف الرومان ما تستحقه بيروت من الرعاية، وأنها لحسن موقعها، وسجايا أهلها الطيبة، قابلة للرقي والنجاح، فأخذوا يزينونها بالأبنية الفخمة. وفي عهد أغسطس قيصر نعمت بيروت بألطاف وهبات لم تنعم بها غيرها، فولى عليها القائد ماركوس أغريبا (Marcus Agrippa) بعد أن تزوج بابنته جوليا، فأقام في بيروت الدور الشاهقة والقصور[1]. وقام بعده هيرودس الكبير (٣٧ - ٣٤ ق.م)، وهو الذي حاكم ولديه في بيروت، وقضى عليهما بالموت لخيانتهما العظمى، بعد أن استأذن سيده أغسطس قيصر. وهكذا أصبحت بيروت تضاهي حواضر العالم الروماني، وقد كان ازدهارها سبباً في رفعها سنة ١٥ ق. م، على يد أغسطس قيصر، إلى مستوى «مستعمرة رومانية»[2] وورد اسمها على النقود باسم (Colonia Julia Augusta Felix Berytus)، أي مستعمرة جوليا السعيدة، وجوليا هي ابنته. كما خول أهل بيروت حقوق الوطنية. وهكذا أصبحت بيروت مركزاً إدارياً وتجارياً هاماً. ومما أكسب بيروت الأهمية التجارية في ذلك الوقت، تحسن ميناء بيروت في عهد أغسطس قيصر، بإضافة رصيفين على شكل هلال

(١) لجنة من الأدباء: مباحث علمية واجتماعية، جـ ١، ص ٢٧٧.
(٢) المرجع نفسه، جـ ١، ص ٢٧٧

لهما أبراج في كل طرف، ويمكن أن تمتد منهما سلسلة لمنع دخول السفن غير المرغوب فيها.

وبما أن ملوك اليهود كانوا يتقربون من الأباطرة الرومان عن طريق منح الهبات للمستعمرات، فقد خصوا مدينة بيروت بكثير من عطفهم المادي(١). وشيد فيها، أغريبا الأول (٤١ - ٤٤ م)، مسرحاً ومدرجاً وحمامات وأروقة، وأثناء التدشين جرت الحفلات الموسيقية. كما ادخل نحو سبعمائة زوج من المجرمين إلى الملعب وتصارعوا حتى ماتوا جميعاً. وجعل أغريبا الثاني (توفي سنة ١٠٠م) من بيروت مقره المفضل، وأقام فيها عدة تماثيل، كما بنى قصراً لإقامته، ومسرحاً فخماً تقام فيه الحفلات التمثيلية السنوية. وتحولت بيروت إلى مركز لتهنئة الإمبراطور فسباسيان بعد حروبه ضد اليهود.

ولم يبخل القياصرة بعد أغسطس قيصر على بيروت بالامتيازات، فإنهم أعفوا بيروت من دفع الجزية، ومنحوها الاستقلال عن حكم والي الولاية، فأصبحت كأنها دولة صغيرة ضمن الأملاك الرومانية في الشرق. وكان أهل بيروت يختارون ولاتهم وحكامهم دون تدخل العاصمة في شؤونهم. ومما ازدانت به بيروت، ساحة كبرى لاجتماع الجمهور، وملعب للملاهي العمومية، وأروقة مظللة للتنزه. وكان الرومان يقصدون إلى بيروت لترويح النفس، ويؤثرونها على سواها من مدن الساحل، لقضاء فصل الصيف في مشارف الجبل القريب منها وقد أشار صالح بن يحيى إلى هذه الآثار، فقال «ومما يستدل على كبر بيروت وسعتها ما يجده الناس في الحدايق بظاهرها من الرخام، وآثار العماير القديمة ما طوله قريب من ميلين، أوله مكان يسمى بليدة ودوقسيه غربي البلد، إلى مكان يسمى حقل القشا مقارب النهر شرقي البلد»(٢).

٢ - بيروت بين الوثنية والمسيحية:

احترم الرومان شعائر أهل بيروت، وسموا البعل إله بيروت باسم جوبتير (المشتري)، مما يدل على توثيق الصلات بين بيروت وبعلبك، ذلك أن جوبتير هو إله بعلبك. وقد أقام أهل بيروت معبداً لإلهتهم في الجبل المشرف على مدينتهم (بجوار بيت مري)، وهو هيكل بعل مرقد. كما ظهرت صورة إله البحر بوسيدون (نبتون)، على

---

(١) فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، جـ ١، ص ٣٤٢-٣٤٣.
- تاريخ لبنان، ص ٢٧٢ - ٢٧٣.
(٢) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٨ - ٩.

النقود البيروتية(١)، حاملاً بيده رمحاً أو حربة مثلثة الرأس، أو راكباً مركبة تجرها خيول البحر. ويعتبر بوسيدون إله بيروت المفضل في تلك الفترة.

وكان البيروتيون يقصدون معابدهم لتقديم الضحايا والقرابين. وظلت العادات الوثنية متأصلة فيهم حتى ظهر الدين المسيحي(٢).

وفي مجلة المشرق، دراسة كتبها الأب الفرد دوران اليسوعي بعنوان «رحلة السيد المسيح إلى فينيقية والمدن العشر»(٣). وهذه الدراسة تجعلنا نتساءل: هل زار السيد المسيح مدينة بيروت؟

الإنجيل يخبر بذهاب السيد المسيح «إلى تخوم صور وصيدا»(٤)، ولم تكن تلك الرحلة إلى جهات الجليل المجاورة لفينيقية، بل دخل فينيقية وتجول فيها كما يظهر من كلام القديس متى «أنه رحل إلى جهات صور وصيداء»(٥)، وذلك لينجو من دسائس أعدائه، ويبتعد عن البلاد الخاضعة لحكم هيرودوس انتيباس. والمرجح أن السيد المسيح وتلاميذه، اتجهوا من كفرناحوم على الضفة الشمالية من بحر الجليل، إلى صور على خط مستقيم، فقطعوا بلاد الجليل العليا (بلاد بشارة أو جبل عامل في يومنا هذا)؛ ولا يمكن التأكيد أنه دخل صور، أو مرّ بجوارها فقط، «ثم خرج من تخوم صور ومرّ في صيدا»(٦). ولم نجد نصاً صريحاً يدل أن السيد المسيح بلغ مدينة بيروت.

وبظهور الدين المسيحي ناهض دعاته عبادة الأوثان، مما أدى إلى اضطهادهم زمن الأباطرة تراجان سنة ١١٢ م، ودقيانوس سنتي ٢٥٠ - ٢٥١ م، وفلريان سنتي ٢٥٧ - ٢٥٨ م، حتى كان الاضطهاد الكبير في الفترة (٣٠٣ - ٣١٣ م) زمن دويوكليشان ومكسيميان، فهدمت الكنائس وأحرقت الكتب المسيحية. ومن شهداء المسيحية في تلك الفترة بامفيلوس وقد ولد في بيروت، والقديس جورجيوس «مارجرجس»، الذي تحكى عنه أسطورة قتل التنين في خليج بيروت، المعروف بخليج مارجرجس، وإنقاذ

---

(١) فيليب حتي: تاريخ لبنان، ص ٢٧٣.
(٢) يوسف يزبك: أوراق لبنانية م٣، ص ٢١١.
(٣) المشرق عدد ٢ شباط ١٩٠٨، ص ٨١-٩٢.
يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ٣، ص ١٥٩ - ١٦٤ و٢٤٩ - ٢٥٢ و٢٩٦ - ٢٩٩.
(٤) مرقس ٧: ٢٤.
(٥) متى ١٥: ٢١.
(٦) مرقس ٧: ٣١.

الأميرة. وأثناء الاضطهاد الكبير، كان يحكم على الأسرى الذين يجهرون بمسيحيتهم بالأعمال الشاقة، في مناجم الحديد في بيروت ومناجم النحاس في صيدا.

وبمجيء قسطنطين الكبير، وإعلان المسيحية دين الدولة الرسمي[1]، بدأ سحق الوثنية في القرنين الرابع والخامس للميلاد، وحول الروم البيزنطيون هياكل الوثنيين إلى كنائس وأديرة ومزارات.

وفي نهاية القرن الرابع للميلاد، أقيمت في بيروت أبرشية [2] «Bishoprie».
وفي أواخر القرن الخامس، كانت بيروت تحتوي على عدة كنائس بيزنطية، منها كنيسة القيامة وكنيسة مريم وكنيسة الرسول الشهيد يهوذا[3].

وظلت اللغة الإغريقية هي الشائعة في الشرق تحت الحكم الروماني، وبقيت سائدة في حقلي الأدب والتجارة، ذلك أن الحضارة الرومانية وريثة الحضارة الإغريقية. وهكذا استمرت الحضارة الهلينية بثوبها اللاتيني في نشاط وازدهار، وأصبحت بيروت «جزيرة لاتينية في بحر الهلينية الشرقية». وأخذت الكتابات الإغريقية تحل على النقود مكان الرسوم الميثولوجية الفينيقية، وحلت اللغة الآرامية محل اللغة الفينيقية كلغة التخاطب. وبعد انتشار المسيحية في المنطقة، أصبحت اللغة السريانية ـ وهي لهجة آرامية ـ لغة الكنائس، ثم انتشرت كلغة أدبية، بعد القرن الثالث للميلاد، بسبب الرغبة في نشر المسيحية، فترجمت الأناجيل إلى اللغة السريانية.

٣ ـ مدرسة الحقوق الرومانية:

ومما أعطى مدينة بيروت شهرتها العالمية، مدرسة الحقوق الرومانية، التي نشأت في أواخر القرن الثاني الميلادي، وازدهرت منذ أوائل القرن الثالث حتى منتصف القرن

(١) فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، جـ ١، ص ٣٨٧
ـ تاريخ لبنان، ص ٢٥٩.
(٢) صالح لمعي مصطفى: مساجد بيروت، ص ١٤.
هنري غيز: بيروت ولبنان، جـ ١، ص ١٧.
(٣) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م٣، ص ٢١٢ ـ ٢١٣.
سنة ١٩١٦ عثر العمال في سوق البازركان على آثار أبنية بيزنطية قديمة كانت بينها كنيسة ظهرت بعض أعمدتها مع صلبان بيزنطية الشكل. وقيل إن كتابة يونانية كانت فوق باب الدركة اقتطعت من رتاج باب كنيسة بيزنطية وكانت عبارة عن كلمات من الانجيل لتحريك العاطفة ومساعدة المحتاجين.

السادس الميلادي. وربما أسس هذه المدرسة سبتيموس سفيروس (١٩٣ ـ ٢١١م)، وخلد ذكره في بيروت بمعبد وتمثال[1]. ودراسة القانون هي من الشروط الأساسية لتبوأ المراكز العالية في الحكومة. وأنشأ الرومان مدارس فقهية أخرى، في رومية والاسكندرية وقيصرية فلسطين وأثينا والقسطنطينية، لكن شهرة مدرسة بيروت تفوقت على تلك المدارس جميعاً[2].

وأخذ المشترعون الرومانيون يدرسون في بيروت، بعد أن تحولت مدرسة الحقوق إلى مركز فكري خلاق، كما تحولت بيروت مركزاً للدراسات اللاهوتية. وأثناء الاضطهاد الكبير للمسيحية، استشهد كثير من خريجي بيروت. والأسقف غريغوريوس النازيزي الذي أصبح أسقفاً للقسطنطينية، ثم طوب قديساً، ذهب إلى بيروت ليتابع دروسه في القانون، وقد وصف بيروت «بالمدرسة الرومانية المحضة، وبالمركز الثابت لشرائع رومية». وقال الشاعر نونس «بيروت موطن الحقوق ومدينة الفقهاء ومرضعة الحياة باللين والتؤدة»، وذلك في القرن الرابع الميلادي. وقد مدح أيضاً غابات الصنوبر[3] في بيروت.

وترك لنا زكريا الغزاوي وصفاً لحياة الطلاب في بيروت. فهذا الطالب كان مسيحياً، يذهب إلى كنيسة القيامة في بيروت ليصلي بعد انتهاء الدروس. وكان يتمشى ناحية الميناء، وكانت الدروس تتوقف منذ ظهر السبت وحتى صباح الإثنين من كل أسبوع. وكانت مدرسة الحقوق تضم طلبة من جميع أنحاء المنطقة، وتفشت بين الطلبة ظاهرة معاقرة الخمر مع بنات الهوى والمقامرة. ومع ذلك كان الطلاب يؤسسون الجمعيات والمنظمات.

وكذلك قامت كليات للآداب والفلسفة، فلم تقتصر مدارس بيروت على علم القانون فقط، بل كان طلبتها يعكفون فيها على دراسة العلوم الأدبية بفروعها، كاللغة والأدب والفلسفة، فاشتهر هرميوس البيروتي في التاريخ، وطورس البيروتي في الفلسفة، ولو بركوس البيروتي في اللغويات، ومناسياس البيروتي في فن الخطابة. وأشهرهم جميعاً بروبس البيروتي الذي عني بتنقيح كتب اللغة، وصنف كتباً عديدة في الفصاحة والبيان والخطابة وأصول اللغة اللاتينية، حتى إن بيروت عدت بفضله كحاضرة الآداب في

(١) فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، جـ ١، ص ٣٦٠
ـ تاريخ لبنان، ص ٢٧٦.
(٢) فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، جـ ١، ص ٣٤٣ و٣٦٠.
(٣) لجنة من الأدباء: لبنان مباحث علمية واجتماعية، جـ ١، ص ٢٨٣.

المشرق[١]. كما يشار بالبنان في الطب إلى اسطراطون البيروتي[٢].

٤ ـ الزلازل تقضي على ازدهار بيروت:

كانت منسوجات بيروت من الصوف والكتان مشهورة في كل الأصقاع، بعد أن أصبحت بيروت مركزاً لتجارة الحرير والمنسوجات الحريرية، وكانت صور تنافسها في ذلك.

ويروي الشاعر نونُس، أن الكروم كانت تكسو ربى بيروت بثوب سندسي يروق للنظر. وقد امتدح بلينيوس الطبيعي، عنبها اللذيذ وخمرتها الطيبة «Berytia Vina». وقد ساعد على ازدهار بيروت الأقنية التي اصطنعها الرومان لسحب المياه الجبلية إليها، فأقيمت قناة لإمداد المدينة بالمياه (قناطر زبيدة) في وادي «Magoras»[٣] ـ نهر بيروت ـ، وذكرها صالح بن يحيى بقوله «وأما القناة التي كانت تجري إليها فهي من العماير العجيبة، كانت تجري من مكان يسمى العرعار من أرض كسروان قيد اثني عشر ميلاً»[٤].

فلا عجب إن توفرت بذلك محصولات بيروت، حتى كانت تنقل إلى غيرها من البلاد. لكن هذا الازدهار الكبير سرعان ما بددته الزلازل الهائلة التي تعرضت لها، وكان الزلزال الأول الذي ضرب المدن الساحلية، وخاصة صيدا وصور، سنة ٣٠٦ م. أما الزلزال الأول الذي أوشك أن يدمر مدينة بيروت تماماً، كان سنة ٣٤٩ م[٥]، زمن الامبراطور كونستانس، فقد دمر هذا الزلزال الجزء الأكبر من مدينة بيروت، ووصل الجزع بالوثنيين من سكانها، في حينه، إلى حد جعل معظمهم يطلب التعمد، وأدى قبولهم الكثيف إلى بعض الاضطرابات في الكنيسة المسيحية. وبعد زوال الخطر عاد قسم منهم إلى الوثنية، وتمذهب قسم آخر بمذهب جديد مزج بين معتقدات النصرانية وخرافات الوثنيين[٦].

---

(١) لجنة من الأدباء: لبنان مباحث علمية واجتماعية جـ ١، ص ٢٨١.
(٢) المرجع نفسه، جـ٢، ص ٥٦٠.
(٣) صالح لمعي مصطفى: مساجد بيروت، ص ٤.
(٤) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٩.
فيليب حتي: تاريخ لبنان، ص ٢٦١.
(٥) فيليب حتي: تاريخ لبنان، ص ٢٨٣.
لجنة من الأدباء: لبنان مباحث علمية واجتماعية، جـ ١، ص ٢٩٠.
(٦) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ٢، ص ١٧٧.

لكن بيروت ما لبثت وأن نزعت عنها ثوب الحداد، وعادت إلى ما كانت عليه من الشهرة في تدريس الفقه والعلوم. ثم شعر أهل بيروت بهزات خفيفة سنتي ٤٩٤ و٥٠٢ م، حتى كان زلزال ليل ٢١ ـ ٢٢ آب ٥٠٢ م، الذي دمر فقط كنيس اليهود[١] في بيروت، بينما تهدمت مدينتا صيدا وصور جزئياً، ومدينة عكا كلياً، وفي ٢٦ أيار سنة ٥٢٩م، ضرب زلزال جديد قسماً من أبنية بيروت، وهلك جانباً من سكانها. وكذلك في سنة ٥٤٣ م تخرب قسم من بيروت. ومع ذلك بلغت مدينة بيروت أوج عزها، في عهد جستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥م) الذي طلب من الفقهاء وضع دستور الشرائع الجامع للقوانين الرومانية، وكان من بينهم ثلاثة من أساتذة مدرسة بيروت الفقهية، وهم أوداكسيوس البيروتي واناطوليوس ودوروتاوس، ولقبت بيروت وقتها بأم العلوم والشرائع. لكن الزلازل لم تترك بيروت تفرح بازدهارها، ففي ٩ تموز سنة ٥٥١م[٢] اهتز الساحل اهتزازاً شديداً، تبعه جذر في البحر وحريق، واشتعلت النيران في بيروت بعد دمار المدينة، لمدة شهرين، حتى ذابت الأحجار وتكلست، وتحطمت السفن، ودمرت كل أبنية بيروت الشامخة البديعة المنظر، ولم يبق منها إلا ردم وخراب. وقد هلك تحت أنقاضها ألوف من أهلها، ومن نخبة الشبان الذي قصدوا بيروت من العالم أجمع لدراسة الحقوق في مدرستها الشهيرة. وقد اضطرت الدولة إلى نقل هذه المدرسة إلى صيدا، ريثما يتجدد بناء المدينة ومدارسها. وقد ساعد الامبراطور جستنيان في التفتيش عن جثث الضحايا ودفنها، وأعيد بناء قسم من المدينة، رغم وقوع زلزال آخر سنة ٥٥٤م. وأوشكت الأمور أن تعود كما كانت في السابق، لولا نكبة الحريق[٣] التي حلت ببيروت سنة ٥٦٠م، فشبت النار في بيروت والتهمت معاهدها،

---

(١) يرجح الأب كرنيرو الفرنسيسكاني، رئيس دير «تيرا سانتا» في بيروت أن على أنقاض الكنيس اليهودي بنيت الكنيسة التي ظلت مدة طويلة في يد الرهبان الفرنسيسكان ثم تحولت إلى مسجد عرف بجامع السرايا. ولعل الكنيس كان جنوب جامع السرايا في المحلة التي عرفت باسم حي اليهود وبعد تدميره صار اليهود يؤدون فروض العبادة في غرف خاصة بمنازل الأسر المعروفة.
يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ٢، ص ١٧٨ وم ٣، ص ٢١٤.
(٢) فيليب حتي: تاريخ لبنان، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤.
لجنة من الأدباء: لبنان مباحث علمية واجتماعية، جـ ١، ص ٢٩١.
يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ٢، ص ١٧٨ ـ ١٧٩.
(٣) فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، جـ ١، ص ٤٠٢.
لجنة من الأدباء: لبنان مباحث علمية واجتماعية، جـ ١، ص ٢٩١.
يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ٢، ص ١٧٩.

ودور سكانها. وإلى حادثتي سنة ٥٥١ وسنة ٥٦٠م، أشار أحد شعراء إسبانيا يوحنا يربوقلوس، في قصيدة له عن لسان بيروت يقول فيها:

«أنا أشأم المدن طائراً، وأسوأهم حالاً. رأيت جثث أبنائي تغطي ساحاتي دفعتين في ظرف تسع سنوات. رماني فلكان (إله النار) بسهامه النارية، بعد أن صدمني نبتون (إله البحر ومزلزل الأرض).

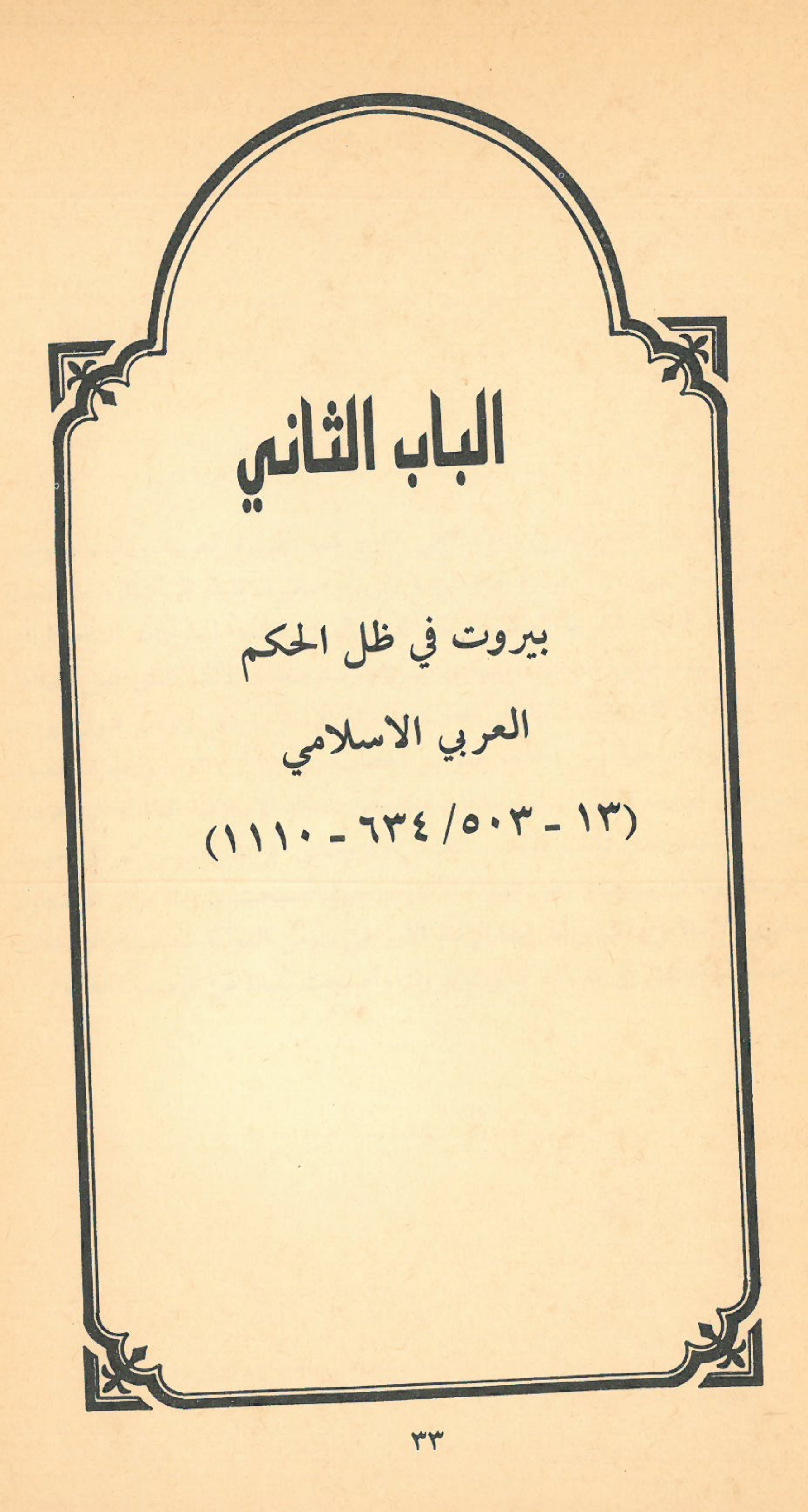
وأسفي على جمالي السابق، مسحه الدهر فأحالني إلى رماد: فتلهفوا، أيها السفر، على سوء طالعي، واندبوا بيروت المضمحلة..»[1]

وهذا دليل على خراب بيروت التي لم تبلغ مقامها السابق بعد تلك النكبات، ولم تفلح الإصلاحات التي أقيمت في عصر جستنيان، بهدف إعادة مدينة بيروت إلى صورتها الأولى.

ومما يجدر ذكره أن سور بيروت القديم، تخرَّب بالزلازل والغارات، وكان يعاد ترميمه من وقت لآخر، كما أن دفاعات المدينة كانت ضعيفة نسبياً، مما سهل دخول القوات العربية الإسلامية إلى بيروت.

---

(١) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ٢، ص ١٧٩.



الباب الثاني

بيروت في ظل الحكم العربي الاسلامي

(١٣ - ٦٣٤/٥٠٣ - ١١١٠)

عندما بدأ الفتح العربي ـ الإسلامي خارج شبه الجزيرة العربية، كانت بيروت، في أواخر أيام الرومان، عبارة عن مدينة «قرية» صغيرة، قليلة السكان، متواضعة البيوت، قد فقدت شهرتها العالمية. وكان الفتح العربي امتداداً للموجات السامية التي نزحت من شبه الجزيرة العربية، وسكنت بيروت منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، ولكن مع فارق كبير وحدث تاريخي عظيم هو راية الإسلام، التي رفرفت فوق بيروت وسائر المدن الساحلية زمن الخليفة عمر بن الخطاب سنة ١٦/ ٦٣٧. وأخذ المسلمون يرابطون في بيروت وتلك المدن، للدفاع عنها وعن الدولة الإسلامية الناشئة التي هزمت القوتين العظميين في ذلك الوقت: الفرس والرومان. فرابط الفرس ثم التنوخيون والأرسلانيون في بيروت، زمن الدولة الأموية، حيث أصبحت بيروت مركز الأسطول البحري الإسلامي. كما رابط فيها الإمام الأوزاعي، زمن الدولة العباسية التي نقلت العاصمة من دمشق إلى بغداد، فتأثرت بيروت وأصبحت بعيدة عن عاصمة الخلافة.

الفصـل الأول

الفتح العربي الإسلامي لبيروت
(١٣ - ٤١/ ٦٣٤ - ٦٦١)

بعد سبعة قرون من الحكم الروماني لبيروت، كانت شبه الجزيرة العربية تشهد حدثاً تاريخياً هو تجميع القبائل العربية تحت راية الإسلام، ثم نشر هذه الراية في العراق وفارس ومصر والشام. . فكان هذا الحدث التاريخي نقطة تحول عظيمة في تاريخ بيروت وسائر المدن التي دخلت تحت راية الإسلام.

١ - تاريخ فتح بيروت:

بدأ الجيش العربي الإسلامي فتوحاته خارج شبه الجزيرة العربية زمن الخليفة أبي بكر الصديق سنة ١٢/ ٦٣٣. وفي هذا الوقت كانت بيروت من المدن الساحلية التي تتبع إقليم دمشق، مثل مدن طرابلس وعرقة وجبيل وصيدا.

وقد عهد أبو عبيدة بن الجراح إلى يزيد بن أبي سفيان بفتح بيروت والمدن الساحلية، بعد أن استخلفه على دمشق. وكان معاوية بن أبي سفيان قد اشترك مع أخيه يزيد في فتح السواحل. لم يحدد البلاذري تاريخ فتح بيروت، وما يذكره أن «يزيد أتى بعد فتح مدينة دمشق وصيدا وعرقة وجبيل وبيروت وهي سواحل وعلى مقدمته أخوه معاوية ففتحها فتحاً يسيراً وجلا كثير من أهلها»(١). أما ابن الأثير فيحدد تاريخ فتح بيروت في سنة ١٣/ ٦٣٤ (٢)، في خلافة عمر بن الخطاب، ويتفق مع البلاذري على أن فتح مدينة بيروت والمدن الساحلية تم بعد فتح دمشق. في حين أن اليعقوبي يذكر أن فتح دمشق تم في رجب سنة ١٤/ ٦٣٥ (٣).

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، جـ١، ص ١٥٠.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، م ٢، ص ٤٣١.
(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، جـ٢، ص ١٤٠.

والواقع أن فتح المدن الساحلية، باستثناء مدينة طرابلس، قد تم الفراغ منه في أواخر سنة ١٦ هـ أو أوائل سنة ١٧ هـ . ثم تقررت الجزية (١) على المدن الساحلية، بيروت وصور وعسقلان وقيسارية ، وذلك في نفس العام . ومما يجدر ذكره أن ابن عساكر لا يذكر شيئاً عن فتح بيروت ، في الوقت الذي يتحدث فيه عن فتح المسلمين لطرابلس والمدن الساحلية الأخرى(٢).

ولعل عدم أهمية بيروت، وتواضع بيوتها وصغرها وقلة عدد سكانها عندما دخلها المسلمون، جعل المؤرخين لا يعيرونها إهتماماً، أيام الفتوحات الإسلامية الأولى، فاكتنف تاريخها الغموض في تلك الفترة، وبالتالي لم تصلنا معلومات دقيقة عنها وعن عدد سكانها وعن كيفية فتحها وتاريخه. ومما يذكر أن دخول المسلمين إلى مدينة بيروت كان أمراً سهلاً، ولم تكن بيروت ذات شأن أو أهمية من حيث السكان والعمران، فقد كانت بيوتها قليلة ومتواضعة، منذ أن ضربها زلزال سنة ٥٦٠ م ، أي مثل قرية صغيرة. ومع ذلك نعلم أن الخليفة عمر بن الخطاب زار البلدان المفتوحة، وعقد مع قواده مؤتمر الجابية(٣) سنة ١٧/ ٦٣٨، حيث قسم سورية إلى أربع مناطق عسكرية (جند)، هي دمشق وحمص والأردن وفلسطين، وأقام عليها عمالاً، وبذلك يكون قد طبق التنظيم البيزنطي لسورية .

وكانت بيروت تابعة لجند دمشق، فيقول صفي الدين: «بيروت بالفتح ثم السكون وضم الراء وسكون الواو والتاء فوقها نقطتان: مدينة مشهورة على بحر الشام، تعد من أعمال دمشق، بينها وبين صيدا ثلاثة فراسخ»(٤). ويذكر المقدسي أن «بيروت من مدن دمشق. . . والمسافة من دمشق إلى بيروت هي يومين»(٥). ويذكر الاصطخري: «بيروت مدينة على شط بحر الروم حصينة من عمل دمشق»(٦) وهكذا دخلت مدينة بيروت، منذ أن افتتحها المسلمون، في نطاق جند دمشق، الذي كان يضم إضافة لها: طرابلس وعرقة وصيدا وصور والبقاع وحصن الصرفند وعزنون وبصرى

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت، ص ١٣ .
(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ ٦، ص ١٨٤ .
(٣) فيليب حتي: تاريخ لبنان، ص ٢٩٤ .
(٤) صفي الدين: مراصد الاطلاع، جـ ١، ص ٢٤٠ .
(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ١٥٣ و١٩٠ .
(٦) الاصطخري: مسالك الممالك، ص ٦٥ .

عمان والجابية والحولة(١). . .

ويذكر أن طاعون عمواس انتشر في سورية سنة ١٨/ ٦٣٩، ومات فيه ٢٥ ألفاً من جيش المسلمين، من بينهم القادة أبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان، ولا نعلم مدى تضرر بيروت بهذا الوباء.

٢ ـ الأسطول البيزنطي يحتل بيروت (٢٢ ـ ٢٤ / ٦٤٣ ـ ٦٤٥) :

قام الأسطول البيزنطي بغارة انتقامية ضد المسلمين سنة ٢٢/٦٤٣، استرد فيها بيروت والمدن الساحلية، وأعاد الروم إلى السواحل الشامية من جديد، وأصبح خطره يهدد المسلمين في كل وقت. وعلى الفور أخذ والي الشام معاوية بن أبي سفيان، يستعد لاسترداد السواحل الشامية، فقام بهجوم بري وبحري سنة ٢٤/٦٤٥، استطاع به استرداد بيروت والمدن الساحلية، باستثناء طرابلس التي استردها المسلمون سنة ٤٧ / ٦٦٧ . وهكذا غادرت الحامية البيزنطية بيروت ثانية أمام الهجوم الإسلامي. وقد كانت بيروت بمثابة قرية صغيرة، يسكنها عدد قليل من السكان هم من صيادي الأسماك أو رجال الحرف الذين يتبعون الجيوش عادة، لذلك لم تصمد أمام الغارة الإنتقامية التي قام بها الأسطول البيزنطي. وعندما استردها المسلمون، أدركوا ضرورة تحويلها إلى مركز للأسطول البحري الإسلامي من جهة، وإلى جلب السكان ليسكنوا فيها إلى جانب رجال الحامية البحرية من جهة ثانية. لأن الدفاع عن بيروت والساحل لا يجدي ما لم تكن بيروت أو الساحل مشحوناً بالسكان والحاميات الكثيفة. لذلك يذكر صالح بن يحيى(٢)، أن معاوية بن أبي سفيان والي الشام، عمر المراكب في بيروت عندما أراد غزو جزيرة قبرص سنة ٢٧ / ٦٤٧ .

٣ ـ بيروت «مرابط» جند دمشق :

يذكر ابن حوقل: «مدينة بيروت التي على ساحل بحر الروم. . بها يرابط أهل دمشق وسائر جندها، وينفرون إليها عند استنفارهم، وليسوا كأهل دمشق في جفاء الأخلاق

(١) اليعقوبي: كتاب البلدان، ص ١٠٥ .
ابن خردزابة: المسالك والممالك، ص ٧٧ و٢٥٥ .
المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ١٥٣ .
(٢) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٤ .

وغلظ الطباع»[1]. كما يذكر المقدسي أن «بيروت وصيدا مدينتان حصينتان...»[2]

لقد اهتم المسلمون بصورة خاصة في المدن الساحلية، وبالطبع كانت مدينة بيروت منها، وذلك لتعزيز عدد المسلمين فيها من جهة، وللدفاع عن الدولة الإسلامية الناشئة من جهة ثانية. فرابط المسلمون في مدينة بيروت وغيرها من المدن الساحلية الإسلامية، ليقفوا سداً منيعاً في وجه الأعداء، إذا ما فكروا بالعودة إليها ثانية.

ومنذ الفتح الإسلامي أخذ المسلمون يتكاثرون في بيروت، والروم تقل فيها شيئاً فشيئاً، حتى صار أكثر أهل بيروت من المسلمين[3]. وكذلك في بقية المدن الساحلية.

وكانت بيروت والمدن الساحلية، قد تعاقبت عليها المدنيات المختلفة التي تأثرت بها، من كنعانية وفينيقية ومصرية وعبرية وفارسية ويونانية ورومانية، وكان بعض أهل بيروت وهذه المدن قد شارك في هذه المدنيات. وعندما فتح العرب المسلمون بيروت وبقية المدن نشروا لغتهم وتعاليم الإسلام بها، فأخذ أهل بيروت يتعلمون اللغة العربية، ويتكلمون بها مع لغتهم الآرامية أو اليونانية. كذلك أخذ الإسلام يحل فيها محل النصرانية واليهودية، ودخل الكثير من أهل بيروت في الإسلام. وكان الخليفة عمر بن الخطاب أول من بعث إليهم من يعلمهم الدين الجديد، فتفرق «معاذ وعبادة وأبي الدرداء»[4]، في الشام، يعلمون أهلها، وتخرَّج على أيديهم كثير من التابعين.

ومن الصحابة والتابعين الذين رابطوا في بيروت، أبو الدرداء[5]، وسلمان الفارسي[6]، وبشير بن سعد، وأبو ذر الغفاري، وعبد الملك بن جادر، وسعيد المقبري،

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٦٢.
(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ١٩٠.
(٣) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٣.
(٤) أحمد أمين: فجر الإسلام، ص ١٨٨.
(٥) أبو الدرداء (ت ٦٥٢/٣٢): هو عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي، صحابي من الحكماء الفرسان القضاة. ولاَّه معاوية قضاء دمشق بأمر من عمر بن الخطاب، وهو أول قاض بها، مات بالشام.
الزركلي: الاعلام، جـ ٥، ص ٩٨.
(٦) سلمان الفارسي (ت ٦٥٦/٣٦): صحابي كان يسمي نفسه سلمان الإسلام أصله من مجوس أصبهان عاش عمراً طويلاً، وهو الذي دلَّ المسلمين على حفر الخندق في غزوة الأحزاب، حتى اختلف عليه المهاجرون والأنصار كلاهما يقول: سلمان منا، فقال رسول الله: سلمان منا أهل البيت! وجعل أميراً على المدائن، فأقام فيها إلى أن توفي وله في كتب الحديث ٦٠ حديثاً.
المرجع نفسه، جـ ٣، ص ١١٢.

والدرداء بن أبي الدرداء وزوجته العميصاء بنت ملحان الانصارية الشهيرة «بأم حرام». وكان هؤلاء يقضون فترات تتراوح بين الستة أشهر وثلاث سنوات في بيروت، يقاتلون ويحدثون ويدرسون، ثم يعودون إلى مواطنهم الأصلية. وكانت قلة منهم تبقى في بيروت، لذلك يقال إن في بيروت قبور جماعة من الصحابة والتابعين. والرباط ببيروت تقليد قديم، بل إن مدينة بيروت كانت مرابط أهل دمشق منذ أيام خلافة عثمان بن عفان، فعندما سأل سلمان الفارسي أهل دمشق عن أبي الدرداء، قالوا له: إنه مرابط؛ فقال: وأين مرابطكم يا أهل دمشق؟ قالوا: بيروت، فذهب للرباط معه هناك[1].

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ ١٦، ص ٩٢، وجـ ٢٤، ص ٣٧٨.

الفصل الثاني

بيروت في العصر الأموي
(٤١ - ١٣٢/ ٦٦١ - ٧٥٠)

عرفت بيروت حكم الخلفاء المسلمين الأولين: عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وبمقتل هذا الأخير سنة ٤١/ ٦٦١، وتخلي ابنه الحسن عن الخلافة، استطاع عامل الشام، معاوية بن أبي سفيان، أن يؤسس الدولة الأموية وعاصمتها دمشق. ثم وجه عنايته إلى تحصين بيروت فتحولت إلى مركز الأسطول البحري الإسلامي.

١ - تحصين بيروت والمدن الساحلية الإسلامية:

ما كاد معاوية يظفر بالخلافة سنة ٤١/ ٦٦١، حتى عمل على تدعيم الدفاع عن السواحل ومنذ أن كان عاملاً على الشام، قبل تقلده الخلافة، شعر بالخوف من غزوات الروم، فاستدعى قوماً من الفرس، ليستوطنوا الساحل ومنه بيروت، فذكر اليعقوبي:

«إن جبيل وصيدا وبيروت وأهل هذه الكور كلها قوم من الفرس نقلهم إليها معاوية بن أبي سفيان»[1].

ولعل معاوية كان يهدف من وراء حركة التبديل السكاني، في بيروت والمدن الساحلية، إلى تمييع الشعور القومي عند سكان هذه السواحل الموالين للبيزنطيين، وحتى لا ينتفضوا مجدداً على المسلمين، كما حدث في مدينة الإسكندرية سنة ٢٥/٦٤٥، وفي طرابلس التي انتفضت عليه في أول خلافته[2]، وتمكن بعض الروم من أهلها من ذبح

---

(١) اليعقوبي: كتاب البلدان، ص ٣٢٧.
(٢) عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة صيدا، ص ٦٢.

عاملها، واحراق قطع من الأسطول العربي الراسية في مينائها[1]، لكن معاوية تمكن من القضاء على هذه الحركة. ولعل ذلك كان من الأسباب التي حملته على نقل جماعة من الفرس إلى سواحل الشام سنة ٤٢ / ٦٦٢ ومن بينها بيروت وصيدا وجبيل [2] ، وكذلك طرابلس [3] ، وذلك لتأمين حماية هذه المدن من إغارات الأسطول البيزنطي ، إذ أن الحمراء أي الفرس كما كانوا يسمون ، (والذين ما زال شارع في بيروت يعرف باسمهم الحمراء) أبرع في الحروب البحرية من العرب الذين برعوا في الحروب البرية [4] .

ولعل معاوية كان يسعى أيضاً إلى تمكين الدفاع البري عن السواحل ، ولحراستها من غزوات المردة بتشجيع من أباطرة بيزنطة ، ولهذا السبب استقدم الأمراء الأرسلانيين والتنوخيين ، الذين حكموا بيروت والساحل [5] .

وهكذا حصن معاوية الثغور الإسلامية على ساحل الشام ، ومنها ثغر بيروت ، وشحنها بالمقاتلة الذين يرابطون بها ، ويتولون حراستها في المناظر والأبراج والمناور وأقطع من ينزل السواحل من المسلمين القطائع والأخائذ [6] ، مستهدفاً من وراء ذلك تشجيع المسلمين على ركوب البحر ، وعلى هذا النحو أصبحت سواحل الشام مبثوثة بالقلاع والأبراج ، التي كانت أشبه شيء بسور يمتد بحذاء الساحل ، أو سلسلة متصلة من التحصينات التي ترابط فيها حاميات [7] ، تنقسم كل منها إلى مجموعات ، وكل مجموعة (عرافة) تتألف من مائة رجل . وكانت هذه التحصينات مزودة في أعلاها بمواقيد يشعلها الحراس والقائمون بالدفاع عن الساحل عند اقتراب سفن الأعداء منه ليلاً . وحظيت بهذه التحصينات سواحل بيروت وجبيل وطرابلس وعرقة وأنطاكية وصيدا في الشام ، وكذلك سواحل الاسكندرية ورشيد والبرلس وتنيس ودمياط في مصر . وأصبحت بيروت مدينة حصينة [8] .

(١) جرجي يني: تاريخ سوريا، ص ٣٧٨.
(٢) اليعقوبي: كتاب البلدان، ص ٣٢٧.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٣٧.
(٤) زاهية قدورة: بحوث عربية، ص ٩٠.
(٥) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٤١.
(٦) البلاذري: فتوح البلدان، جـ ١، ص ١٥٢.
(٧) العبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص ١٦.
(٨) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٦٠

٢ - بيروت مركز الأسطول البحري الإسلامي :

اعتمد معاوية على المسلمين من أهل الشام، وبالذات سكان السواحل مثل بيروت وصيدا وصور وجبيل وطرابلس، الذين برعوا في صناعة السفن وتمرسوا في ركوب البحر ونبغوا في قيادة الأساطيل منذ أقدم العصور، بحكم تطلعهم إلى البحر واحتكاكهم التجاري بعالم البحر المتوسط القديم[1].

وكان أول عمل قام به في هذا السياق، أن عين جنادة بن أبي أمية[2] في منصب «أمير بحر الشام»، فأقام ببيروت[3]. واتضحت أهداف البحرية الإسلامية، بالدفاع عن السواحل الشامية ضد غارات البيزنطيين، ثم بالهجوم على مراكز إعداد هذه الغارات، وخاصة في الجزر البحرية، مثل قبرص ورودس وأرواد. وعلى هذا الأساس خرج أمير البحر جنادة بالأسطول البحري الإسلامي من بيروت سنة ٥٢/٦٧١، واستولى على جزيرة رودس، التي كانت نقطة انطلاق الأسطول البيزنطي ضد السواحل الإسلامية، واستوطنها المسلمون «وزرعوها واتخذوا بها أموالاً ومواشي، يرعونها حولها فإذا أمسوا أدخلوها الحصن. . . وكانوا على حذر من الروم، وهم أشد عليهم فيعترضونهم في البحر فيقطعون الطريق على سفنهم حتى أخافوهم. وكان معاوية يعاقب بين الناس فيها، ويمدهم بالعطايا والأرزاق. . »[4]

وإضافة إلى رودس، يبدو أن الأسطول البحري الإسلامي تمكن من فتح جزر أرواد وقبرص واقريطش، انطلاقاً من بيروت. لكن الأسطول الإسلامي الناشيء وجد نفسه عاجزاً عن حماية السواحل الشامية كلها، فضلاً عن الجزر التي احتلها، أمام الأسطول البيزنطي الذي أخذ يقوم بغارات سريعة، وبقطع قليلة، على المدن الساحلية

= الاصطخري: مسالك الممالك، ص ٦٥.
ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٦٢.
(١) العبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص ٢٥.
(٢) جنادة بن أبي أمية مالك الأزدي الزهراني (ت ٨٠ / ٦٩٩) قائد بحري، صحابي. من كبار الغزاة في العصر الأموي. كان قائد غزوات البحر أيام معاوية كلها وهو ممن شهد فتح مصر ودخل جزيرة رودس فاتحاً سنة ٥٣ هـ وتوفي بالشام.
الزركلي: الاعلام، جـ ٢ ص ١٤٠.
(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ ١٦، ص ٩٢، وجـ ٢٤، ص ٣٧٨.
(٤) المصدر نفسه جـ ٥، ص ٢٣٨.

الإسلامية، كما قام بمحاصرة الجزر الإسلامية. لذلك اتبع المسلمون سياسة بحرية جديدة، تقضي بتجميع الأسطول البحري الإسلامي كله في بيروت وصور، والانسحاب من الجزر البحرية والاكتفاء بالاغارة عليها من بيروت. فتحولت بيروت إلى مركز للأسطول البحري الإسلامي من جهة، وإلى مركز لتوطين الفرس وغيرهم من السكان إلى جانب رجال الحامية البحرية من جهة ثانية. لأن الدفاع عن بيروت والمدن الساحلية لا يكون إلا إذا كانت مشحونة بالسكان والحاميات الكثيفة، إضافة إلى قطع الأسطول البحري الإسلامي.

٣ ـ أمير مدينة بيروت:

وكان أمير البحر هو أمير مدينة بيروت، ذلك أن سكان بيروت جميعاً كانوا مقاتلين أو مرابطين، يأتون ويذهبون، ويرتبطون إدارياً ومالياً بأمير البحر مباشرة. ثم جرى استحداث منصب أمير المدينة أيام عبد الملك بن مروان، بعد أن قدمت أفواج جديدة من السكان إلى بيروت، وتم الفصل بين منصب أمير البحر وأمير المدينة. وأطلق على أمير المدينة لقب «أمير ساحل دمشق»، وهي المنطقة الممتدة من عكا إلى طرابلس، وكان يتخذ بيروت أحياناً مقراً له.

وقد تولى منصب أمير مدينة بيروت، زمن الأمويين، عبد الرحمن بن سليم الكلبي(١)، الذي خف من بيروت لنجده مدينة طرابلس عندما حاصرها البيزنطيون، أيام الوليد بن عبد الملك، وتولى مفاوضة البيزنطيين على رفع الحصار والانسحاب من طرابلس(٢).

كما تولى إمارة مدينة بيروت أيضاً أيوب بن خالد الجهني(٣). في حين ورد اسم أمير البحر الأسود ابن بلال، زمن الوليد بن يزيد.

٤ ـ الحياة العلمية والأدبية والدينية:

أخذت بيروت تنمو وتتسع في العصر الأموي فنشأت فيها حياة علمية مستقرة، وكان أمراء بيروت وأمراء البحر بها، من علماء التابعين غالباً، ومن هؤلاء حيان بن

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ ٢٢، ص ٥٩٥ ـ ٥٩٨.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٢٢، ص ٥٩٦.
(٣) المصدر نفسه، جـ ٣، ص ٢٠٤.

وبرة المري «صاحب أبي بكر الصديق»(١)، وأيوب بن خالد الجهني الخزاعي أمير بيروت وتلميذ الأوزاعي(٢)، وجنادة بن أبي أمية أمير البحر ببيروت وهو صحابي حدث وأفتى ببيروت ودمشق(٣).

وقد عرفت بيروت منصب القاصّ في السرايا البحرية، ومن قصاص بيروت، تبيع ابن امرأة كعب الذي كان يعظ المسلمين في بيروت وقبرص ورودس، ومجاهد بن جبر الذي كان يقص عليهم ويقرئهم القرآن(٤).

وفي أواخر العصر الأموي كان يوجد في بيروت مسجد جامع هو مسجد «ورد»(٥)، ويبدو أن ورد هو اسم المولى الفارسي الذي بنى المسجد.

لكن خلفاء بني أمية لم يهتموا بالحركة الدينية، إنما شجعوا الشعر والخطابة وفنون الأدب. وقد زار الوليد بن يزيد بن عبد الملك(٦) بيروت وسواحل الشام متفقداً لها؛ وذكرها في شعره(٧):

إذا شيتُ تصابرت ولا أصبرُ إن شيتُ
ولا والله لا يصبر في البريةِ الحوتُ
ألا يا حبذا شخص حمت لقياه بيروتُ

وكانت الحركة الدينية تنمو من نفسها زمن الأمويين، وكان الباعث على نموها الحماسة الدينية، وحاجة الناس إلى معرفة الحلال والحرام في الأمور التي استحدثتها الظروف الجديدة. وهكذا ظهر في هذا العصر اثنان من الأئمة الأربعة عند أهل السنة،

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ ٥، ص ١٨.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٥، ص ٣٠٤.
(٣) المصدر نفسه، جـ ٣، ص ٣٠٨ و٣٠٩.
(٤) المصدر نفسه، جـ ١٠، ص ٤٣١.
(٥) المصدر نفسه، جـ ٣، ص ٤٨٠.
(٦) الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان (٨٨ ـ ١٢٦/٧٠٧ ـ ٧٤٤) تولى الخلافة سنة ١٢٥ هـ، نقم عليه الناس لانهماكه في اللهو وسماع الغناء فبايعوا سراً يزيد بن الوليد بن عبد الملك الذي نادى بخلعه فقصده جمع من أصحاب يزيد وقتلوه.
الزركلي: الاعلام، جـ ٨، ص ١٢٣.
(٧) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٥.

وهما الإمام أبو حنيفة[١] والإمام مالك[٢]، وقد عاش مذهب كل منهما حتى يومنا هذا. في حين ظهر في الشام، وتحديداً في بيروت، إمام لم يعش مذهبه طويلاً، هو الإمام الأوزاعي[٣] الذي شهد العصرين الأموي والعباسي. وكان الأوزاعي يقيم في بيروت، حيث كان يدرس على نطاق واسع في زاوية معروفة باسمه هي «زاوية الأوزاعي»[٤].

---

(١) الإمام أبو حنيفة: (٨٠ - ١٥٠/٦٩٩ - ٧٦٧): هو النعمان بن ثابت الكوفي، الفقيه المجتهد المحقق، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. ولد ونشأ في الكوفة وكان يبيع الخز ويطلب العلم في صباه ثم انقطع للتدريس والافتاء. أراده المنصور العباسي على القضاء فامتنع فحبسه إلى أن مات.
التنوخي: نشوار المحاضرة، جـ ٦، ص ٢٠٢، وجـ ٧، ص ٣٥ - ٤٣.
ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ٥، ص ٣٩.
الزركلي: الاعلام، جـ ٨، ص ٣٦.

(٢) الإمام مالك (٩٣ - ١٧٩/٧١٢ - ٧٩٥): هو مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري، أبو عبد الله، إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة وإليه تنسب المالكية. مولده ووفاته بالمدينة. وشي به إلى جعفر عم المنصور العباسي فضربه بالسياط بقسوة. وقصده الرشيد فحدَّثه. وله كتاب «الموطأ».
التنوخي: نشوار المحاضرة، جـ ٥، ص ١٨٨ و١٨٩، وجـ ٦ ص ٩٨ و٩٩ و١٣٨.
ابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٢، ص ٩٦.
ابن العماد: شذرات الذهب، جـ ١، ص ٢٨٩ - ٢٩٢.
الزركلي: الاعلام، جـ ٥، ص ٢٥٧ - ٢٥٨.

(٣) الأوزاعي (٨٨ - ١٥٧/٧٠٧ - ٧٧٤): عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الأوزاعي، من قبيلة الأوزاع، أبو عمرو، إمام الديار الشامية في الفقه والزهد. ولد في بعلبك، ونشأ في البقاع وسكن بيروت وتوفي بها، وعرض عليه القضاء فامتنع. وله كتاب «السنن» في الفقه و«المسائل» ويقدر ما سئل عنه بسبعين ألف مسألة أجاب عليها كلها وكانت الفتيا تدور بالأندلس على رأيه إلى زمن الحكم بن هشام.
ابن النديم: الفهرست، جـ ١، ص ٢٢٧.
صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٣.
الزركلي: الاعلام، جـ ٣، ص ٣٢٠.

(٤) هُدمت زاوية الأوزاعي في عهد الانتداب الفرنسي وكانت تقع عند مدخل سوق الطويلة وقبل ذلك كان قد ألحق بها سبيل أقامه سليمان الصوباشي الكاتب ببيروت سنة ١٥٢٩/٩٣٥ تذكاراً للإمام الأوزاعي. وبعد هدم الزاوية قام مكانها مخزن خصص ريعه للأوقاف الإسلامية وفي أعلاه حجرة أعدت للصلاة.
شفيق طبارة: الإمام الأوزاعي، ص ٢٦٩ - ٢٧٠.
داود كنعان: بيروت في التاريخ، جـ ٢، ص ١٢.
يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ١، ص ٤٩٩.

الفصل الثالث

بيروت في العصر العباسي
(١٣٢ - ٥٠٣ / ٧٥٠ - ١١١٠)

سقطت الدولة الأموية وعاصمتها دمشق سنة ١٣٢/ ٧٥٠، فدخلت بيروت تحت سلطة الخلافة العباسية المباشرة وعاصمتها بغداد، لمدة ١٢٩ سنة. ثم تأرجحت بيروت بين سيطرة الدويلات الطولونية والأخشيدية والفاطمية، التي نشأت في ظل الدولة العباسية، وذلك لمدة ٢٣١ سنة.

١ - تأثر بيروت بنقل عاصمة الخلافة الإسلامية من دمشق إلى بغداد:

شهد العصر العباسي نزول الساحل وفيه بيروت من رتبته العالية، فبعد أن كان قريباً من العاصمة دمشق أصبح بعيداً عن العاصمة الجديدة بغداد التي بناها المنصور[١]، وتحولت أنظار المسلمين إلى المدن الداخلية كبغداد ودمشق وحمص وحلب.. ومع ذلك أدرك العباسيون ما لهذا الساحل من أهمية فأمروا بتحصين ثغوره، وأرسل أبو جعفر المنصور قبيلة من المسلمين (آل تنوخ)، وعول عليهم صد غارات الروم وأهالي الجبل. فنزل أحد رؤسائهم الأمير أرسلان[٢] رأس البيدر، وقطن الباقون أرباض بيروت[٣] وصيدا

---

(١) المنصور العباسي (٩٥ - ١٥٨/٧١٤ - ٧٧٥): عبد الله بن محمد بن علي بن العباس، أبو جعفر المنصور، ثاني خلفاء بني العباس. وهو باني مدينة بغداد أمر بتخطيطها سنة ١٤٥ هـ وجعلها عاصمة ملكه بدلاً من الهاشمية التي بناها السفاح.
الزركلي: الاعلام، جـ ٤، ص ١١٧.

(٢) الأمير أرسلان (١٠٩ - ١٧٠/٧٢٧ - ٧٨٧): هو أرسلان بن مالك بن بركات بن المنذر بن مسعود، من بني الملك المنذر بن ماء السماء اللخمي. رأس الأسرة الأرسلانية في لبنان وإليه نسبتها كان مقيماً هو وبعض أقاربه في معرة النعمان (بسورية).
المرجع نفسه، جـ ١، ص ٢٨٨.

(٣) لجنة من الأدباء: لبنان مباحث علمية واجتماعية، جـ ١، ص ٢٩٦.

سنة ١٤٥ / ٧٦٣ . وهكذا عمر الأمير أرسلان وأقاربه الجبال المحيطة ببيروت ، وكانت خالية في ذلك الوقت ، وسكن هو في سن الفيل ، وعندما توفي دفن في بيروت [١] .

٢ ـ الإمام الأوزاعي يرابط في بيروت :

خرج من بيروت كثير من أهل العلم والرواية[٢]، فكان الوليد البيروتي (١٢٦ - ٢٠٣ هـ) وولده أبو الفضل العباس بن الوليد البيروتي (١٧٩ ـ ٢٧٠ هـ)، وكذلك أبو مسهر البيروتي وعبد الله بن إسماعيل بن زيد بن صخر البيروتي، وأبو عبد الرحمن المعروف بمكحول البيروتي[٣] . وكان الإمام الأوزاعي أشهر هؤلاء جميعاً، وقصته مع الوالي العباسي صالح بن علي[٤]، من أشهر القصص البطولية في تاريخ المسلمين المرابطين في بيروت والساحل، والذين كانوا يساعدون سكان المدن الداخلية أحياناً، إضافة إلى حمايتهم لساحل بيروت والشام. فعندما طلب والي دمشق صالح بن علي من أمير بيروت (ساحل دمشق)، ويدعى الوليد بن عثمان المري، مساعدته في القضاء على ثورة بندار في المنيطرة، اكتتب المرابطون في الديوان وتوجهوا إلى المنيطرة. وكان الإمام الأوزاعي أول المرابطين الذين اشتركوا في القضاء على ثورة المنيطرة. ذلك أن الأوزاعي نزل بيروت مرابطاً فيها، ورغم أننا لا نعرف شيئاً عن اشتراكه في الغزوات البحرية، لكنه من المؤكد أنه قاتل عصاة مدينة بيروت، كما اشترك في الاستيلاء على حصن المنيطرة وهدمه[٥] وعندما ثار نصارى المنيطرة ضد الوالي العباسي صالح بن علي سنة ٧٥٩ - ٧٦٠ م ، بسبب تعسفه وظلمه في فرض الضرائب، كانت ردة فعل الوالي العباسي

(١) الزركلي: الاعلام، جـ١، ص ٢٨٨ .
(٢) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٤ .
(٣) مكحول البيروتي (ت ٣٢١ / ٩٣٣) : هو محمد بن عبد الله بن عبد السلام بن أيوب ، أبو عبد الرحمن، المعروف بمكحول: حافظ للحديث، ثقة، ثبت من أهل بيروت. سمع بمصر والشام والجزيرة وروى عنه كثيرون.
صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٤ .
الزركلي: الاعلام، جـ٦، ص ٢٢٣ .
(٤) صالح بن علي العباسي (٩٦ ـ ١٥١ / ٧١٤ ـ ٧٦٨) : هو صالح بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي الأمير عم السفاح والمنصور، وأول من ولي مصر من قبل الخلفاء العباسيين. وكان شجاعاً حازماً. ولد بالشراة (من أرض البلقاء) وتوفي بقنسرين .
الزركلي: الاعلام، جـ٣، ص ١٩٣ .
(٥) زاهية قدورة: بحوث عربية، ص ٩٢ و٩٣.

شديدة، فهاجم القرى في منطقة المنيطرة، وشتت سكانها في طول البلاد وعرضها، وقضى على الثورة بقسوة. وهنا تحرك الإمام الأوزاعي، فكتب إلى الخليفة المنصور العباسي يقول:

«وقد كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم إلى قراهم ما قد علمت. فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة، حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم، وحكم الله تعالى أن لا تزر وازرة وزر أخرى. وهو أحق ما وقف عنده واقتدى به، وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله ﷺ، فإنه قال من ظلم معاهداً وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه»[١] .

وهكذا اتضح موقف الأوزاعي، الذي وقف ضد الثورة من جهة، كما وقف ضد تعسف الوالي في القضاء عليها. فالإمام الأوزاعي اشتهر في بيروت وذاع صيته في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وعندما مر الخليفة المنصور العباسي في بيروت، سمع الإمام الأوزاعي يخطب في المسجد، فأعجب به كثيراً وأحبه، وقد استشاره بعد ذلك في بعض الأمور. وعندما سمع الأوزاعي أن الخليفة متردد في إفتداء بعض أسرى المسلمين الذين وقعوا في يد الروم، بعث إليه برسالة يطلب فيها افتداءهم، فاستجاب الخليفة العباسي لرسالته، حتى قيل إن الأوزاعي «سلطته تفوق سلطة الخليفة»[٢] .

والأوزاعي هو «إمام أهل الشام ولم يكن بالشام أعلم منه»[٣] . ومن بيروت انتشر مذهبه في بلاد الشام، حيث ظل الفقهاء والقضاة يأخذون به، مدة قرنين من الزمن، إلى أن حل محله المذهبان الحنفي والشافعي. ومن بيروت أيضاً انتشر مذهبه إلى المغرب والأندلس، حيث ظل الفقهاء يأخذون به مدة أربعين سنة[٤]، ثم حل محله المذهب المالكي.

وفي شتاء سنة ١٥٧/٧٧٤، دخل الأوزاعي غرفة الحمام، حيث وضعت له زوجته «كانوناً» فيه حجر فحم لتدفىء الغرفة، مما أدى إلى موته خنقاً، فدفن عند كثبان

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٦٢ .
(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص ٤٩٢ .
صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٥ .
(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص ٤٩٢ .
(٤) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٣ .

الرمل التي تقع على الشاطيء جنوبي بيروت. ومقام الأوزاعي[1]، لا يزال قائماً إلى يومنا هذا في ضاحية بيروت، وقد حفظ لنا المسجد الوحيد، الذي بقي في بيروت منذ ذلك الزمن، وهو جامع «حنتوس»[2]. وحنتوس قرية قديمة، درست وانمحت آثارها، ونشأت مكانها ضاحية تعرف اليوم باسم «محلة الأوزاعي»، نسبة إلى مقام الإمام الأوزاعي المدفون في الجهة القبلية من الجامع. ويرجع الفضل في بقاء هذا الجامع الذي عرف أيضاً باسم «جامع الأوزاعي»، إلى النصارى الذين أقنعوا الصليبيين بعدم هدمه[3]. وقد عبر النصارى بذلك عن وفائهم لحرمة الإمام الأوزاعي المدفون في الجامع، وهو الذي وقف بجانبهم خلال أزمتهم مع الوالي العباسي صالح بن علي.

ولهذا السبب كان «جامع الأوزاعي» هوالوحيدالذي نجا من هدم الصليبيين، وبقي إلى يومنا هذا.

وكان المسجد عبارة عن بناء متواضع، يفصل بينه وبين الضريح الذي يثوي فيه الإمام الأوزاعي، باب صغير، يصعد إليه بمقدار درجة واحدة، وفي جداره القبلي محراب مجوف تعلوه البلاطة[4] التي أمر بوضعها حسين حشمت أفندي محاسب جبل لبنان قبل الحرب العالمية الأولى.

وفي العصر العباسي أيضاً عرفت بيروت منصب أمير المدينة، أو أمير الساحل، وكذلك منصب قاضي الجند، وقاضي المدينة الذين تولاه سعيد بن أبي سعد وأبو المعلى صخر بن الجندل وعبد المؤمن بن المتوكل بن مشير البيروتي.

---

(١) الاصطخري: مسالك الممالك، ص ٦٥.
ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٦٢.
(٢) محمد طه الولي: تاريخ المساجد، ص ٣٥ و٧٢،
(٣) المرجع نفسه، ص ٣٦ و٧٢.
(٤) كتب على البلاطة:
«هذا مقام إمام أهل الشام المجتهد المطلق أبي عمرو عبد الرحمن بن عمر بن محمد الأوزاعي ولد ببعلبك سنة ثمان وثمانين للهجرة وسكن بيروت وتوفي بها ودفن في قبلة هذا المصلى الذي كان مسجداً لقرية حنتوس العامرة وقتئذ على باب بيروت سنة سبع وخمسين ومائة رحمه الله تقدم بهذا الأثر لأعتاب الإمام من العبد الضعيف حسين حشمت محاسبجي لبنان وكتبه العبد الفقير محمد عمر البربير البيروتي».
المرجع نفسه ص ٧٣.

وكان يوجد في بيروت سوق للخضار وسوق للحلوى[1]، مما يدل على أن بيروت أخذت تزدهر نتيجة ازدياد السكان فيها، وخاصة زمن الإمام الأوزاعي، الذي نصح أحد تلامذته بالمرابطة في مدينة أصغر من بيروت وأكثر عزلة، اتقاء لفتنة بيروت وشرها[2]. ولكن لم يكتب لهذا الازدهار أن يستمر فقد تعرضت بيروت لزلزال، في منتصف القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، جعل الأنظار تتحول عنها قرناً، فاختفت المعلومات عنها في تلك الفترة. يضاف إلى ذلك أن الدولة العباسية لم تهتم في مطلع عهدها بالنشاط البحري للمسلمين في سواحل مصر والشام.

٣ ـ الاهتمام بتدعيم بيروت منذ خلافة هرون الرشيد:

ومنذ عهد هرون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣/ ٧٨٧ ـ ٨٠٩)، أبدت الدولة العباسية اهتماماً خاصاً بالشؤون البحرية، فقد أقيمت الصناعة البحرية، وقسمت الأموال في الثغور والسواحل.

وأمر المتوكل[3] بترتيب المراكب في جميع السواحل وأن تشحن بالمقاتلة[4]. ومما يذكر أن هرون الرشيد ولى حميد بن معيوف على سواحل الشام ومصر سنة ١٩٠/ ٨٠٦. وعلى هذا الأساس بدأ العباسيون يسعون إلى استعادة السيادة البحرية الإسلامية في البحر المتوسط الشرقي، لإيجاد نوع من التوازن مع المغاربة والأندلسيين الذين آلت إليهم السيطرة على نصفه الغربي[5].

وفي سنة ٢٥٧/ ٨٧١، تولى الأمير النعمان بن عامر الأرسلاني[6] مدينة بيروت

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ ١١، ص ١١٩.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٤، ص ١٤٠ ـ ١٤١.
(٣) المتوكل (٢٠٦ ـ ٢٤٧/ ٨٢١ ـ ٨٦١): هو جعفر (المتوكل على الله) بن محمد (المعتصم) بن هارون الرشيد، أبو الفضل. ولد ببغداد وبويع بعد وفاة أخيه الواثق سنة ٢٣٢ هـ، وكان جواداً ممدحاً محباً للعمران من آثاره المتوكلية ببغداد.
الزركلي: الاعلام، جـ ٢، ص ١٩٣.
(٤) البلاذري: فتوح البلدان، جـ ١، ص ١٩٣.
(٥) العبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص ٣٨.
(٦) الأمير النعمان بن عامر الأرسلاني (٢٢٧ ـ ٣٢٥/ ٨٤٢ ـ ٩٣٧): هو نعمان بن عامر بن هانىء بن مسعود بن أرسلان التنوخي اللخمي، أبو الحسام أمير عالم بفقه المالكية. شاعر من أسلاف آل أرسلان في لبنان. تعلّم ببغداد وولي إمارة الساحل وصفد.
الزركلي: الاعلام، جـ ٠٨ ص ٣٧.

وصيدا[1] والجبال المحيطة بها، وعادت بيروت كمركز دفاع ساحلي، وذلك بأمر أماجور التركي عامل دمشق وأعمالها من قبل الخليفة العباسي المعتمد على الله[2]. واشتهر الأمير النعمان بحروبه مع المردة سنة ٢٦٢/ ٨٧٦ ومع الإفرنج في منطقة رأس بيروت سنة ٣٠٣/٩١٧. وظل يتولى بيروت إلى أن توفي أماجور سنة ٢٦٤/٨٧٩ فآلت بيروت إلى الدولة الطولونية، و التي أقرت أيضاً الأمير النعمان على بيروت وصيدا، لما اشتهر به من الشجاعة[3].

٤ ـ بيروت تتأرجح بين سيطرة الدويلات المختلفة:

ثم بدأت بيروت تتأرجح تحت سيطرة الدويلات المختلفة التي نشأت في ظل الدولة العباسية:

(أ) الدولة الطولونية (٢٦٤ ـ ٣٣٣/ ٨٧٩ ـ ٩٤٤):

في سنة ٢٦٤ / ٨٧٩، آلت بيروت وصيدا إلى الدولة الطولونية في مصر، فأقر أحمد بن طولون[4]، الأمير النعمان على بيروت وصيدا، حتى وفاته سنة ٣٢٥ / ٩٣٦، فخلفه عليها ابنه الأمير منذر[5]. وقد خضعت بيروت والمدن الساحلية للدولة الطولونية بحكم تبعيتها لدمشق.

ويذكر أن ابن طولون استدعى جده من بيت المقدس ليبني ميناء لمدينة عكا داخل البحر، ولم يقتصر هذا البناء على عكا بل تعداه إلى بيروت وصور، حيث ربطت السلاسل الضخمة لتمنع دخول المراكب غير المرغوب فيها لا سيما ليلاً.

---

(١) داود كنعان: بيروت في التاريخ، جـ ١، ص ٢١.

(٢) المعتمد على الله (٢٢٩ ـ ٢٧٩/٨٤٣ ـ ٨٩٢): هو أحمد بن المتوكل جعفر بن المعتصم، أبو العباس، ولد بسامراء وولي الخلافة سنة ٢٥٦ هـ بعد مقتل المهتدي بيومين وطالت أيام ملكه وكانت مضطربة كثيرة العزل والتولية. ودفن في سامراء.
الزركلي: الاعلام، جـ ١، ص ١٠٧.

(٣) العبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص ٥١.

(٤) أحمد بن طولون (٢٢٠ ـ ٢٧٠/٨٣٥ ـ ٨٨٤): صاحب الديار المصرية والشامية والثغور. تركي مستعرب. تفقه وتأدَّب عند الخليفة المتوكل إلى أن ولي إمرة الثغور وإمرة دمشق ثم مصر سنة ٢٥٤ هـ. كان حاد الخلق، سفك كثيراً من الدماء في مصر والشام. مرض في انطاكية وتوفي في مصر.
الزركلي: الاعلام، جـ ١، ص ١٤٠.

(٥) طنوس الشدياق: أخبار الأعيان، جـ ٢، ص ٢٨٦.

(ب) الدولة الأخشيدية (٣٣٣ ـ ٣٦٠/ ٩٤٤ ـ ٩٦٨):

وهكذا أصبحت بيروت التابعة لدمشق تقع تحت نفوذ المسيطر على مصر، فبعد أن خضعت لسيطرة الدولة الطولونية، أصبحت بيروت والمدن الساحلية طرابلس وصيدا وصور، إضافة إلى دمشق وبعلبك، تابعة للدولة الأخشيدية في مصر. وذلك بعد أن حصل محمد بن طغج الأخشيد[1] على تقليد من الخليفة المتقي لله[2] سنة٣٣٣ / ٩٤٤ بولاية مصر والشام[3]. وبوفاة الأخشيد تولى الحكم ولداه أنجور وأبو الحسن علي.

ثم تولى كافور حكم مصر والشام ومن بعده أحمد أبو فراس سنة ٣٦٠ / ٩٦٨، فلم يستطع الوقوف أمام الفاطميين، الذين قضوا على الدولة الأخشيدية، ودخلت بيروت تحت نفوذهم.

(جـ) الدولة الفاطمية (٣٦٠ ـ ٥٠٣/ ٩٦٨ ـ ١١١٠):

بعد موت كافور الأخشيدي سار القائد جوهر[4] من القيروان إلى مصر فدخلها سنة ٣٥٨ / ٩٦٦. وبعد عام على دخول القائد جوهر مصر فاتحاً، سير حملة على بلاد الشام سنة ٣٥٩ / ٩٦٧، لتوطيد سلطة الدولة الفاطمية في مصر والشام. وكانت الحملة بقيادة جعفر بن فلاح الكتامي[5]، الذي استولى على دمشق ودخلها سنة

---

(١) الإخشيد (٢٦٨ ـ ٣٣٤/٨٨٢ ـ ٩٤٦): هو محمد بن طفج بن جف، أبو بكر، الملقب بالإخشيد، مؤسس الدولة الإخشيدية في مصر والشأم والدعوة فيها للخلفاء من بني العباس. وهو تركي الأصل، مستعرب من أبناء المماليك. ولد ونشأ ببغداد وتوفي بدمشق ودفن في بيت المقدس.
الزركلي: الاعلام، جـ ٦، ص ١٧٤.

(٢) المتقي لله (٢٩٧ ـ ٣٥٧/٩١٠ ـ ٩٦٨): هو ابراهيم بن المقتدر بالله جعفر بن المعتضد بالله أحمد بن الموفق بن المتوكل، أبو إسحاق، ولي الخلافة بعد موت أخيه الراضي سنة ٣٢٩ هـ. وفي أيامه تولى إمارة الأمراء توزون التركي سنة ٣٣١ هـ فقبض على المتقي وسجنه إلى أن مات.
المرجع نفسه، جـ ١، ص ٣٥.

(٣) عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة صيدا، ص ٦٦.

(٤) جوهر (ت ٣٨١/٩٩٢): جوهر بن عبد الله الرومي، أبو الحسن. وهو من عظماء القواد في الدولة الفاطمية وتوفي بالقاهرة التي بناها سنة ٣٥٨ هـ وسماها المنصورية ثم سماها المعز القاهرة كما فرغ من بناء الأزهر سنة ٣٦١ هـ.
الزركلي: الاعلام جـ ٢، ص ١٤٨.

(٥) جعفر بن فلاح الكتامي (ت ٣٦٠/٩٧١): هو أبو علي أحد قواد المعز العبيدي (صاحب إفريقية) الذي سيَّره مع القائد جوهر لفتح مصر فدخلاها وبعثه جوهر إلى الشام فامتلك دمشق سنة ٣٥٩ هـ وقتله بها الحسن بن أحمد القرمطي.
المرجع نفسه، جـ ٢، ص ١٢٦.

٣٦٠ / ٩٦٨ . وقد أقر جعفر بعد دخوله دمشق، الأمير سيف الدولة المنذر التنوخي على إقليم الغرب، بما فيه بيروت وطرابلس وصيدا، بعد أن قدم ولاءه للفاطميين(١). وبوفاة الأمير المنذر سنة ٣٦٢ / ٩٧٠ ، خلفه ابنه الأمير تميم على إقليم الغرب بما فيه بيروت.

وفي أوائل العصر الفاطمي، سقطت مدينة بيروت سنة ٣٦٤ / ٩٧٥ ، ولفترة قصيرة، في يد الدولة البيزنطية، فالملك يوحنا زيميسيس «Jean Zimisées» الذي يدعوه العرب ابن الشمشقيق، «غزا الشام ونزل على بعلبك وفتحها... وسار على طريق الساحل وفتح بيروت وأسر أميرها نصر الخادم وحمله إلى بلد الروم»(٢) ويذكر ابن القلانسي «فانتقل (ابن الشمشقيق) إلى ثغر بيروت فامتنع أهله عليه فقاتلهم وافتتح الثغر عنوة ونهبه وسبى السبي الكثير منه»(٣)، وهكذا نهب بيروت وسبى سكانها. وهذا يدل أن بيروت والمدن الساحلية كانت معرضة دائماً أكثر من غيرها لآفات الحروب من قبل ملوك الروم، قبل مجيء الصليبيين، مما كان دافعاً بعد ذلك لزيادة تحصين بيروت وغيرها من المدن الساحلية.

وقد ولى الحاكم بأمر الله الفاطمي(٤) على بيروت سنة ٤٠٥ / ١٠١٤ ، الفتح القلعي(٥)، وأضاف إليه صيدا وصور، ولقبه مبارك الدولة وسعد الدولة.

وسنة ٤٣٩ / ١٠٤٧ ، كان المتولي على بيروت، أبو سعيد قابوس بن فاتك أمير الغرب، وذلك من قبل المستنصر بالله الفاطمي(٦) خليفة مصر. وسنة ٤٤٣ / ١٠٥١ ،

---

(١) طنوس الشدياق: أخبار الأعيان، جـ ٢، ص ٢٨٦.

(٢) يحيى بن سعيد الأنطاكي: الذيل على تاريخ ابن بطريق، ص ١٣١.

(٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤.

(٤) الحاكم بأمر الله الفاطمي (٣٧٥ - ٤١١/٩٨٥ - ١٠٢١): هو منصور بن نزار (العزيز بالله) ابن معد (المعز لدين الله) ابن اسماعيل بن محمد العبيدي الفاطمي، أبو علي. ولد في القاهرة. وأعلنت الدعوة إلى تأليهه سنة ٤٠٧ هـ في مساجد القاهرة. وقام بدعوته محمد بن اسماعيل الدرزي وحسن بن حيدرة الفرغاني. وأصاب الناس منه شر شديد إلى أن اغتيل.
الزركلي: الاعلام، جـ ٧، ص ٣٠٥ - ٣٠٦.

(٥) الفتح القلعي: كان دزدار القلعة في حلب في أواخر دولة بني حمدان وكان في خدمة صاحب حلب أبي نصر بن لؤلؤ فجرت وحشة بينه وبين أستاذه فعصاه واستولى على القلعة وكاتب الحاكم بأمر الله الفاطمي فأرسل الحاكم نوابه فتسلموا حلب وقلعتها من الفتح وأقطعه الحاكم عوضها صيدا وبيروت ولقبه مبارك الدولة وسعدها ثم ولّاه على صور في السنة التالية.
صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٥.

(٦) المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٠ - ٤٨٧/١٠٢٩ - ١٠٩٤): هو معد بن علي ابن الحاكم بأمر الله، =

أقطع المستنصر، عكا وبيروت(١) وجبيل لمعز الدولة ثمال بن مرداس(٢).

وكانت بيروت خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلادي تابعة لجند دمشق.

وفي شعبان سنة ٤٣٨ / ١٠٤٦ تجول رحالة فارسي يدعي خسرو في الساحل الشامي، ووصف القناطر في بيروت، مما يدل على أن الأبنية العديدة التي بناها الرومان في بيروت وضواحيها، لم تطمس آثارها(٣) في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي. فقد ذكر أنه في بيروت قنطرة عظيمة وعلى رأسها أعمدة الرخام، وفوق الأعمدة سلسلة من قناطر. ولم تزل بيروت في أيدي المسلمين تنتقل من دولة إلى دولة، من الدولة الطولونية إلى الدولة الأخشيدية فالدولة الفاطمية، و التي نشأت كل منها في مصر وسيطرت على بلاد الشام. وهذا الأمر يشير إلى أن بيروت والمدن الساحلية، كانت تخضع لسلطة كل من يتولى دمشق(٤)، فمن سيطر على دمشق، دانت له السيطرة على بيروت والساحل.

وعندما ظهر السلاجقة، تمكنوا من اقتطاع عدد كبير من مدن الشام وفلسطين منذ سنة ٤٦٧ / ١٠٧٤ ، وفقدت الدولة الفاطمية سلطانها، في الرملة وعكا وبيت المقدس وصيدا وبيروت وجبيل وعرقة وطرابلس ودمشق(٥). ثم ضعف نفوذ السلاجقة في جنوب سوريا، بسبب الصراع على الحكم، فاستطاع الفاطميون إعادة المدن الساحلية حتى جبيل فقط، وذلك سنة ٤٩٠ / ١٠٩٨ . وبذلك كانت بيروت وبيت المقدس، تخضعان للدولة الفاطمية حين دخول الصليبيين سنة ٤٩١ / ١٠٩٩ .

= أبو تميم، تاسع خلفاء الدولة الفاطمية بمصر. مولده ووفاته فيها، بويع وهو طفل بعد موت أبيه سنة ٤٢٧ هـ وتغلبت أمه على الدولة فكانت تعيِّن الوزراء ومن استوحشت منه قتلته.
الزركلي: الاعلام، جـ ٧، ص ٢٦٦.

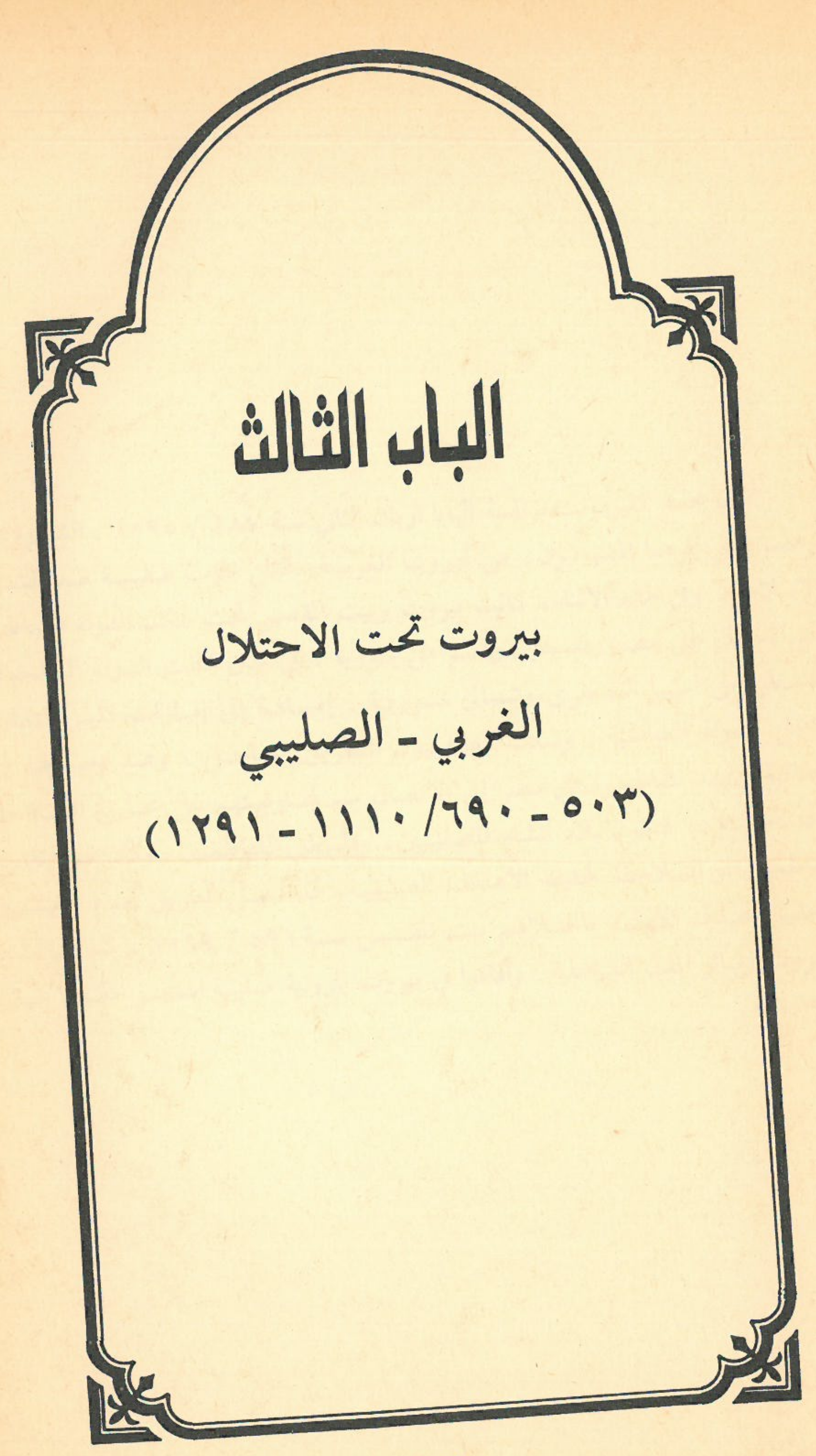
(١) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٥.

(٢) معز الدولة ثمال بن مرداس (ت ٤٥٤/١٠٦٢): أبو علوان من ملوك الدولة المرداسية بحلب. كان كريماً حليماً شجاعاً ولي الملك سنة ٤٣٤ هـ وهاجمه الفاطميون من مصر لكنه هزمهم. ثم غزا الروم وتوفي في حلب.
الزركلي: الاعلام، جـ ٢، ص ١٠٠.

(٣) لجنة من الأدباء: لبنان مباحث علمية، جـ ١، ص ٣٠١ - ٣٠٢.

(٤) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٦.

(٥) العبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص ١٠٣ و١٠٦.



الباب الثالث

بيروت تحت الاحتلال
الغربي ـ الصليبي
(٥٠٣ ـ ٦٩٠/ ١١١٠ ـ ١٢٩١)

كان مجمع كليرمونت برئاسة البابا اربان الثاني سنة ٤٨٧ / ١٠٩٥ ، الشرارة التي زحف على أثرها المسيحيون، من أوروبا الغربية، لشن حرب صليبية ضد الشرق الإسلامي. وفي هذه الأثناء، كانت بيروت وبيت المقدس تحت حكم الدولة الفاطمية التي تسيطر على مصر وفلسطين وقسم من سورية ، في حين كانت الدولة السلجوقية تسيطر على آسيا الصغرى وشمالي سورية ، إضافة إلى إمارات كثيرة تتنازع داخل الدولة العباسية . وسلك الصليبيون الطريق الساحلي ، وعند وصولهم إلى أنطاكية، عمد الفاطميون في مصر إلى الاتصال بهم لمفاوضتهم على محاربة السلاجقة واقتسام البلاد، فتكون بلاد الشام للصليبيين، وفلسطين للفاطميين. وكان سوء تقدير الفاطميين أو السلاجقة لحقيقة الأهداف الصليبية، قد سهل الطريق أمام الصليبيين لتحقيق الهدف الأول، باحتلالهم بيت المقدس سنة ٤٩١ / ١٠٩٩ ، ثم طرابلس وبيروت وسائر المدن الساحلية. وأقاموا في بيروت بارونية صليبية استمر حكمها حوالي ١٧١ سنة.

الفصل الأول

الفترة الأولى من الاحتلال الغربي ـ الصليبي
(٥٠٣ ـ ٥٨٣/ ١١١٠ ـ ١١٨٧)

سلك الصليبيون الطريق الساحلي في زحفهم، من غرب أوروبا نحو مدن ساحل الشرق الإسلامي، ثم اتجهوا نحو بيت المقدس، فقد كان الهدف الرئيسي للصليبيين هو احتلال بيت المقدس[1] دون إبطاء، لذلك لم يتعرضوا لمدينة طرابلس بسوء، واكتفوا بما أعطاهم إياه أميرها فخر الملك ابن عمار من المال والمؤن، مقابل أن لا يتعرضوا للغلات والأشجار. ثم تابعوا سيرهم نحو بيروت، وقام الأدلاء الموارنة، الذين رافقوهم من منطقة طرابلس، بإرشادهم في الطريق الساحلي حتى وصلوا بيروت سنة ٤٩١/١٩ أيار ١٠٠٩. وفي بيروت حدا الحاكم الفاطمي حذو زميله في طرابلس، فأعطاهم كمية من المال، وجهزهم بوافر من المؤن، مقابل تعهد الصليبيين بعدم التعرض لأهل بيروت المسلمين بسوء، وعدم الاعتداء على البساتين ومزارع الكروم والغلال[2]. وبات الصليبيون ليلة واحدة في بيروت.

حقق الصليبيون هدفهم الأول فاستولوا على مدينة القدس سنة ٤٩١ / ١٠٩٩. وانكشفت سياسة الخداع الصليبية، عندما حاول بلدوين الأول فتح مدينة بيروت سنة ٤٩٥ / ١١٠٣، لكنه أخفق أمام صمود المسلمين فيها وفشل في الاستيلاء عليها[3].

---

(١) اسطفان الدويهي: تاريخ الأزمنة، ص ٩٣.
فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، جـ ٢، ص ٢٢٨.
ـ تاريخ لبنان، ص ٣٤٧.

(٢) محمد علي مكي: لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، ص ١١٠ ـ ١١١.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ١٠، ص ٣٤٥.

١ ـ الاحتلال الصليبي لبيروت الإسلامية (٥٠٣/ ١١١٠):

شعر الصليبيون بضرورة الاستيلاء على المدن الساحلية لضمان حرية المواصلات مع أوروبا، وقد تم لهم ذلك بالرغم من مناعة هذه المدن. ففي سنة ٥٠٠ / ١١٠٧ ، فشلوا في دخول صيدا(١) بسبب مساعدة الأسطول الفاطمي لها. وفي سنة ٥٠١ / ١١٠٨ ، لم يتمكن الأسطول الفاطمي من مساعدة طرابلس فسقطت بيد الصليبيين، ذلك أن الأسطول المصري عاد إلى مصر بالرغم من تمسك أهل بيروت وصيدا وصور ببقائه في مياه ثغورهم، حماية لهم من غزو صليبي وشيك(٢). وكان سقوط طرابلس بيد الصليبيين درساً للفاطميين، لذلك لم تكد تصل الأخبار إلى الأفضل الفاطمي بزحف الصليبيين نحو بيروت سنة ٥٠٣ / ١١١٠ ، بقيادة بلدوين الأول «Baldwin» ملك بيت المقدس وبرترام بن صنجيل وجوسلين صاحب تل باشر(٣)، حتى أرسل الأسطول المصري لنجدة بيروت، التي حوصرت ١١ يوماً. ويذكر الدويهي أن الحصار استمر مدة شهرين براً وبحراً حتى سقطت بيروت(٤).

ولم يكن الاستيلاء على بيروت أمراً سهلاً، فالمسلمون دافعوا ببسالة عن مدينتهم، وعندما صنع الصليبيون برجاً من خشب صنوبر بيروت، ونصبوه على سور المدينة، كسره المسلمون بحجارة المنجنيق. وفي هذه الأثناء، أرسل الأفضل الفاطمي أسطولاً مصرياً، يتألف من ١٩ مركباً حربية ، لنجدة المسلمين في بيروت .

وتغلب الأسطول الفاطمي على مراكب الصليبيين، واستولى المسلمون على بعضها، ثم أفرغت شحنة تلك السفن من القوت والمؤن والعدد والسلاح، فقويت نفوس أهل بيروت، واشتدت عزائمهم، وبدأوا يقومون بهجمات عنيفة على الصليبيين الذين يحاصرون بيروت. وعندئذ استنجد الملك بلدوين الأول بالجنوية، الذين طالما سخروا سفنهم في خدمة الحركة الصليبية، فأتوه في أربعين مركباً مشحونة بالمقاتلين، ونصبوا عليها مائة منجنيق(٥)، كما نصبوا برجين من خشب الصنوبر على أسوار المدينة،

(١) العبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص ١٠٢ و١١٢.
(٢) المرجع نفسه، ص ١١٤.
(٣) المرجع نفسه، ص ١١٥.
(٤) اسطفان الدويهي: تاريخ الأزمنة، ص ١٠١.
(٥) المنجنيق: هي آلات تقذف الأحجار الضخمة المضرسة التي توضع على الكفة ثم تقذف إلى الأهداف بواسطة الشد على لوالب مثلها في ذلك مثل العرادات لكن العرادة أقل حجماً من المنجنيق. =

واشتدوا في حصارهم لبيروت وأخذوا يمطرونها بقذائف الحجارة المدمرة(١). واستشهد في المعركة، مقدم الأسطول المصري وعدد كبير من رجاله، ولكن المعركة تحدد مصيرها أمام ضخامة الحشود الصليبية، فانهزم المسلمون، ودخل الصليبيون بيروت قهراً.

والحقيقة أن بيروت دافعت بشجاعة ضد الصليبيين، الذين لم يشهدوا حرباً في عنفها وضراوتها. ويشهد ابن القلانسي بضراوة المقاومة الإسلامية، فيقول: «ولم ير الإفرنج فيما تقدم وتأخر أشد من حرب هذا اليوم»، ويقصد يوم دخول الصليبيين بيروت.

وهكذا انهارت مقاومة الحامية المصرية في بيروت، وفر والي المدينة إلى قبرص مع معظم قواده، تاركاً أهالي بيروت وحدهم في المعركة، مما اضطرهم إلى إجراء مفاوضات التسليم، ولكن الصليبيين دخلوا بيروت عنوة بالسيف، واستولوا عليها قتلاً وأسراً ونهباً(٢) يوم الجمعة ٢١ شوال سنة ٥٠٣ / ١٣ أيار ١١١٠ .

وكان الأمير عضد الدولة علي بن شجاع الدولة الأرسلاني، وجماعة من أقاربه في بيروت، أثناء هجوم الصليبيين عليها، ولقي مصرعه هو وخمسة من أفراد عائلته عندما دخلها الصليبيون.

وبلغ عدد القتلى الذين استشهدوا، من أهل بيروت الإسلامية، عشرين ألفاً. ولم يكتف بلدوين الصليبي بما فعله في بيروت، بل أخرج الأسرى جميعاً خارج المدينة، وضرب أعناقهم في اليوم التالي من سقوط بيروت(٣). كما سقطت صيدا أيضاً، بعد أن خاف أهلها أن يصيبهم ما أصاب بيروت(٤) وأهلها، فدخلها الصليبيون بعد حصار دام ٤٧ يوماً.

أما صور فصمدت بسبب مساعدة الأسطول المصري لها، وفشل الصليبيون في دخولها سنة ٥٠٤ / ١١١١، وبعد تقاعس الأسطول المصري في مساعدتها، سلم

= ويستخدم المنجنيق أيضاً لقذف النفط أو جرار الزيت المغلي.
ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٠.
(١) العبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص ١١٥.
(٢) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٦.
ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٨.
(٣) طنوس الشدياق: أخبار الأعيان، جـ ٢، ص ٢٩٥.
(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ١٠. ص ٤٧٩.

الأهالي المدينة للصليبيين في ٢٣ جمادي الأولى سنة ٥١٨ / ١١٢٤ . وبسقوط صور تلاشى نهائياً نفوذ الفاطميين على ساحل الشام[١].

٢ ـ تحول بيروت الإسلامية إلى بارونية صليبية تحكمها أسرة دي ابلن :

وتحولت مدينة بيروت الإسلامية، إلى بارونية صليبية تحكمها أسرة دي ابلن. وبدخول الصليبيين بيروت، دمروا جميع المساجد التي بناها المسلمون قبل وقوعها بأيديهم[٢]. فقد كان الاحتلال الصليبي بالنسبة لبيروت كابوساً طويلاً، وحاول الصليبيون منذ البداية نزع الطابع الإسلامي عن بيروت، فأمر الملك بلدوين ببناء كنيسة بيروت على اسم القديس يوحنا المعمدان (النبي يحيى). وقد بنيت الكنيسة على أطلال معبد روماني قديم سنة ٥٠٣/١١١٠، وعلى طراز الكنائس اللاتينية. وكان النصارى يقيمون شعائرهم الدينية فيها، طيلة مدة الاحتلال الصليبي لبيروت[٣]. وفي سنة ٥٠٥/١١١٢، سمي أول أسقف كاثوليكي لمدينة بيروت، بعد أن كانت ملحقة بأسقف أنطاكية. وكان أساقفة بيروت وصيدا وعكا يعتبرون كمساعدين لرئيس أساقفة صور. كما أن قلعة بيروت التي بناها الصليبيون ظلت قائمة حتى ١٨٥٦ م.

وكانت اللغة والدين عقبتين، حالتا دون التمازج الاجتماعي والتلقيح الثقافي، بين العربي المسلم والأوروبي الصليبي. فالمسلم الذي اكتفى بالقرآن الكريم، لم يجد سبباً لترك الإسلام واعتناق النصرانية، وإن كان البعض قد تعمد بمعمودية يسوع المسيح لكي ينجو من الموت.

وخلال هذه الفترة المظلمة، تعرضت بيروت وغيرها من المدن الساحلية المختلفة لسلسلة من الزلازل العنيفة التي بدأت منذ سنة ٥٤٦ / ١١٥١ ، واستمرت على فترات متقطعة حتى سنة ٥٦٥ / ١١٧١ . وقد أدت هذه الزلازل إلى هبوط القشرة الأرضية في عدة مواضع من الساحل، وعلى الأخص في بيروت وقيسارية وصور وصيدا وجبيل، وتخرَّب قسم كبير من هذه المدن. وكان أشد هذه الزلازل عنفاً وتدميراً، زلزال بيروت،

---

(١) العبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص ١٢٠.
(٢) محمد طه الولي: تاريخ المساجد، ص ٣٦ ـ ٣٧.
(٣) فيليب حتي: تاريخ لبنان، ص ٣٥٠.
لجنة من الأدباء: لبنان مباحث علمية واجتماعية، جـ ١، ص ٣١٧.

الذي وقع في ٩ شعبان سنة ٥٥١/١١٥٧، والذي خرَّب مباني بيروت، وقتل العديد من سكانها.

٣ ـ استمرار القتال لتحرير بيروت والمدن الإسلامية :

وفي هذه الفترة أيضاً تعرض الصليبيون لهزات عنيفة من نوع آخر، وذلك من الأمراء المسلمين الذين لم يتركوا الصليبيين ينعمون بالهدوء. فاستمرت المعارك ضد الصليبيين، وبرز آل زنكي وأشهرهم عماد الدين زنكي[١] الذي قاتل الصليبيين من أجل تحرير المدن الإسلامية، وطرد الصليبيين منها. كما اشتهر ابنه نور الدين محمود بن زنكي[٢] في قتال الصليبيين أيضاً.

ويذكر اسطفان الدويهي أنه في ٥٤٠/١١٤٥ وهي سنة وفاة عماد الدين زنكي، «كتب مجير الدين ملك دمشق إلى المير بحتر ابن شرف الدولة ابن تنوخ المشهورين بأمراء الغرب في ثغر بيروت، أنه يتصرف في القرى الذين بجبل بيروت كما كانوا تصرفوا والمريه بالضياع الذين بالقرب»[٣].

وأصبح جبل بيروت تحت نفوذ حاكم دمشق، وهذا هو أمر ثغر بيروت في تلك الحقبة، تتبع كل من يحكم دمشق، وأصحاب دمشق هم الحكام على جبل بيروت وأعمالها، أما مدينة بيروت نفسها فكانت بيد الصليبيين[٤].

فعندما يكتب حاكم دمشق مجير الدين آبق[٥]، إلى أمير الغرب بحتر ابن شرف

---

(١) عماد الدين زنكي بن آق سنقر (٤٧٨؟ ـ ٥٤١/١٠٨٥ ـ ١١٤٦): هو زنكي (عماد الدين) بن قسم الدولة الحاجب آق سنقر، أبو غازي ومودود ومحمود. كان من كبار الشجعان، تركيا، تملك حلب سنة ٥٢٢/١١٢٨. دخل عليه بعض مماليكه وهو نائم فقتلوه غيلة ودفن بصفين.
الزركلي: الاعلام، جـ ٣، ص ٥٠.
(٢) نور الدين محمود بن زنكي (٥١١ ـ ٥٦٩/١١١٨ ـ ١١٧٤): هو محمود بن زنكي (عماد الدين)، أبو القاسم نور الدين الملقب بالملك العادل، ملك الشام وديار الجزيرة ومصر، ولد في حلب وانتقلت إليه إمارتها بعد وفاة أبيه سنة ٥٤١/١١٤٦. اشتهر بحروبه مع الصليبيين أيام زحفهم على بلاد الشام وحصَّن قلاع الشام وبنى الأسوار على مدنها. مات بدمشق.
المرجع نفسه جـ ٧، ص ١٧٠.
(٣) اسطفان الدويهي: تاريخ الأزمنة، ص ١٤٠.
صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٤٠.
(٤) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٤١.
(٥) مجير الدين آبق بن جمال الدين محمد بن تاج الملك بوري بن ظهير الدين طغتكين وهو أتابك الملك =

الدولة[1]، يوليه التصرف في قرى جبل بيروت، يوضح سيادة حاكم دمشق على أمير ثغر بيروت.

وعندما أخذ الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي دمشق[2] من مجير الدين، إنتقلت بقية إمارة الغرب إليه، وذلك سنة ١١٥٤/٥٤٩.

وهكذا نجد أمير الغرب يحكم القرى الجبلية حول بيروت في فترة الاحتلال الصليبي، في حين احتفظ الصليبيون بمدينة بيروت نفسها. وكان أمراء الغرب، رغم سيطرة الصليبيين على بيروت، يتمسكون بحكام دمشق، خاصة عندما تقوى شوكة المسلمين فيها، كما حصل باستيلاء الملك العادل نور الدين على دمشق، فأعطى أمير الغرب كرامة بن بحتر[3] مرسوماً مطلقاً، يشكره فيه على تعاونه معه ضد الصليبيين[4]، عندما اتجه الأسطول الفاطمي نحو بيروت سنة ١١٥٧/٥٥٢ [5]، وانتصر على سفن الصليبيين، وأسر منهم أعداداً كبيرة، وغنم غنائم لا حصر لها. كما هاجم عكا وأسر نحو سبعمائة من الصليبيين. وفي سنة ٥٥٤ / ١١٥٩، أقلع الأسطول المصري أيضاً إلى سواحل الشام، تلبية لدعوة الملك العادل نور الدين محمود زنكي، ومساندة له في مهاجمة السواحل الشامية المحتلة[6]، ومنها بيروت.

= دقاق تتش (٥٣٤ - ١١٣٩/٥٤٩ - ١١٥٤) ويعتبر آخر أتابكة دمشق من الدولة البورية، وقد نزع دمشق منه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي الذي أنهى بذلك حكم الدولة البورية في دمشق.

صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٨ و٤٠ و٤١.

(١) بحتر بن شرف الدولة: هو الأمير ناهض الدولة أبو العشاير بحتر بن شرف الدولة علي بن الحسين بن أبي إسحاق ابراهيم بن أبي عبد الله محمد بن علي بن أحمد بن عيسى بن جميهر بن تنوخ، وقد ولاه أتابك دمشق مجير الدين آبق على إمارة الغرب من بيروت سنة ١١٤٧/٥٤٢، وذلك لما عرف به من نهضة وكفاية وحسن سيرة وأمانة.

المصدر نفسه، ص ٣٩ - ٤٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٨ و٤١.

(٣) كرامة بن بحتر: هو زهر الدولة أبو العز كرامة بن بحتر بن علي، سكن حصن سرحمور وكان متمسكاً بالملك العادل نور الدين. وأخوه هو علي بن بحتر والد زين الدين بن علي ومن ذريته الأمراء بعرامون.

المصدر نفسه، ص ٤٢ - ٤٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٣.

(٥) العبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص ١٢٥.

(٦) المرجع نفسه، ص ١٢٦.

وفي سنة ١١٦١/٥٥٦، أقر الملك العادل، أمير الغرب كرامة بن بحتر على قرى الغرب والقنيطرة وثعلبايا في البقاع وظهر حمار في وادي التيم وبرجا من صيدا وبعاصر[1]. وبما أن الملك العادل نور الدين كان مشهوراً بقتاله الصليبيين، فإن أمير الغرب كرامة بن بحتر، المتعاون معه ضدهم، اضطر إلى التحصن في حصن سرحمور[2].

وقد دفع أمراء الغرب الثمن غالياً لوقوفهم ضد الصليبيين، فقد استطاع صاحب بيروت الأمير البيزنطي اندرونيكوس كومنينوس، أن يهادن أولاد كرامة بن بحتر، ويستدرجهم ويخدعهم بصداقته لهم، فكانوا يجتمعون معه في الصيد. وذات مرة دعاهم إلى زفاف ولده، فقصد بيروت الثلاثة الكبار من أبناء كرامة بن بحتر، أما الرابع ويدعى حجي، فبقي مع أمه في حصن سرحمور. وأقام صاحب بيروت حفل الزفاف في بستان خارج المدينة، وحضره الكثير من أمراء الفرنج، ثم أدخل الثلاثة إلى مجلس خاص وقتلهم[3].

ولم يكتف بهذه الجريمة، فهاجم عند الصباح، حصن سرحمور، ونهبه وهدمه، ثم أحرق قرى الغرب وأسر من تخلف عن الهرب، وكان ذلك في أواخر حكم الملك العادل نور الدين. وهكذا شهدت بيروت والجبال المحيطة بها، أبشع مجزرة نفذها الصليبيون في أبناء كرامة بن بحتر، وكأنهم يريدون القضاء على نسل أمراء الغرب. ولم ينج من أسرة كرامة بن بحتر سوى ابنه الصغير حجي[4]، وكان عمره يناهز السبع سنين عندما هرب مع أمه من حصن سرحمور.

واستمرت بيروت مدة ٧٧ سنة في ظل الاحتلال الصليبي الأول، تقاسي وتهدر كرامتها، حتى أعاد صلاح الدين الأيوبي الكرامة إلى المسلمين فيها سنة ١١٨٧/٥٨٣.

---

(١) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٤٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٥.

(٤) جمال الدين حجي بن كرامة بن بحتر: أصغر أبناء كرامة بن بحتر أمير الغرب.

المصدر نفسه، ص ٤٥ - ٤٩.

الفصل الثاني

صلاح الدين الأيوبي وعودة المسلمين إلى بيروت
(٥٨٣ - ٥٩٣ / ١١٨٧ - ١١٩٧)

عانى المسلمون كثيراً طيلة الاحتلال الصليبي الأول، ولمدة ٧٧ سنة، ولم ينقذهم من هذا الاحتلال إلا صلاح الدين الأيوبي[١]، الذي توالت انتصاراته على الصليبيين، بعد أن أنهى حكم الدولة الفاطمية وأقام الدولة الأيوبية في مصر والشام. وحاول صلاح الدين الأيوبي استعادة بيروت سنة ٥٧٨ / ١١٨٢، فسار إليها من دمشق، ونهبها من البر[٢]، في حين حاصرها بأسطوله البحري المصري المؤلف من ثلاثين سفينة. وفجأة ظهرت ثلاث وعشرون سفينة صليبية، فانسحب الأسطول المصري، ورفع الحصار، ليعود صلاح الدين إلى دمشق. ويرجع هذا الفشل لعدم اشتراك القوتين البرية والبحرية سوياً في الهجوم على بيروت.

١ - صلاح الدين يحاصر بيروت ويدخلها صلحاً (٥٨٣ / ١١٨٧)

بعد خمسة أعوام، بدأ صلاح الدين انتصاراته العظيمة في حطين سنة ٥٨٣ / ١١٨٧، على قوى الصليبيين مجتمعة ومنها قوة باليان ابلين صاحب بيروت الذي فرَّ من المعركة، واستغل صلاح الدين انتصاره هذا، فاستولى على عكا ثم الناصرة

---

(١) صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢ - ٥٨٩ / ١١٣٧ - ١١٩٣): هو يوسف بن أيوب بن شاذي، أبو المظفر، صلاح الدين الأيوبي، الملقب بالملك الناصر. أصله من قبيلة الهذانية من الأكراد، ولد بتكريت ثم نشأ في دمشق، وعندما استقل بمصر أنهى الدولة الفاطمية ثم سيطر على الشام سنة ٥٧٠ هـ. واشتهر بقتاله الصليبيين. توفي بدمشق بعد أن أنجب ١٧ ذكراً وأنثى واحدة. الزركلي: الاعلام، جـ ٨، ص ٢٢٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ١١، ص ٤٨٢.

وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والغولة ومجدليابة ويافا وتبنين، ثم زحف إلى صيدا.

وعندما وصل خلده لاقاه جمال الدين حجي، وحاصر بيروت ثمانية أيام[1]، ونصب عليها المنجانيق، حتى سأله الصليبيون الأمان فآمنهم، فدخل بيروت صلحاً في ٢٩ جمادي الأولى سنة ٥٨٣ / ٦ آب ١١٨٧، وتوجه الصليبيون بأمانه من بيروت إلى صور[2].

وبعد فتح بيروت التقى صلاح الدين بأمير الغرب جمال الدين حجي، ولمس رأسه بيده قائلاً كلمته المشهورة: ها قد أخذنا ثأرك من الفرنج[3]. وفي ٢ تشرين الأول ١١٨٧ استسلم بيت المقدس أمام صلاح الدين.

والحقيقة أن البحرية المصرية تعاونت مع الجيوش الشامية، على استرداد عكا وبيروت وجبيل وعسقلان وغيرها من الثغور الساحلية. وكان صلاح الدين يهدف من احتلال المدن الساحلية، ومنها بيروت، أن يحرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التي تربطهم بالعالم الخارجي، وخاصة غرب أوروبا قلب الحركة الصليبية، فيصبحوا محاصرين داخل بلاد الشام، ويسهل بالتالي القضاء عليهم. هذا فضلاً عن أن استيلاء صلاح الدين على موانىء الشام، سوف يمكنه من تحقيق الاتصال البحري السريع بين شطري دولته في مصر والشام. لذلك اهتم صلاح الدين منذ بداية حكمه بإحياء البحرية الإسلامية، وتحصين الثغور الإسلامية، كسلاح مضاد للاحتلال الصليبي. فاستعان في بناء أسطوله بالخشب المحلي في مصر، وبأخشاب الصنوبر والأرز التي تنبت في جبال لبنان، فضلاً عن معدن الحديد الذي كان يستخرج من جبل قرب بيروت[4]. كما اهتم بتقوية أجهزة الدفاع والحراسة الساحلية، كالرباطات والمحارس والمناور والمناظر الممتدة على طول سواحل مصر والشام، ومنها بالطبع ساحل بيروت. وكان على المنورين إذا ما كشفوا عدواً في البحر مقبلاً من بعيد، أن يشعلوا النار على قمم المناور أو المنائر إذا كان الوقت ليلاً، أو إثارة الدخان منها إن كان الوقت نهاراً[5]. هذا إلى جانب استخدام

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ١١، ص ٥٤٣.
صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٩.
(٢) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٩.
(٣) المصدر نفسه، ص ٤٥.
(٤) ابن شداد: الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ص ١٠١.
(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٧٧.

الطبل والنفير لتحذير أهالي المدن المجاورة من غارة العدو. وبهذه الطريقة كان من الممكن إبلاغ القاهرة في مصر عن وقوع غارة بحرية على بيروت في ليلة واحدة أو نهار واحد.

وباسترجاع مدينة بيروت من أيدي الصليبيين، عادت الكرامة إلى المسلمين الذين بقيوا في بيروت طيلة الاحتلال الصليبي. واستعمل المسلمون مبنى كنيسة يوحنا المعمدان كمسجد لهم (الجامع العمري) بعد أن خلت بيروت من النصارى ومن الصليبيين. ويذكر صالح بن يحيى أن صلاح الدين «تسلّم بيروت ونصب السنجق السلطاني... وكان بها جماعة من المسلمين مستوطنين مساكين بمساكنة الفرنج فانجلت عنهم الكمدة ورأوا الفرج بعد الشدة»[1].

ولكن أهم ما يميز بيروت والمدن الإسلامية في عصر صلاح الدين الأيوبي، هو عودة الوحدة للعالم الإسلامي، بانهيار دولة الفاطميين، لتصبح الخلافة العباسية هي الخلافة الوحيدة التي يدين لها المسلمون بولائهم الروحي[2]. فقضى صلاح الدين الأيوبي على آثار الخلافة الفاطمية في مصر منذ سنة ٥٦٧ / ١١٧١، بعد أن استمرت مدة قرنين من الزمان تقريباً.

وقد ترك صلاح الدين الحرية لأهالي بيروت وغيرها من المدن التي حرّرها من الصليبيين، في أن يبقوا فيها أو يرحلوا، فآثر معظمهم الرحيل إلى صور، حيث اجتمع كل افرنجي بقي في الساحل. وبقي في بيروت المسلمون، الذين أخذوا يتزايدون ويرابطون في المدينة للدفاع عنها، بعد أن زال عنهم الكابوس الصليبي.

٢ - دور بيروت أثناء حصار الصليبيين لعكا (٥٨٥ - ٥٨٧ / ١١٨٩ - ١١٩١)

ولّى صلاح الدين الأيوبي، على بيروت، الأمير سيف الدين المشطوب[3]، ثم ولّى

(١) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٩ - ٢٠.
(٢) سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ٢٥.
(٣) سيف الدين علي بن أحمد المشطوب الهكاري (ت ٥٨٨/١١٩٢) كان أميراً جليل القدر، ومقدم الجيوش في سلطنة الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، وله مواقف في الحروب الصليبية حضر مع أسد الدين شيركوه فتح مصر ولازم صلاح الدين إلى آخر عمره وأسره الصليبيون ففدى نفسه بخمسين ألف دينار وسمّي المشطوب لشطبة في وجهه من أثر طعنة في إحدى غزواته وأقطعه صلاح الدين مدينة نابلس كلها وقد توفي فيها وكان يلقب بالأمير الكبير.
صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٢٠.
الزركلي: الاعلام، جـ ٤، ص ٢٥٦.

عليها الأمير أسامة بن منقذ[1]، وفي أيامه كانت بيروت هي قاعدة الأسطول البحري الشامي. وكان صلاح الدين قد ارتكب خطأ كبيراً، عندما ترك الصليبيين يتجمعون في مدينة صور التي اشتد اهتمامهم بها وحصّنوها، فتحولت إلى قاعدة لاسترداد ما فقدوه، ومركزاً للامدادات الصليبية القادمة من الغرب. وكانت صور بمثابة الثغرة التي نفذ منها الصليبيون ليحاصروا عكا من جهة البر، في حين حاصرتها الأساطيل الأوروبية من جهة البحر سنة ٥٨٥ / ١١٨٩. وتعتبر عكا موقعاً استراتيجياً هاماً، فإذا تم الاستيلاء عليها صار الطريق إلى بيت المقدس مفتوحاً أمام الصليبيين. وقد لعبت بيروت دوراً بارزاً في مساعدة المسلمين المحاصرين في عكا، حيث كان يوجد على سواحلها، في مكان يسمّى الديب أو الذئب (لعله جل الديب على ساحل بيروت الشمالي)، طائفة من المسلمين يجهّزون السفن الداخلة إلى عكا، ويقطعون الطريق على المراكب الصليبية بين طرابلس وصور. وكان للأمير أسامة غزوات كثيرة في البحر، ضد مراكب العدو المارة ببيروت في طريقها إلى عكا، فغنم مغانم كثيرة. ويحكى عنه أنه استولى على خمس سفن من أسطول ملك انكلترة ريتشارد قلب الأسد، كانت مملوءة خيلاً ورجالاً ونساء وأموالاً[2].

واشتد حصار السفن الصليبية لعكا، ومنع دخول المراكب الإسلامية إليها، فازدادت حاجة الأهالي المحاصرين إلى المواد الغذائية والسلاح، وخاصة بعد تأخر السفن المصرية عن موعدها المحدد لإيصال المعونة والمساعدة إلى عكا. ففكّر صلاح الدين الأيوبي بحيلة، وكتب إلى متولي بيروت الأمير أسامة، فجهّز سفينة كبيرة (بطسة)[3] كان قد غنمها من الفرنج، وكانت راسية بساحل بيروت. وبعد ترميمها، ملأها بالشحوم واللحوم، وأربعمائة غرارة غلة، وأحمال من النشاب والنفط. وركب في السفينة جماعة

(١) أسامة بن منقذ: هو عز الدين أسامة بن منقذ وهو غير مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن منقذ الكناني المتوفي سنة ١١٨٨/٥٨٤ (والواردة ترجمته في: الزركلي: الاعلام، جـ ١، ص ٢٩١).
وأخبار عز الدين أسامة بن منقذ في:
صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٢٠ ـ ٢٢.

(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين جـ ٢، ص ١٨٣ ـ ١٨٤.

(٣) البطس: جمع بطسة وهي مراكب كبيرة الحجم كانت تتكوّن من عدة طوابق وكانت تزوّد بعدد كبير من القلوع يصل أحياناً إلى أربعين قلعاً وكانت تستخدم لنقل الأزواد والميرة كما كانت تستخدم لنقل جموع كبيرة من المحاربين قد يصل عددهم إلى سبعمائة.
العبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص ١٣٦.

من أهل بيروت، تزيّوا بزي الفرنج، فحلقوا لحاهم، وعلّقوا الصلبان مثل الرهبان، ووضعوا الخنازير على سطح السفينة بحيث ترى من بعيد. وتوجهت السفينة نحو عكا واختلطت بمراكب الصليبيين، فلم يشك أحد بأمرها عندما اعترضتها الحراقات[1] والشواني[2]. ثم تابعت سيرها ودخلت ثغر عكا[3]. وبعد ذلك بقليل وصلت ثلاث سفن مصرية، فاخترقت مراكب العدو وأغرقت سفينة له، ودخلت ثغر عكا أيضاً. وكانت فرحة أهالي عكا عظيمة بوصول تلك السفن[4].

وقد ظهرت بطولات عديدة، أثناء مساعدة أهالي عكا المحاصرين، منها بطولة الضفدع البشري عيسى العوام[5]، الذي كان يشد على وسطه الرسائل والذهب، ثم يغوص ليلاً في البحر على غرة من العدو ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو، ويدخل عكا حيث يسلم الرسائل إلى رجال الحامية، بينما كان الذهب يصرف نفقة للمجاهدين. وأبرز البطولات قام بها يعقوب الحلبي، الذي خرج من بيروت[6] على رأس سفينة كبيرة (بطسة)، مشحونة بالآلات والميرة والرجال، لإمداد حامية عكا، فاعترضه ملك انكلترة ريتشارد قلب الأسد، وحاصره بأربعين سفينة، فقاتلهم المسلمون قتالاً عنيفاً، وحتى لا يستولي الفرنج على سفينة المسلمين، قال المقدم يعقوب: «والله لا نقتل إلا عن عز، ولا نسلم إليهم من هذه البطسة شيئاً»، ثم حطّم المسلمون جوانب البطسة بالمعاول حتى فتحوها، فامتلأت بماء البحر، وغرق جميع من فيها، ولم يظفر ريتشارد قلب الأسد منها بشيء.

هذه الأعمال وأمثالها تبرز لنا الدور الذي قامت به بيروت من شجاعة وتضحية،

(١) الحراقات أو الحراريق: جمع حراقة، وهي مراكب حربية يعبّر اسمها عن وظيفتها في إحراق سفن العدو بالنفط وكان يجدِّف فيها بما يقرب من مائة مجداف.
الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٣٨٨.
ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص ٣٤٠.

(٢) الشواني: مفردها شيني أو شونة، وهي مركب كبير وطويل يجدف بمائة وأربعين مجدافاً ويحمل المقاتلين والجدافين وهو مزود بأبراج وقلاع تستخدم للدفاع والهجوم.
ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص ٣٤٠.

(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين، جـ ٢، ص ١٦١.

(٤) المصدر نفسه، جـ ٢، ص ١٦٠.

(٥) المصدر نفسه جـ ٢، ص ١٦٢.

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٢، ص ٣٥١.

ضد عدو صليبي يفوقها قوة وكثرة في ميدان البحر. لهذا اعتمدت في مقاومته، كما اعتمدت البحرية الإسلامية، في ذلك الوقت على عنصري المفاجأة والحيلة مع صدق العزيمة.

ومع ذلك سقطت عكا بيد الصليبيين، ويتزعمهم ريتشارد قلب الأسد ملك انكلترة، في ١٧ جمادي الثانية ٥٨٧ / ١٢ تموز ١١٩١.

٣ - بيروت وصلح ٢١ شعبان ٥٨٨ / ٢ أيلول ١١٩٢:

بعد سقوط عكا، اشتد الصراع بين صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد، واستمرت الحروب بينهما حتى عقدا الصلح[١] سنة ٥٨٨ / ١١٩٢، وهو بمثابة هدنة بين الفريقين، مدتها ثلاث سنوات وثلاثة أشهر وثلاثة أيام، تبدأ اعتباراً من ٢١ شعبان سنة ٥٨٨ / أول أيلول ١١٩٢، وعلى أن تكون المدن الساحلية حتى يافا في الجنوب للصليبيين، باستثناء صيدا وبيروت وجبيل، فيحتفظ بها المسلمون، مع إباحة حرية الحج للمسيحيين. وبعد عقد الصلح توجه صلاح الدين الأيوبي إلى القدس، وزار نابلس وطبرية وصفد وتبنين، ثم قصد مدينة بيروت التي أقام بها عدة أيام[٢]، حيث استقبله واليها الأمير أسامة في شوال ٥٨٨ / ١١٩٢[٣]. وفي هذه الأثناء زاره «بيمند الفرنجي صاحب طرابلس وانطاكية»[٤]. وبذلك يكون صلاح الدين الأيوبي قد حضر إلى بيروت ثلاث مرات، الأولى سنة ٥٧٨ / ١١٨٢ عندما فشل في استردادها من الصليبيين، والثانية سنة ٥٨٣ / ١١٨٧ عندما دخلها صلحاً، والثالثة بعد عقده الصلح مع الصليبيين سنة ١١٩٢/٥٨٨. ومن بيروت توجه صلاح الدين إلى دمشق بعد أن تعهد هذه المدن التي بقيت تحت سيطرته، وأمر بإحكامها وتحصينها[٥]، لكن المنية وافته سنة ٥٨٩ / ١١٩٣ ودفن هناك ومعه سيفه[٦].

وهكذا نعمت بيروت بالحكم الإسلامي مدة عشر سنين وشهراً واحداً وأحد عشر يوماً[٧].

---

(١) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٢١.
(٢) المصدر نفسه، ص ٢١.
(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين، جـ ٢، ص ٢٠٧.
(٤) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٢١.
(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ١٢، ص ٨٧.
(٦) أبو شامة: كتاب الروضتين، جـ ٢، ص ٢١٥.
(٧) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٢٢.

الفصل الثالث

الفترة الثانية من الاحتلال الغربي - الصليبي
(٥٩٣ - ٦٩٠ / ١١٩٧ - ١٢٩١)

بوفاة صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٩ / ٣ آذار ١١٩٣، بدأ الصراع على الحكم بين ولديه الأفضل والعزيز عثمان. واستغل الصليبيون هذا الصراع لاسترجاع الأماكن التي انتزعها منهم صلاح الدين، فاستسلمت لهم بيروت دون قتال وعادت إلى حكم أسرة دي ابلن الصليبية. وانتهز العادل الفرصة ليعقد اتفاقاً مع الصليبيين تخلّى بموجبه عن بيروت ثم أبعد أولاد أخيه، ليصبح سلطاناً على مصر وإمارة دمشق سنة ٥٩٦ / ١٢٠٠.

١ - الأمير أسامة بن منقذ يسلّم بيروت دون قتال (١١٩٧/٥٩٣):

بعد انقضاء مدة هدنة «صلح» سنة ١١٩٢/٥٨٨، تجمّع الصليبيون في عكا سنة ٥٩٣ / ١١٩٧، وهدفهم الزحف شمالاً نحو بيروت. وعندما علم العادل الأيوبي بتحركات الصليبيين، عزم على تخريب المواقع الساحلية الإسلامية التي لا يستطيع الدفاع عنها، على أن لا يتم تخريبها إلا بعد إجلاء الأهالي المسلمين عنها إلى مناطق داخلية مأمونة. فسيَّر لهذه الغاية فرقة من عسكره إلى مدينة بيروت، فهدمت سور المدينة في ٧ ذي الحجة سنة ٥٩٣ / تشرين الأول ١١٩٧، وشرعت في تخريب دورها وتدمير قلعتها ومرافقها، لكن الأمير أسامة بن منقذ متولي بيروت من قبل الملك العادل، عارض هذا الأمر ومنعهم من إنجاز مهمتهم، بحجة قدرته على الدفاع عن بيروت وتعهده بحفظها. وكانت الكارثة على بيروت من جراء ذلك، حيث زحف الصليبيون نحو بيروت، بقيادة ملك قبرص عموري لوزينيان، ولما اقتربوا منها سلّمها الأمير أسامة دون قتال، وخرج

منها هو وجماعته(١) إلى مدينة صيدا، وكان ذلك نهار الجمعة ١٠ ذي الحجة سنة ٥٩٣ / أيلول ١١٩٧.

وهكذا فرط أسامة بن منقذ في الدفاع عن بيروت مما جعله عرضة للنقد الشديد من الأهالي المسلمين، الذين عابوا عليه تسليم المدينة دون قتال(٢). ومنذ ذلك الحين، أصبح تسليم المدن الإسلامية للصليبيين بدون حرب، تقليداً سنّه أسامة. فعندما حاصر الصليبيون حصن تبنين سنة ٥٩٥ / ١١٩٨، قال أحد الشعراء مخاطباً صاحب الحصن(٣):

سلّم الحصن ما عليك ملامة   لا يلام الذي يروم السلامة

فعطا الحصون من غير حرب   سنّة سنّها ببيروت سآمة

٢ - اتفاق شعبان ٥٩٤ / أول تموز ١١٩٨ وعودة الاحتلال الصليبي إلى بيروت:

ثم كان الاتفاق بين المسلمين والصليبيين في شعبان سنة ٥٩٤ / أول تموز ١١٩٨، وبموجبه يحتفظ الصليبيون ببيروت وجبيل وظلّت يافا تابعة للمسلمين، وتقاسم الفريقان صيدا(٤). أي أن المسلمين والصليبيين أقروا الأوضاع الراهنة.

وهكذا عاد وضع الصليبيين في بيروت إلى ما كانوا عليه قبل انتصارات صلاح الدين الأيوبي، وكانت القرى التي حول بيروت قد حافظت على طابعها الإسلامي(٥)، فأدّت الطاعة والخراج للصليبيين. أما متولي بيروت الأمير أسامة بن منقذ، فبقيت له الولاية الجبلية ثم سار إلى مصر. وبذلك عاد الاحتلال الصليبي لبيروت في فترته الثانية التي استمرت ٩٥ سنة (٥٩٣ - ٦٩٠ / ١١٩٧ - ١٢٩١). وفي هذه الفترة استعاد الصليبيون مبنى القديس يوحنا المعمدان، الذي استعمله المسلمون كمسجد لهم، وحوّلوه إلى كاتدرائية.

(١) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٢١.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ١٢، ص ١٢٧.
(٢) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٢١.
(٣) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٢٢.
أبو شامة: كتاب الروضتين، جـ ٢، ص ٢٣٣.
(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ١٢، ص ٤٧٧ و٤٧٨.
(٥) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٢٢.

وكان وضع المسلمين في هذه الفترة، أفضل قليلاً من الفترة الأولى. فبقي في بيروت عدد من أهلها المسلمين، وبقي لهم مسجدان سلما من الهدم هما «جامع الإمام الأوزاعي» و«جامع شمس الدين»(١)، فضلاً عن «زاوية الراعي»(٢) التي بنيت سنة ٦٠٠ / ١٢٠٣. وكانت هذه المساجد عبارة عن مصليات صغيرة، لأن المسلمين لم يكونوا كثرة في تلك الفترة، فيذكر صالح بن يحيى:

«فبيروت لما كانت الفرنج بها كان بها جماعة من المسلمين... يجتمعون لصلاة الجمعة فلم يكملوا أربعين فيصلي بهم الخطيب ظهراً في بعض الأوقات وفي بعضها يكملوا بمن يحضرهم من الضواحي فيصلي بهم جمعة»(٣).

وكانت مراكب الفرنج تتردد إلى بيروت، ومراكب البندقية تحضر إلى قبرص وصاحب قبرص يرسل بضائعها في سفينتين كبيرتين إلى بيروت نقلة بعد أخرى. وكان للقبارصة كنائس في بيروت، وجماعة تجار يسكنون فيها، ولهم خانات وحمامات(٤) وأفران.. وكان للبنادقة فندق في بيروت، وكذلك لجنوه، والفندق Fondaci بناء ضخم يسكن التجار طوابقه العليا، أما الطابق الأول فمخصص للمخازن والحوانيت.

٣ - الصراع بين الصليبيين وعودة حكم بيروت لأسرة دي ابلن

عقد الملك العادل الأيوبي اتفاقية يافا سنة ٦٠٠ / ١٢٠٤ مع آموري دي لوزينيان الصليبي، وتنازل بموجبها عن بقية المدن الساحلية مثل يافا وصيدا والناصرة واللد والرملة. وكان أمير بيروت الصليبي جان دي ابلن، قد استلم الوصاية على مملكة عكا «كانت الوريثة هي ماري ابنة أخته». وبوفاة آموري دي لوزينيان، نشب الخلاف بين الامبراطور فردريك الثاني والبابوية، فتزعم أمير بيروت جان دي ابلن المعارضة ضد

(١) محمد طه الولي: تاريخ المساجد، ص ٧٧ - ٧٨.
وكان مسجد الأمير محمد شمس الدين الخطاب قائماً في سوق البازركان وقد هدمته المديرية العامة للأوقاف الإسلامية سنة ١٣٦٩/١٩٤٩ ورفعت مكانه بناية تجارية.
(٢) سميت باسم الشيخ حسن الراعي الذي كان يدرس أو يسكن بها وكانت تقع داخل سور بيروت القديمة قرب باب ادريس وقد زالت هذه الزاوية من الوجود سنة ١٩٣٣.
المرجع نفسه، ص ٧٨.
(٣) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٣٤ - ٣٥.
(٤) المصدر نفسه، ص ٣٥.

الامبراطور، وذهب من عكا إلى قبرص، وانتزعها من مؤيدي الامبراطور، الذي رد عليه بتوجيه حملة يقودها ريتشارد فلانجيري[1]، وانتزع بيروت وصيدا وصور وعكا. لكن جان دي ابلن لم يلبث وأن عاد من قبرص في سنة ٦٢٩/ شباط ١٢٣١ ، ليسترجع بيروت وصيدا [2] ، وليعود حكم بيروت إلى أسرة دي ابلن الصليبية .

وسنة ٦٣٩ / ١٢٤١ عقد الملك الصالح أيوب[3] صلحاً مع الصليبيين، أقرَّ لهم الحق في امتلاك بيروت وصيدا والشقيف والجليل وطبرية وبيت لحم والناصرة وعسقلان[4]. ثم أصبح جان دي ابلن الثاني حاكماً على مملكة بيْروت (٦٤٥ ـ ٦٦٢ / ١٢٤٧ ـ ١٢٦٤)، وزوَّج ابنته آشيف Echive من همفري دي مونتفرت[5]. وهكذا بقيت بيروت، في تلك الفترة، تحت الاحتلال الصليبي، بينما استمر أمراء الغرب يحكمون القرى الجبلية حول بيروت، ويقاتلون الصليبيين. فأقر الملك الصالح أيوب، أمير الغرب نجم الدين محمد[6] مكان والده حجي.

وأقر الملك الناصر يوسف[7]، آخر ملوك الدولة الأيوبية في دمشق، الأمير جمال الدين حجي الكبير[8] على إمارة الغرب سنة ٦٥٠ / ١٢٥٢ .

---

(١) محمد علي مكي: لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، ص ١٩٢.

(٢) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة صيدا، ص ١٣٢ .

(٣) الملك الصالح أيوب (٦٠٣ ـ ٦٤٧/١٢٠٦ ـ ١٢٤٩): هو أيوب بن أبي بكر بن أيوب، أبو الفتوح نجم الدين، ولد ونشأ بالقاهرة. تولى الحكم بعد خلع أخيه العادل وفي أواخر أيامه أغار الصليبيون على دمياط واحتلوها. مات بناحية المنصورة ونقل إلى القاهرة.
الزركلي: الاعلام، جـ ٢، ص ٣٨.

(٤) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة صيدا، ص ١٣٣ .

(٥) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٦٢.

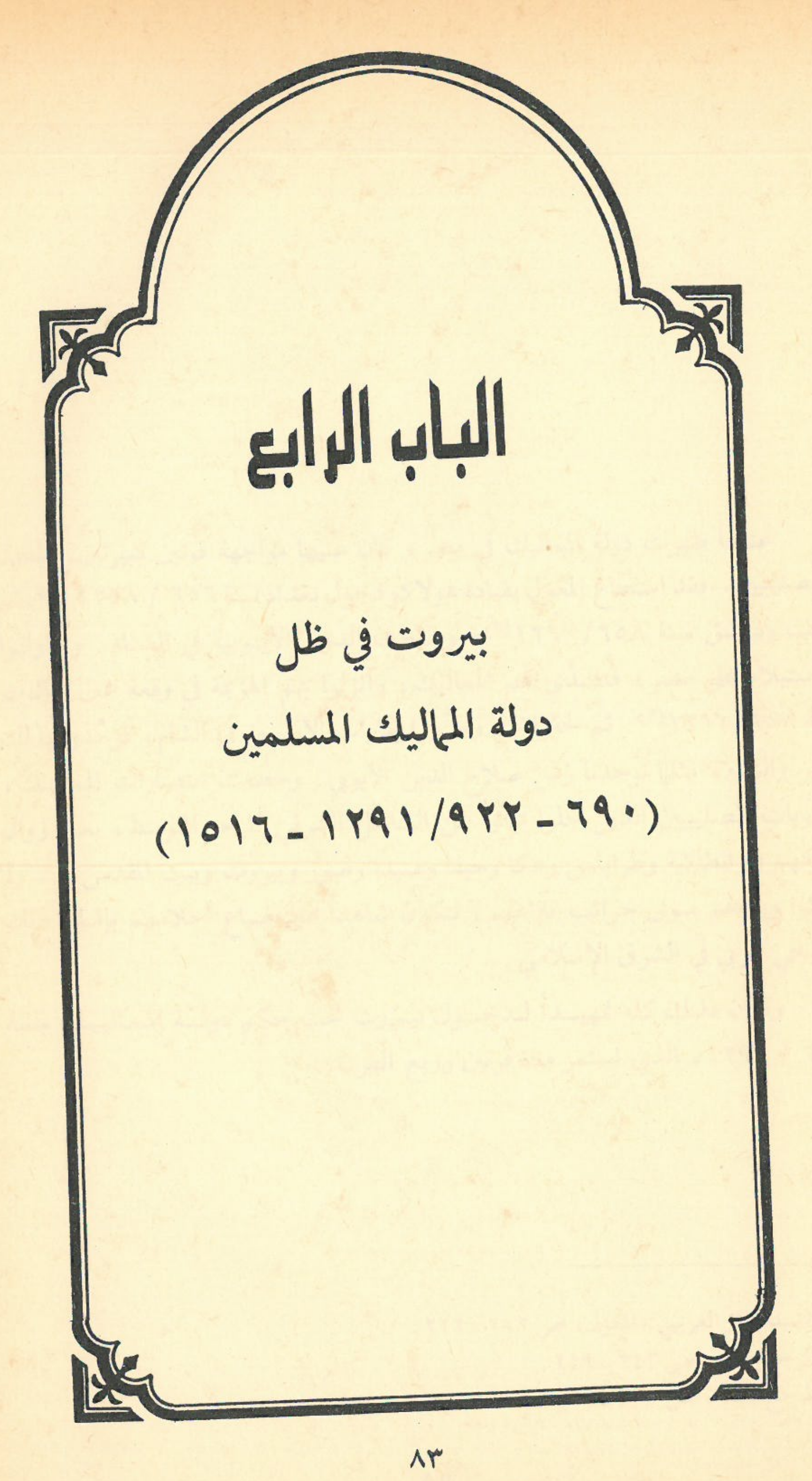
(٦) المصدر نفسه ص ٤٩ ـ ٥٠.

(٧) الملك الناصر يوسف بن محمد بن الظاهر ابن «الناصر صلاح الدين» الأيوبي (٦٢٧ ـ ٦٥٩/١٢٣٠ ـ ١٢٦١): آخر ملوك بني أيوب. ولد بقلعة حلب وتولى الملك فيها بعد وفاة والده ثم ضم إليها دمشق سنة ٦٤٨ / ١٢٥٠ وحاول السيطرة على مصر ففشل وقتله هولاكو بعد سيطرة التتار على دمشق .
الزركلي: الاعلام، جـ ٨، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

(٨) جمال الدين حجي الكبير: هو جمال الدين حجي بن نجم الدين محمد بن حجي بن كرامة بن بحتر ويعرف بجمال الدين الكبير، اعترف بإمارته آخر ملوك الدولة الأيوبية الملك الناصر يوسف سنة ٦٥٠ هـ كما اعترف به بعد ذلك سلطان المماليك الملك الظاهر بيبرس سنة =

لكن المسلمين لم يسكتوا عن احتلال الصليبيين لبيروت خلال تلك الفترة الطويلة، فكان الحكم المملوكي الإسلامي الذي استطاع تحرير بيروت نهائياً من الاحتلال الصليبي سنة ٦٩٠ / ١٢٩١ .

= ٦٥٩ هـ . وكان له ولد اسمه نجم الدين محمد وكان مشهوراً بسوء السيرة مما أدى إلى حرمانه من وراثته من بعده.
صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٥١ ـ ٥٥ .
اسطفان الدويهي: تاريخ الأزمنة، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ .



الباب الرابع

بيروت في ظل
دولة المماليك المسلمين
(٦٩٠ - ٩٢٢/ ١٢٩١ - ١٥١٦)

عندما ظهرت دولة المماليك في مصر، كان عليها مواجهة قوتين كبيرتين: المغول والصليبيين. فقد استطاع المغول بقيادة هولاكو دخول بغداد سنة ٦٥٦ / ١٢٥٨ [١]، ثم حلب ودمشق سنة ٦٥٨/١٢٦٠ [٢]، وسقطت الدولة الأيوبية في الشام. وحاولوا الاستيلاء على مصر، فتصدَّى لهم المماليك، وأنزلوا بهم الهزيمة في وقعة عين جالوت سنة ٦٥٨/١٢٦٠ [٣]. ثم لحقوا بهم وحرَّروا إمارات الأيوبيين في الشام، فوحَّدوا بذلك مصر والشام، مثلما توَّحدتا زمن صلاح الدين الأيوبي. وحطَّمت انتصارات المماليك، معنويات الصليبيين الذين جلوا نهائياً عن الساحل الشرقي للبحر المتوسط، بعد زوال ممالكهم في انطاكية وطرابلس وعكا وحيفا وصيدا وصور وبيروت وبيت المقدس... ولم يتركوا وراءهم سوى خرائب قلاعهم، لتكون شاهداً على ضياع أحلامهم بإقامة ملك مسيحي غربي في الشرق الإسلامي.

وكان ذلك كله تمهيداً لدخول بيروت تحت حكم دولة المماليك سنة ٦٩٠ / ١٢٩١، الذي استمر مدة قرنين وربع القرن.

(١) السيد الباز العريني: المغول، ص ٢١٢ ـ ٢٢٢.
(٢) المرجع نفسه، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٩.
(٣) المرجع نفسه، ص ٢٥٧ ـ ٢٦١.

الفصل الأول

المماليك وتحرير بيروت نهائياً من الصليبيين
(٢٢ رجب ٦٩٠ /٢٣ تموز ١٢٩١)

بدأ حكم الدولة المملوكية سنة ٦٥٨ / ١٢٦٠، وبيروت لا تزال تحت سيطرة الاحتلال الصليبي. وكان هدف السلطان الظاهر بيبرس[١]، تحرير بيروت والمدن الإسلامية الساحلية، لذلك شرع في اتباع خطة معرفة أخبار الصليبيين وكشف أحوالهم، خاصة في بيروت وصيدا، قبل محاربتهم والقضاء عليهم. وقد عاونه في ذلك أمراء الغرب، مثل الأمير زين الدين صالح بن علي[٢] والأمير جمال الدين حجي، فضلاً عن أحد أعوانه بدر الدين بن رحال[٣]. وقد خشي حكّام بيروت الصليبيون من هذا الأمر، فعقدوا هدنة مع المماليك.

١ ـ هدنة (٦٦٧/١٢٦٩) بين ملكة بيروت وسلطان المماليك:

كانت إيزابيلا الإبنة الكبرى للملك جان دي ابلن الثاني، وقد خلفته بعد وفاته

---

(١) السلطان الظاهر بيبرس العلائي البندقداري الصالحي (٦٢٥ ـ ٦٧٦ / ١٢٢٨ ـ ١٢٧٧)، ولد في القبجاق وأسر فبيع في سيواس ثم نقل إلى حلب ومنها إلى القاهرة فاشتراه الأمير علاء الدين البندقدار. ثم جعله الملك الصالح في خدمته ثم أصبح أتابك العساكر في مصر أيام الملك قطز ثم سيطر على مصر والشام سنة ٦٥٨ هـ بعد مقتل قطز. واشتهر بحروبه مع المغول والصليبيين.

الزركلي: الاعلام، جـ٢، ص ٧٩.

(٢) الأمير زين الدين صالح بن علي بن بحتر بن علي أمير الغرب. كان من أشجع أهل زمانه وأشدهم بأساً، انتصر على ابن ودود وابن حاتم وعسكر بعلبك والبقاع في قرية عيتات سنة ٦٥٣ هـ. ورغم المساعدات التي كان يقدمها للظاهر بيبرس، فقد سجنه في مصر ثم أفرج عنه بعد وفاته سنة ٦٧٦ هـ.

صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٥٨ ـ ٧٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦١.

وأصبحت ملكة بيروت (٦٦٢ - ٦٨٠ / ١٢٦٤ - ١٢٨٢). وكان يساعدها في حكم مدينة بيروت نفسها همفري دي مونتفرت، زوج أختها آشيف، والذي عرف بـ «صاحب بيروت». وقد خشي حكام بيروت من أمراء الغرب المسلمين الذين يحكمون القرى الجبلية حولها. وأبرز ما فعله صاحب بيروت همفري دي مونتفرت، أنه وهب شكارة العمروسية إلى أمير الغرب، مقابل اتفاق، ذكره صالح بن علي بقوله[1]: «من مضمون كتاب بوهبة شكارة العمروسية من همفري دي مونتفرت الفرنجي صاحب بيروت، وهو أنه قد وهب شكارة بذارها عرارة ينصبها كرم، بشرط لا يبيعها ولا يوهبها، ومتى فعل ذلك رجع في وهبته. ومن شروطه مساعدته لصحوبيته، وأن لا يخلي في بلاده هارب من بلد بيروت إلا ويرده صلحاً أو بغيره، وأن لا يمكنه من الإقامة أزيد عن ثمانية أيام، ولا يمكن أحد من بلاده يفسد في بلد بيروت، أعني الساحل، لأن بلد بيروت كان في ذلك الوقت جباله للمسلمين والساحل للفرنج».

والحقيقة أن انتصارات المماليك حطمت معنويات الصليبيين، وخاصة بعد تحرير انطاكية سنة ٦٦٦ /١٢٦٨، بدليل أن بعض القوى الصليبية سارعت إلى عقد هدنة مع السلطان بيبرس، على أساس مبدأ المناصفة أو المشاركة معه في غلّات بلادهم ومنتجاتها[2]. ولعل من أطرفها تلك الهدنة، التي أبرمت بين الظاهر بيبرس سلطان المماليك وبين ملكة بيروت إيزابيلا Isabella، التي تطلق عليها المراجع العربية اسم الدبونة، وهو تعريب لاسم البيت الحاكم في بيروت «دي ابلن». وقد وقعت الهدنة بينهما سنة ٦٦٧ / ١٢٦٩، ولمدة عشر سنوات، وهذا هو نص الهدنة كما ذكره القلقشندي[3]:

«استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، وبين الملكة الجليلة المصونة الفاخرة، فلانة بنت فلان، مالكة بيروت وجميع جبالها وبلادها التحتية مدة عشر سنين متوالية، أولها يوم الخميس سادس رمضان سنة سبع وستين وستمائة، على بيروت وأعمالها المضافة إليها، الجاري عادتهم في التصرف فيها في أيام الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وأيام ولده الملك المعظَّم عيسى، وأيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز. والقاعدة المستقرة في زمنهم إلى آخر الأيام الظاهرية بمقتضى الهدنة الظاهرية. وذلك مدينة بيروت وأماكنها المضافة إليها ؛ من حد بلاد جبيل شمالاً،

(١) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٧٣ - ٧٤.
(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ١٤ ص ٤٢ - ٥١.
(٣) المصدر نفسه جـ ١٤، ص ٣٩ - ٤٢.

إلى حد صيدا جنوباً وهي المواضع الآتي ذكرها: جونية بحدودها، والعذب بحدودها، والعصفورية بحدودها، والرواوق بحدودها وسن الفيل بحدودها والرح والشويف بحدودها وأنطلياس بحدودها والجديدة بحدودها، وحسوس بحدودها، والبُشرية بحدودها ، والدكوانة وبرج قراجار بحدودها ، وقرينة بحدودها ، والنصرانية بحدودها ، وخَلدا بحدودها ، والناعمة بحدودها ، ورأس الفقيه ، والوطاء المعروف بمدينة بيروت ، وجميع ما في هذه الأماكن من الرعايا والتجار ، ومن سائر أصناف الناس أجمعين ، والصادرين منها ، والواردين إليها من جميع أجناس الناس ، والمترددين إلى بلاد السلطان بيبرس وهي :

الحميرة وأعمالها وقلاعها وبلادها وكل ما هو مختص بها؛ والمملكة الأنطاكية وقلاعها وبلادها؛ وجبلة واللاذقية وقلاعها وبلادها؛ وحمص المحروسة وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها؛ ومملكة حصن عكا وما هو منسوب إليه؛ والمملكة الحموية وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها؛ والمملكة الرحبية وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها؛ والمملكة البعلبكية وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها؛ والمملكة الدمشقية وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها ورعاياها؛ والمملكة الشقيفية وما يختص بها من قلاعها وبلادها ورعاياها؛ والمملكة القدسية وما يختص بها؛ والمملكة الحلبية وما يختص بها؛ والمملكة الكركية والشوبكية وما يختص بها من القلاع والبلاد والرعايا؛ والمملكة النابلسية؛ والمملكة الصرخدية؛ ومملكة الديار المصرية جميعها بثغورها وحصونها وممالكها وبلادها وسواحلها وبرها وبحرها ورعاياها وما يختص بها؛ والساكنين في جميع هذه الممالك المذكورة، ، وما لم يذكر من ممالك السلطان وبلاده، وما سيفتحه الله تعالى على يده ويد نوابه وغلمانه، يكون داخلاً في هذه الهدنة المباركة، ومنتظماً في جملة شروطها، ويكون جميع المترددين من هذه البلاد وإليها آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وبضائعهم، من الملكة فلانة وغلمانها، وجميع من هو في حكمها وطاعتها، بحراً وبراً، ليلاً ونهاراً، ومن مراكبها وشوانيها. وكذلك رعية الملكة فلانة وغلمانها يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وبضائعهم من السلطان ومن جميع نوابه وغلمانه ومن هو تحت حكمه وطاعته: براً وبحراً، ليلاً ونهاراً، في جبلة واللاذقية، وجميع بلاد السلطان ومن مراكبه وشوانيه.

وعلى أن لا يجدد على أحد من التجار المترددين رسم لم تجر به عادة، بل يجرون على العوائد المستمرة، والقواعد المستقرة من الجهتين. وإن عدم لأحد من الجانبين مال أو

أخذت أخيذة، وصحت في الجهة الأخرى، ردت إن كانت موجودة، أو قيمتها إن كانت مفقودة. وإن خفي أمرها كانت المدة للكشف أربعين يوماً، فإن وجدت ردت، وإن لم توجد حلّف والي تلك الولاية المدعى عليه، وحلّف ثلاثة نفر ممن يختارهم المدعي، وبرئت جهته من تلك الدعوى. فإن أبى المدعى عليه عن اليمين، حلّف الوالي المدعي وأخذ ما يدعيه. وإن قتل أحد من الجانبين خطأ كان أو عمداً، كان على القاتل في جهته العوض عنه نظيره؛ فارس بفارس، وراجل براجل، وفلاح بفلاح. وإن هرب أحد من الجانبين إلى الجانب الآخر بمال لغيره، رد من الجهتين هو والمال، ولا يعتذر بعذر.

وعلى أنه إن صدر فرنجي من بيروت إلى بلاد السلطان، يكون داخلاً في الهدنة، وإن عاد إلى غيرها لا يكون داخلاً في هذه الهدنة.

وعلى أن الملكة فلانة لا تمكن أحداً من الفرنج على اختلافهم من قصد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها، وتمنع من ذلك وتدفع كل متطرق بسوء، وتكون البلاد من الجهتين محفوظة من المتجرمين المفسدين.

وبذلك انعقدت الهدنة للسلطان، وتقرر العمل بهذه الهدنة والالتزام بعهودها والوفاء بها إلى آخر مدتها من الجهتين، لا ينقضها مرور زمان، ولا يغير شروطها حين ولا أوان، ولا تنقض بموت أحد الجانبين.

وعند انقضاء الهدنة تكون التجار آمنين من الجهتين مدة أربعين يوماً، ولا يمنع أحد منهم من العودة إلى مستقره، وبذلك شمل هذه الهدنة المباركة الخط الشريف حجة فيها، والله الموفق في تاريخ كذا».

ويتبيَّن لنا من نصوص الهدنة، حدود مملكة بيروت ونواحيها التي تمتد من جبيل شمالاً إلى صيدا جنوباً، كما يتبيَّن لنا أن معظم أسماء مدن وأحياء مملكة بيروت ما زالت باقية إلى يومنا هذا مثل: جونية والعصفورية وسن الفيل وانطلياس والجديدة والبوشرية والدكوانة وخلدة والناعمة. . . وبعد ثلاث سنوات من عقد الهدنة تزوجت ملكة بيروت إيزابيلا من هامو الغريب Hamo L'Estrange سنة ٦٧٠ / ١٢٧٢ والذي أوصى قبل وفاته بوضع زوجته ومملكة بيروت تحت حماية السلطان الظاهر بيبرس، وذلك خشية مطامع هيو الثالث، ملك قبرص. وصارت ملكة بيروت كلما سافرت إلى قبرص، تذهب إلى لقاء السلطان بيبرس، وتترك مملكتها وديعة بين يديه إلى حين عودتها.

وأقدم هيو الثالث على خطف إيزابيلا بعد وفاة زوجها سنة ١٢٧٣/٦٧١، كي

يزوِّجها في قبرص من الشخص الذي يختاره لها، ليستغلها كوريثة لعرش قبرص في تنفيذ مشاريعه الصليبية في الشرق (ذلك أن إيزابيلا تزوجت وهي طفلة من ملك قبرص هيو الثاني الذي مات قبل أن يعقد عليها).

ولكن السلطان بيبرس احتج على هذا العمل، وهدَّد بضرورة تنفيذ وصية هامو زوج إيزابيلا، فاضطر الملك هيو الثالث أن يعيد إيزابيلا إلى بيروت، حيث اتخذت لنفسها حرساً من المماليك(١). وهذا الأمر يؤكد سلطة المماليك التي أخذت تقوى شيئاً فشيئاً، على الصليبيين المحتلين للسواحل الإسلامية، وخاصة في بيروت التي استمرت الملكة إيزابيلا تحكمها حتى وفاتها سنة ٦٨٠ / ١٢٨٢ تاركة حكمها إلى أختها آشيف.

وسنة ٦٨٤ / ١٢٨٥ وقع السلطان المنصور قلاوون(٢)، هدنة مماثلة، مع أميرة صور مرغريت، ومدتها عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام. وتعهدت بموجبها بعدم بناء تحصينات جديدة في إمارتها، كما تعهدت بالوقوف على الحياد في الصراع بين السلطان والصليبيين(٣)، مقابل عدم تعرض المماليك لإمارة صور. كما حرَّر قلاوون مدينة طرابلس سنة ٦٨٨ / ١٢٨٩، وبقيت بيروت تحت حكم أسرة دي ابلن، حتى استطاع السلطان الأشرف خليل بن قلاوون تحريرها من الصليبيين.

٢ ـ انتصارات السلطان الأشرف خليل بن قلاوون وتحرير بيروت من الصليبيين (٢٢ رجب ٦٩٠ / ٢٣ تموز ١٢٩١):

ثم اندلعت الحروب بين المماليك والصليبيين زمن السلطان الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون(٤)، وبدأت الهزائم تلحق بالصليبيين بعد أن نجح في الاستيلاء على

---

(١) العبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص ٢٩٨ و٢٩٩.

(٢) المنصور قلاوون (٦٧٨ ـ ٦٨٩/١٢٧٩ ـ ١٢٩٠): تسلم السلطنة في ٢٢ رجب سنة ٦٧٨ / ١٢٧٩، واستناب عنه بالشام حسام الدين لاجين وصادر الملك قلاوون أملاك أمراء الجبال وإقطاعاتهم وطلبهم إلى مصر. واستطاع فتح طرابلس سنة ٦٨٨ / ١٢٨٩، وألحقت بها أملاك أولاد أمير الغرب.

صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٧٠ ـ ٧١.

(٣) المقريزي: السلوك، م ٢، ص ١٧٢ ـ ١٧٧.

ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ١٠٣ ـ ١١٠.

(٤) خليل بن قلاوون (٦٦٦ ـ ٦٩٣/١٢٦٨ ـ ١٢٩٤): هو الملك الأشرف صلاح الدين ابن المنصور قلاوون. تولى السلطنة في مصر بعد وفاة والده المنصور قلاوون وقاتل الصليبيين =

عكا في ١٧ جمادى الثانية سنة ٦٩٠ / ١٨ أيار ١٢٩١ .

ووقع الخوف والرعب في قلوب الصليبيين، الذين أخلوا صور وصيدا من غير قتال وكذلك حيفا. وقاومت قلعة صيدا قليلاً، لكن الأمير سنجر الشجاعي ما لبث وأن دخلها. ثم أعطاه الملك الأشرف نيابة الشام، وطلب منه دخول بيروت، لأن صاحب بيروت أرسل إلى السلطان أثناء حصار عكا يطلب منه الأمان فأعطاه أماناً[1].

وهكذا دخل الأمير سنجر الشجاعي بيروت[2] دون مقاومة في ٢٢ رجب سنة ٦٩٠ / ٢٣ تموز ١٢٩١ .

وعندما وصل سنجر الشجاعي[3] إلى بيروت تلقاه صاحبها وخيَّالته بالترحاب، فأمرهم بنقل نسائهم وأطفالهم ومتاعهم إلى القلعة، فظنوا أنه سيعاملهم بالحسنى. وعندما دخلوا القلعة قبض على الرجال، وألقاهم في الخندق[4]، يوم الأحد ٢٣ رجب ٦٩٠ / ٢٤ تموز ١٢٩١ .

ثم جمع سنجر الشجاعي سكان بيروت من الصليبيين والنصارى، وأغلبهم من طائفة الموارنة، وأرسلهم إلى دمشق، ومنها إلى مصر. وهلك منهم في الطريق الشيوخ والنساء، ولما وصلوا مصر، أطلقهم السلطان وخيَّرهم بين العودة إلى بيروت أو التوجه إلى جزيرة قبرص، فتوجهوا جميعاً إلى قبرص[5]. وهكذا انتقل بعض نصارى بيروت

= واسترد عكا وصور وصيدا وبيروت وقلعة الروم وبيسان وجميع الساحل. وكان شجاعاً مهيباً له آثار عمرانية قتله بعض المماليك غيلة في مصر.
صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٧١ - ٧٢.
الزركلي: الاعلام، جـ ٢، ص ٣٢١.

(١) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٢٣.
(٢) المصدر نفسه، ص ٧١.
(٣) الأمير علم الدين سنجر الشجاعي: كان أحد كبار الأمراء في مصر، وعندما تولى الملك الأشرف خليل بن قلاوون السلطنة عيَّنه نائباً على الشام وتسلَّم صيدا سنة ١٢٩١/٦٩٠ ثم دخل بيروت فاتحاً بدون قتال. وقد وشى الأمير سنجر على أمير الغرب زين الدين صالح بن علي وسيطر على أملاكه.
صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٢٣ و٢٤ و٧١ و٧٢.
ابن طولون: أعلام الورى، ص ٩.
(٤) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٢٣.
(٥) المصدر نفسه، ص ٢٤.

والجبال المحيطة بها، وأغلبهم من الموارنة، إلى قبرص، فلا نستغرب إن وجدنا في يومنا هذا أحفاد هؤلاء الموارنة في جزيرة قبرص، حيث لهم فيها أسقفاً ومقعداً نيابياً خاصاً بهم)[1].

والواقع أن فتوحات الملك الأشرف خليل بن قلاوون، لعكار وعتليت وحيفا والاسكندرونة وصور وصيدا وبيروت وجبيل وأنفه والبترون وصرفند، استغرقت ٤٧ يوماً. وقد أمر الملك الأشرف بهدم هذه المدن جميعاً، بعد أن دخلتها جيوش المسلمين.

وعلى هذا الأساس هدم الأمير سنجر الشجاعي سور بيروت وقلعتها المحكمة البناء، فالمماليك كانوا يحرصون على تدمير التحصينات الساحلية حتى لا يعاود الصليبيون الأستيلاء عليها، والتحصن فيها من جديد، بعد أن فروا إلى جزيرتي قبرص[2] ورودس.

وهكذا انتهى حكم أسرة دي ابلن الصليبية، بعد أن دخلت بيروت نهائياً تحت حكم المماليك والذي استمر طويلاً، لمدة قرنين وربع قرن (٦٩٠ - ٩٢٢ / ١٢٩١ - ١٥١٦).

٣ - بيروت تتبع نيابة دمشق ويتولاها أمير طبلخاناه:

قسم المماليك بلاد الشام إلى ستة أقسام تدعى نيابات، وتخضع للحكومة المركزية في القاهرة[3]، وهي نيابة دمشق ونيابة حلب ونيابة طرابلس ونيابة حماه ونيابة صفد ونيابة الكرك. وكانت بيروت، شأنها في ذلك شأن صيدا والبقاع، تابعة لنيابة دمشق[4]. وكان والي بيروت يتولى منصبه بموجب توقيع بولايته يصدر عن نائب السلطنة بدمشق، الذي يعتبر من أهم نواب السلطان، لأن نيابة دمشق كانت كبرى نيابات الشام في عصر المماليك، وقد أطلق عليها القلقشندي اسم «نيابة الشام» أو «مملكة الشام»[5]. وكان يتولى بيروت حاكم برتبة طبلخاناه[6]، والعادة أن يجري الاحتفال بتقليده أمرية

(١) محمد طه الولي: تاريخ المساجد، ص ٨٠.
(٢) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٢٤.
(٣) سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ٣٠٤.
(٤) المرجع نفسه، ص ٣٠٧.
(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ١٢، ص ٦.
(٦) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٣٦ و٧٨ و٧٩.

الطبلخاناه في دمشق.

وقد سميت الأشرفية (من ضواحي بيروت في ذلك الوقت)، نسبة إلى الملك الأشرف خليل سنة ٦٩٠ / ١٢٩١[١]. وأول من تولى حكم بيروت وصيدا في بداية حكم المماليك، والٍ يقال له الدمياطي[٢]، ويبدو من اسمه أنه ينتسب إلى مدينة دمياط التي كانت على اتصال وثيق بصيدا في العصر الإسلامي. وفي أواخر حكم المماليك، تولى بيروت وصيدا الأمير عساف الحبشي[٣]، زمن السلطان محمد بن قايتباي، وكان من مشاهير الولاة، قتل سنة ٩٠١ / ١٤٩٥.

ويذكر صالح بن يحيى أسماء كثيرة تولت حكم بيروت، ويبدو أن الغموض يكتنف هذه الأسماء ومنها: دولت يار السنجاري، وعرس الدين، وأرغون (تسمى الكثير من أمراء المماليك بهذا الاسم)، وناصر الدين محمد بن سويدان البيدمري، والأمير عز الدين صدقة[٤].

٤ ـ أمراء الغرب يتولون أمر الدفاع عن بيروت منذ سنة ٦٩٣ / ١٢٩٤:

وكان التنوخيون (آل بحتر) أمراء الغرب، يعهد إليهم أمر الدفاع عن بيروت وسواحلها. ولكنهم كانوا يتأرجحون بين الولاء للصليبيين حيناً وللمسلمين أحياناً، وبين الولاء للمماليك من ناحية وخصومهم من أيوبيين وتتار من ناحية أخرى. وقد أدى ذلك إلى اضطهاد المماليك لهم بعد دخولهم بيروت وتحرير المدن الإسلامية من الصليبيين. وسرعان ما أدرك البحتريون عاقبة عنادهم، فعادوا إلى الولاء لدولة المماليك الذين عهدوا إليهم بحراسة بيروت وشواطئها سنة ٦٩٠ / ١٢٩١[٥].

أما التنوخيون (الأرسلانيون) ومركزهم قرب بيروت، فكانوا موالين للمماليك واشتهروا بمواقفهم ضد الصليبيين الأمر الذي جعلهم يظفرون برضاء سلاطين المماليك[٦].

---

(١) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ٢، ص ٦٩.
(٢) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٠٤.
(٣) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة صيدا، ص ١٦١ ـ ١٦٢.
(٤) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٨٠ و٢١٢ و٢١٣ و٢١٤ و٢١٩ و٢٤٨.
(٥) سعيد عاشور: مصر والشام، ص ٣١٦.
(٦) المرجع نفسه، ص ٣١٧.

وأثناء حكم التنوخيين، تمتع الغرب، بيروت والسفوح المجاورة لها وتمتد جنوباً حتى أعالي الدامور، بالاستقلال الداخلي، وجعلوا من بيروت مرفأ لمدينة دمشق. ومنذ سنة ٦٩٣ / ١٢٩٤، أخذ التنوخيون أمراء الغرب على عاتقهم أمر الدفاع عن بيروت، فأمَّنوا لها ٩٠ فارساً، يقيم منهم ثلاثون فارساً في بيروت ويبدلون كل شهر بثلاثين آخرين[١]. وفيها يقول أحد الشعراء[٢] زمن أمير الغرب ناصر الدين الحسين[٣]:

أيا بن أمير الغرب شرقاً ومغرباً ... ومن كل عرف غير عرفهم نكر
بإحسانك المشهور بيروت بلدة على ... الساحل المعمور صار لها ذكر
وكان عليها الكفر والشرك دايما ... فمذ حلَّها مولاي عاد لها الفخر
هو الناصر المعروف بالجود والتقى ... له الفضل والإحسان والعطف والبر

وعندما يحتاج سلطان المماليك إلى قوة عسكرية تسانده، يطلب المساعدة من الولاة والأمراء بعد أن يرسل إليهم المراسيم. فأثناء حملة الكرك فرضوا على بيروت وصيدا أن تقدم كل منها مائتي وخمسين رجلاً[٤]، توجه لهم أمير الغرب ناصر الدين حسين سنة ٧٤٣ / ١٣٤٣ إلى دمشق[٥]، ومنها إلى قلعة الكرك، وأثناء حصار دمشق طلب السلطان برقوق، بمرسوم إلى أمراء الغرب ومتولي بيروت دولت يار السنجاري، يستدعيهم بالحضور إليه[٦] لمساعدته، كما طلب أن يجلبوا معهم رصاص منجنيق والنجارين من بيروت، فتوجهوا جميعاً إليه.

وإذا رفض متولي بيروت مساعدة السلطان بتقديم الرجال والسلاح، فإن السلطان يرسل مرسومه إلى أمراء الغرب بالقبض عليه أو جلبه معهم بالقوة.

---

(١) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٣٧.
(٢) المصدر نفسه، ص ٣٨.
(٣) ناصر الدين الحسين بن سعد الدين خضر بن نجم الدين محمد أمير الغرب:
حكم في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ونائبه بالشام الأمير تنكز، وقد اشتهر ذكره ومدحه الشعراء. وفي أيامه نزل الفرنج على الدامور سنة ٧٠٢ هـ وقتلوا عبد الحميد وأسروا أخاه شمس الدين وهما ولدا جمال الدين حجي بن محمد. وسنة ٧٠٥ هـ فتح ناصر الدين كسروان بعد أن قتل الكثيرين من سكانها.
المصدر نفسه، ص ٨٢ ـ ١٣٥.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٠٠.
(٥) المصدر نفسه، ص ١٠١.
(٦) المصدر نفسه، ص ٢١٢ ـ ٢١٣.

وكذلك كان يرسل مرسومه إلى متولي بيروت إن امتنع أمراء الغرب عن الحضور (١) .

وعندما هاجم تيمورلنك بلاد الشام سنة ٨٠٣ / ١٤٠٠ ، استعد السلطان الناصر فرج بن برقوق (٢) لمحاربته ، وتوجه إلى دمشق ، بعد أن أرسل مرسومه إلى بيروت وصيدا والبقاع بإرسال العسكر إلى دمشق (٣) . فتوجه أمراء الغرب ومعهم متولي بيروت ناصر الدين محمد بن سويدان البيدمري ، لكنهم وصلوا بعد أن حلّت الهزيمة بالسلطان فرج ، وبعد أن نهب تيمورلنك دمشق وأحرقها . وكان نائب الشام يتدخل لحسم الخلاف أحياناً بين متولي بيروت وأمير الغرب ، كما يطلب من متولي بيروت أن يطيع أوامر أمير الغرب ، وأن لا يسيء إليه (٤) . وفي غالب الأحيان كانت العلاقات جيدة بينهما ، فيحضر متولي بيروت الحفلات والأعراس التي يقيمها أمراء الغرب (٥) .

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت، ص ٢١٢ - ٢١٣ .
(٢) الناصر فرج بن برقوق (٧٩١ - ٨١٥/ ١٣٨٩ - ١٤١٢). أبو السعادات، زين الدين: من ملوك الجراكسة، بمصر والشام. بويع بالقاهرة سنة ٨٠١ هـ بعد وفاة أبيه. عندما خلع عن الحكم، سجن في قلعة دمشق ثم أثبت عليه الكفر وقتل.
الزركلي: الاعلام، جـ ٥، ص ١٤٠ .
(٣) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٢١٨ - ٢١٩ .
(٤) المصدر نفسه، ص ١٨٠ .
(٥) المصدر نفسه، ص ١٨٧ .

الفصل الثاني

غارات أسطول جنوى الايطالية على بيروت
(٦٩٨ - ٨٠٦ / ١٢٩٩ - ١٤٠٣)

كانت انتصارات المماليك ضربة قاضية على الصليبيين، ومع ذلك توهّم بعضهم إمكانية العودة إلى بيروت، فأصيبوا بالخيبة والفشل، ورجعوا مهزومين، أمام دفاع المسلمين عنها بقوة لم يعهدوا مثلها من قبل . وكان صاحب بيروت في إحدى السفن الست التي حضرت إلى بيروت بعد تحريرها من حكمه(١).

١ - إغارة سنة ٦٩٨ / ١٢٩٩ :

ويذكر صالح بن يحيى، أنه في سنة ٦٩٨ / ١٢٩٩ : «وصل إلى بيروت مراكب كثيرة وبطس للفرنج ، فيها جماعة كثيرة من المقاتلة، يقال إن البطس كانت ثلاثين بطسة في كل بطسة منها نحو سبعماية ، وقصدوا أن يطلعوا من مراكبهم إلى البر ويحصل غارتهم على بلاد الساحل ، فلما قربوا من البر أرسل الله عليهم ريحاً مختلفة فغرقت بعض هذه السفن ، وتكسَّر بعضها ، ورجع من سلم منهم على أسوأ حال ، وكفى الله شرهم » (٢) .

والواقع أن الحروب الصليبية توقفت في سنة ٦٩٩ / ١٣٠٠ ، وتحول الأمر إلى غارات وقرصنة بحرية قام بها أسطول جنوى الإيطالية ، وهدفه بيروت ، التي كانت له بالمرصاد .

٢ - إغارة سنة ٧٣٤ / ١٣٣٣ :

تمادى الفرنج في إغاراتهم، فنزلت سفن جنوى الايطالية في بيروت يوم عيد

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت، ص ٧٢ .
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٦ .

الأضحى سنة ٧٣٤ / ١٣٣٣ ، زمن ولاية عز الدين البيسري[1] من قبل تنكز نائب الشام. وحاول المسلمون منع الغزاة من دخول الميناء، فقاتلوا قتالاً شديداً لمدة يومين. وتمكن الجنويون من دخول الميناء، وأخذوا المراكب والأعلام السلطانية من البرج. وانهزم المسلمون في هذه المعركة التي أدَّت إلى قتل وجرح العديد من الجنود والرجال والأمراء[2]. ويرجع سبب الهزيمة، إلى تقاعس أمراء الغرب وتركمان كسروان، في مؤازرة مسلمي بيروت أثناء القتال، وقد عوقبوا على إهمالهم وتقاعسهم بعد استدعائهم إلى دمشق[3].

٣ ـ فشل أسطول جنوى في احتلال بيروت سنة ٧٨٤ / ١٣٨٢ :

يبدو أن الفرنج في جنوى الايطالية طمعوا في احتلال بيروت، لذلك حضروا إليها ثانية سنة ٧٨٤ / ١٣٨٢ ، بعد أن دخلوا صيدا. لكن المسلمين هذه المرة تضافروا على ردهم، وحضرت العساكر الشامية إلى بيروت[4]. فغيَّرت السفن الجنوية طريقها نحو جزيرة قبرص، تحاول خداع المسلمين، وعادت العساكر الشامية إلى دمشق، بعد أن تركت في بيروت، فرقة بقيادة جمال الدين الهداني، وهو مقدم ألف. وبعد أيام قليلة، عادت السفن الجنوية تريد احتلال بيروت، وكان عددها ١٢ سفينة، فدخلت الميناء. وكان المسلمون ينتظرون قدومهم، فقاتلوهم بضراوة، وعندما نزل الجنويون من المراكب، وصعد بعضهم إلى قلعة بيروت القديمة، ليرفعوا رايتهم بالنصر، هجم بعض الشجعان المسلمين، بقيادة الأمير سيف الدين يحيى[5]، على قلعة بيروت، ونزعوا راية

---

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ٩٧ .

(٢) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت، ص ٩٧.
اسطفان الدويهي : تاريخ الأزمنة، ص ٣٠٤.

(٣) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت، ص ٩٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣١.

(٥) الأمير سيف الدين يحيى بن زين الدين صالح بن ناصر الدين الحسين أمير الغرب: عمَّر القاعة المعروفة به بعبيه ورخَّمها وأجرى إليها الماء ثم جدَّد عمارة إيوان عبيه ثم عمَّر إيوان بيروت وأجرى الماء إلى حارة بيروت، وكان مدخوله أحياناً أربعين رطل حرير من ملكه ورغم ذلك كثرت عليه الديون وحج إلى بيت الله الحرام فتكلف أموالاً وهدايا لنائب الشام والأمراء. والأمير سيف الدين بن يحيى هو والد صالح بن يحيى صاحب كتاب «تاريخ بيروت» وقد ذكره في كتابه باسم الوالد في مواضع كثيرة كما يذكر اسم أخ له يدعى فخر الدين عثمان وقد أبلى بلاء حسناً في قتاله الفرنج الذين هاجموا بيروت بحراً سنة ٧٨٤ / ١٣٨٢ حتى نسب =

الفرنج منها[1]، مما ألقى الرعب في قلوب الفرنج الذين فروا إلى المراكب يتعقبهم المسلمون، وقد غرق الكثيرون منهم في البحر، ولم يستطيعوا السباحة بسبب ثقل اللباس الذي يرتدونه. وقطع رأس المقاتل الفرنجي الذي حاول رفع الراية في القلعة[2].

وقد استشهد بعض المسلمين وجرح آخرون. وكانت العساكر الشامية بقيادة بيدمر نائب الشام، قد وصلت بيروت بعد انتهاء القتال، وفرار السفن نحو جزيرة قبرص[3]، فلم تتمكَّن من تقديم المساعدة.

وهذا يدل على أن نائب السلطنة في دمشق كان يهب لنجدة المسلمين في بيروت ، إذا ما تعرضوا لهجوم الفرنج من جهة البحر ، فضلاً عن المساعدة التي يوفرها لهم أمراء الغرب وتركمان كسروان أيضاً ، وهم الأقرب مسافة إذ ما وقع القتال.

٤ ـ إغارة سنة ٨٠٦ / ١٤٠٣ :

حاول الجنويون احتلال طرابلس ففشلوا. ثم توجهوا إلى بيروت في ٢٠ محرم سنة ٨٠٦ / ١٤٠٣ ، وكان الأسطول الجنوي يتألف من ستة وأربعين مركباً بقيادة أمير البحر بوسيكو الفرنسي. والحقيقة أن أهل بيروت امتلكهم الرعب مما أوقع البلبلة في صفوفهم، خاصة عندما انتشرت الشائعة عن ضخامة الحملة، فقيل إنها تضم سفناً كبيرة تحمل سبعمائة فرس. فالتجأ أهل بيروت إلى الجبال بعد ترحيل الأطفال والنساء وحمل الأمتعة. وبقي في المدينة أمراء الغرب، والمقاتلون من أهل بيروت الذين لم يغادروها. ونزل الجنويون من المراكب إلى البر، في مكان يسمى الصنبطية ـ غرب بيروت ـ في

= النصر في المعركة إليه. ويبدو أن هذا الأمر أوغر صدر نائب الشام ضده فاتهمه بالوقوف إلى جانب الفرنج ضد المسلمين بدلاً من أن ينعم عليه لقاء أعماله البطولية، ثم صادر بيدمر أملاك الأمير سيف الدين يحيى مرتين. وقد مدحه شمس الدين بن الجزري عندما حضر إلى بيروت بقوله:

ولما دخلنا ثغر بيروت لم نجد ... به غير يحيى للمكارم رائدا
نسينا به فضل بن يحيى بن خالد ... فلا زال يحيى في المكارم خالدا

صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٩٢ ـ ١٩٧.

(١) المصدر نفسه، ص ١٩٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٢ و١٩٥.

الساعة الرابعة صباحاً، واحتلوا بيروت حتى العصر[1]. وقد قام بعض المسلمين الذين لم يغادروا المدينة، بعمليات فدائية بطولية، ضد الجنويين في أزقة بيروت، وقتلوا بعض الأعداء، كما استشهد منهم ثلاثة[2]، ومع ذلك نهب الجنويون بيروت، وأحرقوا دار أمراء الغرب، والسوق القريبة من الميناء، ثم رجعوا إلى مراكبهم.

ثم حاول الأسطول الجنوي مهاجمة صيدا، لكن المسلمين اجتمعوا هذه المرة بعد أن وصلت النجدة من دمشق، فابتعد الأسطول عن صيدا، وتوجه إلى جهة بيروت قاصداً نهر الكلب ليتزوَّد بالماء. ثم عاد إلى بلاده قبل أن يلحق به أمير دمشق سودون الظريف[3]. وهكذا نلاحظ أن بيروت كانت تتعرض للاحتلال والهزيمة، إذا لم ينجدها أمراء الغرب وتركمان كسروان، وخاصة أمير دمشق، في حين تنتصر بوصول مثل هذه النجدات. وقد طلب أمير دمشق سودون الظريف من متولي بيروت أن يقطع رؤوس قتلى الفرنج، وأن يعمِّر على أبدانهم مسطبة على باب بيروت، ويكتب عليها اسم ملك الأمراء (أي اسمه هو سودون الظريف)، وجهَّز الرؤوس إلى دمشق ثم إلى مصر. وهنا تضايق المسلمون في بيروت، وهم الذين قتلوا الفرنج، فوجدوا أن المسطبة تنسب إلى غيرهم، فهدموها ليلاً، وأحرقوا ما كان بها من جثث الفرنج[4].

(١) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٣٢ - ٣٣.
محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٢، ص ٧٧.
(٢) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٣٣.
(٣) سودون الظاهري برقوق، ويعرف بسودون الظريف: ولي نيابة الكرك سنة ١٣٩٩/٨٠١ في آخر سلطنة الملك الظاهر برقوق، ثم عيَّنه الناصر فرج بن برقوق حاجباً بدمشق. قتل في آخر سلطنة المؤيد شيخ سنة ١٤٢١/٨٢٤.
السخاوي: الضوء اللامع، جـ ٣، ص ٢٨٢.
صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٣٣ - ٣٤.
(٤) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٣٤.

الفصل الثالث

بيروت مركز الدفاع عن الساحل الإسلامي
وقاعدة لغزو جزيرة قبرص

كان الموارنة، الذين هاجروا إلى قبرص خوفاً من المماليك، يؤلبون الحكم في قبرص للانتقام من المماليك. فأغار ملك قبرص بيار دي لوزينيان على مدينة الاسكندرية سنة ٧٦٣ / ١٣٦١ وأمعن في السلب والنهب[1] والقتل، مما ألقى الرعب في المدن الساحلية وخاصة بيروت، من احتمال عودة الصليبيين بعد اتفاقهم مع نصارى جبل لبنان لاسترجاع الأراضي المقدسة. لذلك أرسل الأمير يلبغا العمري[2]، إلى بيروت، الأمير بيدمر الخوارزمي[3] لكي يحصِّن المدينة، ويبني أسطولاً يحتل به جزيرة قبرص[4]، كما عزز أمراء الغرب، وتركمان كسروان، مواقعهم في بيروت.

(١) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٧٨.
(٢) الأمير الكبير يلبغا بن عبد الله الخاصكي الناصري: أحد كبار الأمراء بمصر في سلطنة الناصر حسن. وسعى لقتل الناصر حسن وسلطنة المنصور محمد مكانه كما سعى لخلع المنصور وسلطنة الأشرف شعبان حتى قتل الأمير يلبغا سنة ١٣٦٦/٧٦٨ بأمر السلطان.
ابن حجر: الدرر الكامنة، جـ ٤، ص ٤٣٨ - ٤٤٠.
(٣) الأمير سيف الدين بيدمر الخوارزمي: تولى نيابة حلب في سنة ١٣٥٩/٧٦٠، ثم نقل في السنة التالية إلى نيابة دمشق واستمر فيها حتى سنة ١٣٨٦/٧٨٨، رغم أنه عزل عنها خمس مرات وتوفي مسجوناً في دمشق سنة ١٣٨٧/٧٨٩.
ابن حجر: الدرر الكامنة، جـ ١، ص ٥١٣ - ٥١٤.
ابن طولون: اعلام الورى، ص ٢٥ - ٢٩.
(٤) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٣٠ و١٧٩.

١ ـ تحصين بيروت (السور البحري، باب السلسلة، الأبراج...)

أظهرت حملات ملك قبرص، حاجة المماليك إلى تحصين السواحل، وخاصة مدينة بيروت، فجدد نائب السلطنة في دمشق الأمير بيدمر «سور بيروت على جانب البحر، أوله من عند الحارة التي لنا على البحر، واصلاً إلى تحت البرج الصغير العتيق عمارة تنكز[1] نايب الشام، وتعرف ببرج البعلبكية، وجعل بين آخر هذا السور وبين البرج المذكور باباً، وركب عليه سلسلة تمنع المراكب الصغار من الدخول والخروج، وسمي باب السلسلة»[2]. وكان هدف بيدمر تحصين دفاعات المدينة. وأقيم في بيروت برج سنة ٧٤٤ / ١٣٤٣، كما أقام السلطان برقوق[3] البرج الكبير[4] ببيروت، في الفترة الأولى من حكمه (٧٨٤ ـ ٧٩١ / ١٣٨٢ ـ ١٣٨٩). وهذا البرج الكبير بني على قاعدة برج من أبراج القلعة المهدمة.

وهكذا بنى نائب دمشق تنكز البرج الصغير، في حين أقام السلطان برقوق البرج الكبير. وقد أمر تنكز أن يكتب على حائط البرج الصغير[5]:

هذه معقل منيع رفيع ... بنيت بالسعود والاقبال
للمقر الشريف قد شيّدوها ... سيف آل النبي أكرم آل
تنكز البحر بالجود أجاج ... وهو عذب المذاق حلو زلال
طاهر الجيب ناصح العيب ... دامت أيامه لنا دوام الليالي
عمروها بعده زاده الله ... سعودا ورفعة وجلال

(١) سيف الدين تنكز، ناب في دمشق من سنة (٧١٢ ـ ١٣١٢/٧٤٠ ـ ١٣٤٠) وتوفي سنة ١٣٤١/٧٤١ وعمره يقرب من الستين.
ابن حجر: الدرر الكامنة، جـ ١، ص ٥٢٠ ـ ٥٢٧.
ابن طولون: اعلام الورى، ص ١٢ ـ ١٥.
(٢) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٣٦.
(٣) الظاهر برقوق (٧٣٨ ـ ٨٠١ / ١٣٣٨ ـ ١٣٩٨): هو برقوق بن أنس العثماني، سيف الدين الملك الظاهر، أول من ملك مصر من الشراكسة. انتزع الحكم من الصالح القلاووني سنة ٧٩٢ / ١٣٩٠ وتوفي بالقاهرة.
الزركلي: الاعلام، جـ ٢، ص ٤٨.
(٤) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٣٧.
(٥) المصدر نفسه، ص ١١٣ و١١٤.

يبقى سلطانه ملك البرايا ... أعني الناصر العديم المثال

كما بنى تنكز في بيروت خاناً وحماماً[1]، وقد أمر بأن تعلّق على باب الخان وعلى باب الحمام، أبيات شعر تتغنّى به وبالسلطان، على غرار ما فعله على حائط البرج الصغير.

٢ ـ محاولة بناء أسطول بحري في بيروت (٧٦٧ ـ ٧٦٨ / ١٣٦٥ ـ ١٣٦٦):

أكدت الحروب مع الفرنج الحاجة إلى بناء أسطول بحري يغزو به المسلمون جزيرة قبرص، التي أصبحت وكراً لمهاجمة المسلمين في بيروت. وعلى هذا الأساس أرسل الأمير يلبغا، نائب دمشق الأمير بيدمر الخوارزمي، لبناء أسطول بحري[2]. فحضر إلى بيروت سنة ٧٦٧ / ١٣٦٥، ومعه كثير من الصنّاع من مختلف المناطق في مصر والشام. وبنى الأمير بيدمر مسطبة في ضاحية بيروت، (لعل مكان المسطبة الآن هو منطقة المصيطبة في بيروت)، وقد خصصها لصناعة السفن التي اعتمد فيها على خشب الصنوبر من حرج بيروت[3].

ولما توفي يلبغا العمري سنة ٧٦٨ / ١٣٦٦، توقف العمل في بناء السفن، ولم ينزل منها إلى البحر سوى سفينتين كبيرتين، اسم الأولى سنقر، والثانية قراجا. ثم تركت السفينتان في ساحة بيروت حتى تلفتا. وكذلك تلفت بقية السفن التي لم تنزل إلى البحر تحت المسطبة المذكورة. ولم ينجح العمل في بناء الأسطول لاحتلال جزيرة قبرص[4]، وذهبت الأموال الكثيرة التي صرفت على بناء السفن هباء.

٣ ـ حملة المماليك ضد الموارنة سنة ٧٦٩ / ١٣٦٧:

جهّز سلطان المماليك في القاهرة، حملة سنة ٧٦٩ / ١٣٦٧ للاقتصاص من النصارى، الذين وقفوا إلى جانب ملك قبرص. فاجتاح الجبل، وأغار على مقر البطريرك الماروني جبرائيل الحجولي، الذي نفذ فيه حكم الاعدام، وهرب كثير من الأساقفة

(١) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١١٤.
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٩ ـ ٣٠.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٠.
(٤) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٣٠ و١٧٩.
اسطفان الدويهي: تاريخ الأزمنة، ص ٣١١ و٣٢٣.

الموارنة إلى قبرص[1]. وتحول الاهتمام إلى غزو جزيرة قبرص نفسها، بعد إجبار الموارنة على الإخلاد إلى السكينة وعدم مجابهة المماليك.

٤ - بيروت قاعدة لغزو جزيرة قبرص واحتلالها (٨٢٧ - ٨٢٩ / ١٤٢٤ - ١٤٢٦) :

استمرت المحاولات لغزو جزيرة قبرص، ذلك أن صاحب قبرص كان يظهر مصالحته للمسلمين، وهو في الحقيقة متواطىء مع قراصنة الفرنج، الذين يغيرون على السواحل الإسلامية. وأصبحت بيروت هي الميناء الذي تتوجه منه مراكب المسلمين لغزو قبرص، ففي رمضان سنة ٨٢٧ / ١٤٢٤، أقلعت من بيروت خمس أغربة[2]، ثلاثة من دمياط في مصر، بكل واحد مائة وثمانين مجدافاً، وغراب صغير من بيروت، وآخر من طرابلس، بكل منها دون المائة مجداف، ومعهم ثلاثة أمراء من مصر وأمير من كل من بيروت وطرابلس. وتوجهت السفن الخمس إلى قبرص، ثم عادت بسبب قوة الرياح. ثم أعادت هذه السفن الكرَّة في شوال سنة ٨٢٧ / ١٤٢٤، واحتلت بالمسون (ليماسول) من ثغور قبرص، وأسرت ٢٥ رجلاً وامرأة وطفلاً[3]. وفي سنة ٨٢٨ / ١٤٢٥، أشرف السلطان برسباي [4] على بناء أربع سفن كبيرة (حمالات)[5]، كما بنى عدة أغربة كباراً وصغاراً. كذلك أمر ببناء حمالة ببيروت لعسكر الشام، وغرابين أحدهما بثمانين مجدافاً والثاني بأربعين، مع غراب عتيق كان ببيروت قبل ذلك. وتم بناء حمالة بطرابلس مع

(١) اسطفان الدويهي: تاريخ الأزمنة، ص ٣١٢.
يوسف داغر: بطاركة الموارنة، ص ٣٧ - ٣٨.

(٢) الأغربة: مفردها غراب، سميت كذلك لأن رأسها يشبه رأس الغراب وكان لها قلوع بيضاء. وكان يسير بعدد من المجاذيف تبلغ مائة وثمانين مجدافاً، كما كان مزوداً بجسر من الخشب يهبط على مركب العدو ويمر عليه الجنود للقتال بالأساليب البرية.
سعيد عاشور: مصر والشام، ص ٢٩٣.
العبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص ١٣٢.

(٣) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٢٤٢.

(٤) الأشرف برسباي (٧٦٦ - ٨٤١/١٣٦٥ - ١٤٣٨): أبو النصر، برسباي الدقماقي الظاهري، جركسي الأصل، صاحب مصر، لقب بالملك الأشرف بعد استيلائه على الحكم سنة ٨٢٤ هـ. هدأت البلاد في أيامه وفتح قبرص وأسر ملكها. توفي بالقاهرة.
الزركلي: الاعلام، جـ ٢، ص ٤٨.

(٥) الحمالات: تعرف بالمسطحات (مفردها مسطح)، وهي مراكب ضخمة تحمل الأسلحة للأسطول.
العبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص ١٣٦.

الغراب الذي كان فيها. واجتمع أمراء الحملة في بيروت، بعد أن تألف الأسطول الإسلامي من «ست حمالات وعشرة أغربة كبار وصغار وستة مراكب قراقير ومركبين مخروط كبار واثني عشر زورقاً وست بنوق صغار فكانوا أربعين قلاعاً».

وكان الأمير صالح بن يحيى[1] صاحب كتاب تاريخ بيروت، على رأس الغراب العتيق الذي بني في بيروت سابقاً، وقد ذكره بقوله: «وكان هذا الغراب من أحسن الأغربة مشياً، وكان معي قريب من مائة رجل بحرية ومقاتلة»[2].

واتجهت السفن نحو قبرص، ونزلت قرب (الماغوصة)[3] وفي مكان آخر يسمى رأس العجوز، وشن المسلمون الغارات ونهبوا وسلبوا، ثم تعقبوا أسطول صاحب قبرص، ويتألف من اثنتي عشرة سفينة، ثم وقعت المعركة بين الفريقين بعد نزولهما البر والبحر، وهزم المسلمون القبارصة، وكانوا بإمرة البرنس كنداسطبل، أخي ملك قبرص، وكان معه سبعماية فارس وثمانية آلاف من المشاة[4]، وأسر المسلمون حوالي سبعماية أسير. وهكذا انتصر المسلمون في قبرص، وعادت سفنهم إلى دمياط في مصر[5]. ثم أقيم احتفال شعبي كبير لهم في القاهرة، وقد أنعم السلطان برسباي، على الأمير صالح بن يحيى، بمائتي دينار ذهب وخلعة. كما استضافه الدوادار الأمير أركماس، وأنزله عنده في بيته، حتى عودته إلى بيروت [6]، وقد أهداه حجرة عربية، وقباء سنجاب من ملابسه.

وفي سنة ٨٢٩ / ١٤٢٦، أمر السلطان برسباي ببناء سفينتين في بيروت، على أن

(١) صالح بن يحيى (ت ٨٥٠/١٤٤٦): صالح بن يحيى بن صالح بن الحسين التنوخي، من بني أمير الغرب: مؤرخ كان له علم بالنجوم والاسطرلاب من أهل بيروت. كان في أواسط القرن التاسع للهجرة. له كتاب «تاريخ بيروت» كتبه بلغة أقرب إلى العامية ويظهر أنه كان قائداً بحرياً، فقد ذكر في كتابه أنه كان مقدماً على سفينة ذهبت مع سفن أخرى مشحونة بالرجال لغزو قبرص سنة ٨٢٨ هـ، وذكر أنه قام برحلة أخرى من نوعها سنة ٨٢٩ هـ. ووصفه المؤرخ ابن سباط بأنه «صاحب الغزوات» وله كتاب في «سيرة الإمام الأوزاعي».
الزركلي: الاعلام، جـ ٣، ص ١٩٨.

(٢) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٢٤٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٤٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٤٦.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٤٧.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٤٥ - ٢٤٧.

تحضرا إلى مصر وتنضما إلى الأسطول المصري لغزو قبرص مباشرة هذه المرة دون المرور على موانىء الشام أو بيروت ، كما حدث في المرتين السابقتين . وأمر السلطان أن يشرف على بنائها ، شعبان اليغموري ، وهو أحد الحجاب بدمشق . وقد تم بناؤهما على وجه السرعة، وأرسلتا إلى دمياط وفيها ثلاثمائة رجل[1]، لتواكب الأسطول المصري في غزووقبرص. لكن السفينتين الكبيرتين اللتين غادرتا بيروت تأخرتا في الوصول إلى دمياط بسبب الريح، ولم تشاركا في غزو قبرص.

وقد كان الأمير صالح بن يحيى البيروتي على رأس إحدى الحمالتين التي صنعت في بيروت، واتجهت إلى مصر للانضمام إلى الحملة، ولكن بسبب الريح اضظر للبقاء في مصر لإصلاحها، بعد أن صرف من عليها من المجاهدين[2].

وهكذا لم تشارك سفن بيروت هذه المرة في غزو قبرص، التي احتلها السلطان الأشرف برسباي، وأسر ملكها جانوس ومعه ألوف الأسرى. وكان الأمير صالح بن يحيى البيروتي في القاهرة بعد أن فاته الحظ في الاشتراك في الحملة، لكنه شهد الاحتفال الذي أقامته القاهرة بعد عودة الحملة[3]. وكذلك قام المماليك بحملات على جزيرة رودس في الفترة (٨٤٣ - ٨٤٧/ ١٤٤٠ - ١٤٤٤) ومنها حملة سنة ٨٤٦/١٤٤٣، التي أقلعت من دمياط واتجهت إلى بيروت[4] وطرابلس ، حيث انضمت إليها القوات الشامية . ولكن هذه الحملات لم تحقق فتح رودس كما حصل في قبرص .

وهكذا أصبح ثغر بيروت مركزاً للدفاع عن بيروت والساحل من جهة، ونقطة انطلاق لغزو قبرص ورودس وتعقب القراصنة الفرنج من جهة ثانية. وقد ذكر أمير الغرب ناصر الدين ثغر بيروت بقوله:

حميت لثغر بيروت بعزم   وأمنت السواحل لن تزولا .

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت، ص ٢٤٩ .
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٠ .
(٣) المصدر نفسه، ص ٢٥١ .
(٤) العبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص ٣٣٦ - ٣٤٠ .

الفصل الرابع

ازدهار بيروت زمن المماليك

أدرك المماليك أهمية بيروت بعد تحريرها من الصليبيين، فعمدوا الى تحصينها وربطها بدمشق بواسطة البريد، وسكن أمراء الغرب فيها لحمايتها والدفاع عنها. كما نشط أهلها المسلمون في بناء المساجد، فكانت داراً للإسلام. وأصبح مرفأ بيروت الميناء الرئيسي لبلاد الشام .

١ - إنشاء البريد بين بيروت - دمشق :

ولتقوية العمليات الدفاعية وربط بيروت بدمشق، أنشأ المماليك البريد بين بيروت ودمشق، ومهمته نقل الأخبار على وجه السرعة، وجعلوا له محطات في الحصين (بين عاليه وبحمدون)، وفي قرية زبدل (في البقاع)، وفي خان ميسلون (في وادي الحرير)، ومنها إلى دمشق[1].

كما استعملوا الحمام الزاجل، لنقل الأخبار في النهار[2]، بين بيروت ودمشق وبين بيروت وصيدا[3]. أما في الليل، فكانوا يشعلون النار في مكان في ظاهر بيروت، فتجاوبها نار في رأس بيروت العتيقة (وهو موقع دير القلعة خارج قرية بيت مري من المتن الشمالي)، ومنه إلى جبل بوارش (جبل الكنيسة وتقع على سفحه قرية بوارج وكانت تعرف ببوارش)، ومنه إلى جبل يبوس (في سلسلة جبال لبنان الشرقية)، ومنه إلى جبل

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت، ص ٣٥ .
(٢) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت، ص ٣٥ .
اسطفان الدويهي : تاريخ الأزمنة، ص ٢٧٦ .
(٣) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ صيدا، ص ١٦٣ .

الصالحية (جبل قاسيون المطل على دمشق)، ومنه إلى قلعة دمشق[1]، حيث يصل الخبر. فعندما هاجمت السفن الجنوية بيروت سنة ٨٠٦ / ١٤٠٣، أشعل المسلمون النار، إشارة لوصول الفرنج إلى بيروت، فوصلت النار بالتدريج في تلك الليلة إلى دمشق. وعلى الفور حضر نائب الشام إلى بيروت ومعه عساكره، في عشية ذلك اليوم.

٢ ـ بيروت الميناء الرئيسي لبلاد الشام:

أصبحت بيروت أيام المماليك، هي الميناء الرئيسي لبلاد الشام، وذلك بعد اضمحلال مدينة صيدا عمرانياً واقتصادياً في القرن الخامس عشر الميلادي، وعندما زار طافور مدن الساحل، لم يذكر اسم صيدا، بل ذكر بيروت والرملة ويافا وصور وعسقلان وعكا[2].

وهكذا كانت بيروت من أشهر الموانىء المملوكية على ساحل البحر المتوسط. وكانت جميع الموجبات الواردة والصادرة تؤخذ ببيروت، وكان على باب الميناء[3]، دواوين وعامل وناظر ومشارف وشاد، يجري تعيينهم من دمشق، وتدفع رواتبهم من مدخول الميناء، وكانت الأموال المتبقية ترسل إلى دمشق. وعندما ضعف حال ولاة بيروت، صار يؤخذ ثلثا المدخول، لمباشري الشام ومصر[4].

واجتمع في بيروت، تجار دمشق وحلب وحماه وبعلبك، حاملين معهم أنواع السلع المشرقية. وفيها تعددت المراكز التجارية الأوروبية وقنصلياتهم، وكثر مجيء الأجانب إليها بانتظام، لبعدها عن السلطة المركزية في القاهرة.

وكانت طرابلس هي الميناء الثاني بعد بيروت. أما صيدا وصور وعكا وحيفا، فقد كانت أقل أهمية من بيروت وطرابلس، وقد انحصرت شهرة تلك الموانىء بتصدير القطن بوجه عام.

وحاز الأجانب على فنادق في بيروت، حيث كانت تعقد الصفقات التجارية وتحزم البضائع ثم تنقل إلى البواخر. وقد جاء الفندق وكأنه قطعة من الوطن الأم، يتمتع فيه

---

(١) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٣٥.
(٢) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٣٢.
رحلة طافور، ص ٥٣.
(٣) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٣٥.
(٤) المصدر نفسه، ص ٣٦.

التاجر بكامل حريته، حتى أنه كان يسمح له بشرب الخمر في داخله. وكان القنصل يدير شؤون الفندق، ولم تتعد صلاحياته الحقل التجاري. أما الأمور الأمنية، فكانت من اختصاص رجال الأمن المحليين، كالولاة ومساعديهم مثل القاضي.

وأنشأ المماليك مؤسسات لتنشيط التجارة، وضعوها بتصرف التجار المسلمين، وعرفت بالوكالات والخانات والقيساريات. ونما عدد التجار الأوروبيين في بيروت التي أصبحت في القرن الخامس عشر الميلادي، «ملتقى شعوب البحر المتوسط وكنت تشاهد في بيروت مزيجاً يصعب وصفه من العمائم والطرابيش والكوفيات الحرير وأكسية وبرانس وقفاطين»[1].

وكان يتم استيراد القمح من مصر عن طريق ميناء بيروت[2]. وعندما حصل القحط بسبب الجراد، وارتفعت الأسعار وعمَّ الغلاء وكثرت المجاعات، توجه الأمير شرف الدين[3] إلى مصر، واشترى القمح، فخفَّف بذلك الأزمة الاقتصادية التي عاشها الناس[4]. وكانت بيروت تصدر الفاكهة والزيت والصابون إلى مصر.

ويبدو أن أمراء الغرب كانوا أحياناً يضمنون ميناء بيروت، فذكر صالح بن يحيى، أن الأمير عز الدين جواد[5] «ضمن ميناء بيروت وتكلم فيها مدة»[6].

---

(١) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٤، ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨.
(٢) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٩٦.
(٣) الأمير شرف الدين عيسى بن شهاب الدين أحمد بن زين الدين صالح بن الحسين: كان سيداً جليل القدر ينظم الشعر وقد مدح السلطان الملك الظاهر برقوق. وعندما قدم الملك المؤيد إلى دمشق وقبض على الأمير نوروز الحافظي الظاهري برقوق وكان من أصحاب الفتن قال الأمير شرف الدين قصيدة منها:

محوت لظلم كان نوروز سنَّه ... فليس بقي في الشام ظلم يعدًّا
سوى كشف بيروت وصيدا فإنه ... عليهم به ظلم عظيم مجددا

المصدر نفسه، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٩.
(٤) المصدر نفسه، ص ٢٠٨.
(٥) الأمير عز الدين جواد بن علم الدين سليمان: كان ذا معرفة وذكاء، ويشرف على زراعته في الشوف واشتهر بكتابة آية الكرسي على حبة أرز، كما صنع لتنكز نائب الشام، ندب نشاب ميداني من نواء الخرنوب وكان يرمي بقوس كبير وقوي.
المصدر نفسه، ص ١٧٢ ـ ١٧٥.
(٦) المصدر نفسه، ص ١٧٤.

وحتى المساجين السياسيين كان يقبض عليهم، ويرسلوهم عن طريق البحر إلى ميناء بيروت (١) . وبرز اسم نجم الدين كاتب الميناء (٢) وعز الدين عبد العزيز العسقلاني، محتسب بيروت (٣) .

وقد أدى ازدهار الميناء إلى وصف أهل بيروت بالغنى ووفرة المال (٤)

٣ ـ أمراء الغرب يسكنون بيروت (البناء والعمران):

كان الدمياطي أول من تولي بيروت وصيدا زمن المماليك، وقد أنشأ جسراً عند نهر الدمور، لربط صيدا ببيروت، بعد أن كان الناس يقاسون مشقة السفر. لكن هذا الجسر تهدم بعد سنتين من إنشائه(٥)، فقد جرفته السيول، ثم أعيد بناؤه زمن الأمير سيف الدين تنكز، فجرفته السيول مرة ثانية.

وكان يوجد سجن ببيروت(٦)، منذ أيام الاحتلال الصليبي. وقد اتخذ أمراء الغرب كنيسة شرقي بيروت داخل السور، وحوَّلوها منزلاً لهم، وكانت هذه الكنيسة تعرف بكنيسة افرنسيسك(٧). وكره الأمير ناصر الدين سكن الكنيسة لبعدها عن البحر، فاتخذ الحارة التي بقرب البحر، وبنى أطباقاً على الأقبية وأحاطها بسور ثم بنى مسجداً(٨). وبعد أن سكن الحارة الجديدة استملك الزقاق المعروف بزقاق الخيالة، وهو قريب من الحمام القديم(٩) الموجود في بيروت. وقال ناصر الدين في سكنه بيروت، حيث كان يزوره الأقارب:

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ٢٣٦ .
(٢) المصدر نفسه، ص ٢١٢ .
(٣) المصدر نفسه، ص ٢١٥ .
(٤) المصدر نفسه، ص ٥٧ .
(٥) المصدر نفسه ، ص ١٠٤ .
(٦) المصدر نفسه، ص ١٥٠ .
(٧) كنيسة افرنسيسك: نسبة إلى القديس فرنسيس الأسيِّسي (١١٨٢ ـ ١٢٢٦ م) الذي تزعم الفرنج. وكانت الكنيسة كبيرة تحولت فيما بعد إلى اسطبل وجعل على أعلاها أطباق ثم تهدمت وبنيت بحجارتها مدرسة لبني الحمرا بعد سنة ٨١٠ هـ .
المصدر نفسه، ص ١٠٦ .
(٨) المصدر نفسه، ص ١٠٧ .
(٩) المصدر نفسه، ص ١٠٧ .

وعـدت سـاكن بيـروت فـلا سقيت   مجـاور بحـرهـا في أسـوة حـالي(١).

وقد عمَّر أمير الغرب سيف الدين يحيى، إيوان بيروت، حاول ترميمه وزخرفته، كما جلب الماء إلى حارة بيروت(٢) المجاورة للبحر. وقد ورث ابنه الأمير فخر الدين عثمان(٣)، بيوتاً كثيرة في بيروت إضافة إلى تجارة الزيت والصابون والقماش(٤)، وحاول تكملة ما بدأه والده في ترخيم وزخرفة إيوان بيروت(٥)، فلم تسنح له الظروف بذلك. كما أنه لم يستطع إيفاء ديون أبيه، التي كثرت عليه، من جراء المشاريع التي قام بها في بيروت خلال إقامته بها.

اضطر أمراء الغرب إلى السكن أحياناً في بيروت، وحراستها ليلاً ونهاراً(٦)، لحمايتها من الخطر وللدفاع عنها ضد الفرنج. وهم في الحقيقة يفضلون سكن مناطقهم، غرب بيروت، لذلك أخذ الأمير ناصر الدين ينتقد بيروت، وأهلها وموظفيها، بعد أن سكنها. في حين مدح وأشاد بغرب بيروت، وخاصة عبيه. فذكر أحد ولاة بيروت ينتقده، كما هاجم ناظر بيروت بقوله (٧) :

يا ناظر استوقر في شدة الوهل   الله مجيب منه الظن والأمل
فأنت أخربت بيروت وساحلها   واعتديت على أهل السهل والجبل
فالأشرفية قد أخلت لجوركم   كذا المزارع والأقصاب والحلل

وهكذا ورد اسم الأشرفية(٨)، وبالغ الأمير ناصر الدين في التهجم على أهل بيروت عندما قال(٩):

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت، ص ١١٢ .
(٢) المصدر نفسه، ص ١٩٣ .
(٣) الأمير فخر الدين عثمان بن سيف الدين يحيى بن زين الدين صالح بن الحسين أمير الغرب (توفي الأربعاء ٢٠ محرم ٧٩٦ هـ): تولى الإمارة بعد وفاة أبيه سنة ٧٩٠ هـ وعمره ثمانية عشر سنة. وكان قد حج مع أبيه إلى بيت الله الحرام وحاول إيفاء ديون والده لكن لم يطل عمره حتى يكملها وتوفي سنة ٧٩٦ هـ وقيل كان عمره ٢٤ سنة.
المصدر نفسه ، ص ٢١١ ـ ٢١٧ .
(٤) المصدر نفسه، ص ٢١٤ .
(٥) المصدر نفسه، ص ٢١٦ .
(٦) المصدر نفسه، ص ١٧٩ .
(٧) المصدر نفسه، ص ١١٦ .
(٨) المصدر نفسه ، ص ١١٦ و١٣٣ و١٣٤ .
(٩) المصدر نفسه، ص ١١٧ .

متى أرى بيروت لا عمرت تحرث يوماً بالمحاريث
فما بها خير يراه الفتى إلا أفاعي أو براغيث
أو حاسد نذل قليل الحيا للشر مخلوق ومبعوث
فشيخهم أفسق من ظلمه وأولادهم جميعاً مخانيث
مقمل الله لهم ما أتا لقوم لوط وهو محثوث

وقال أيضاً يذم بيروت[1]:

بيروت بير لو شرب من مايه قس لأصبح الكنا جزاثا

في حين أفاض في مدح غرب بيروت وعبيه، ومن ذلك قوله[2]:

حيا الحيا غرب بيروت ومن فيه وجود كف بن سعد الدين يكفيه

كما قال[3]:

ما غرب بيروت إلا مشرق طلعت منه شموس الندى والسيف والقلم

وكما ذكرنا فإن المقام لم يطب للأمير ناصر الدين وغيره من أمراء الغرب في داخل بيروت، لما يتكبده من التعب[4] والاستعداد لهجوم الأعداء من البحر، في حين كانت إقامة أمراء الغرب في عبيه وغرب بيروت، تعطيهم فرصة أكبر للاحتماء من هجوم مفاجىء. فإن هو ذمَّ بيروت وأهلها، فما ذلك إلا مديح لها ولأهلها المرابطين في داخلها، يدافعون عنها ضد خطر الفرنج، الذين كانوا ينتهزون الفرص للانقضاض على بيروت.

وسكن بيروت بعض أهالي عبيه[5]، ويبدو أنهم أجبروا على تركها، وهم أقارب الأمير شجاع الدين[6].

(١) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١١٧.
(٢) المصدر نفسه، ص ١١٨.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٢.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٧٩.
(٥) المصدر نفسه، ص ١٥٣.
(٦) الأمير شجاع الدين عبد الرحمن بن جمال الدين حجي (ت ٧٤٩/١٣٤٧). كان كثير التلاوة للقرآن الكريم وله شعر في الزهد والورع كما مدحه الشعراء وقد سكن في عبيه وقد تزوج حسنات بنت الشيخ العلم ورزق منها حسين وثلاث بنات هن صالحة ومونه وزمرد وتوفيت زوجته فتزوج ثانية من شمسة بنت معضاد.
المصدر نفسه، ص ١٥١ - ١٥٦.

ومن الأمراء الذين ماتوا في بيروت الأمير علاء الدين علي[1]، وقد نقل جثمانه إلى عبيه سنة ٧٦٢ / ١٣٦٠، كما وقع الأمير شهاب الدين أحمد[4] عن فرسه بظاهر بيروت، فقتل على الفور، ونقل إلى عبيه سنة ٧٨٠ / ١٣٧٨. كما أن بهادر الاستادار[3]، تربَّى وهو صغير في بيروت[4]. وحضر إلى بيروت الشاعر شمس الدين بن الجزري، الذي مدح أمير الغرب سيف الدين يحيى والد صالح بن يحيى صاحب كتاب بيروت، وكان مقيماً في بيروت[5]، بقوله:

ولما دخلنا ثغر بيروت لم نجد به غير يحيى للمكارم رائدا[6]

٤ - طاعون سنة ٧٩٦/١٢٩٤:

ومن الحوادث المفجعة التي تعرضت لها بيروت وغيرها من المدن الإسلامية في الشام هو طاعون سنة ٧٩٦ / ١٢٩٤، وقد أباد هذا الطاعون الكثير من الأطفال والشباب وبعض الرجال والشيوخ. وأدَّى أيضاً إلى وفاة إخوة أمير الغرب فخر الدين عثمان، وهم عبد الرحمن وأحمد وفاطمة وهولا، علماً أن الأمير فخر الدين كان قد توفي قبل انتشار الطاعون بأيام قليلة[7].

(١) الأمير علاء الدين علي بن زين الدين صالح بن ناصر الدين الحسني (٧٣٠ - ١٣٢٨،/٧٦٢-١٣٦٠) كان لقبه مظفر الدين ثم غلب عليه لقب علاء الدين، وكان يهتم بثيابه ومركوبه وقد تزوج لؤلؤة ابنة خاله عز الدين جواد وعندما توفيت تزوج ثانية من ست الكل وهي ابنة خاله سيف الدين غلاب. مات ببيروت.
صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٨٨ - ١٨٩.
(٢) الأمير شهاب الدين أحمد بن عبد الحميد: كان رجلاً خيراً تزوج سارة بنت فتح الدين محمد بن سعد الدين وهي أم ولده جمال الدين محمد بن أحمد. توفي ليلة الأربعاء ١٧ رجب سنة ٧٨٠ هـ.
المصدر نفسه، ص ٢٠٠.
(٣) بهادر بن عبد الله المنجكي (ت ٧٩٠/١٣٨٨): وكان أرمني الأصل وهو أحد كبار الأمراء في أوائل سلطنة الظاهر برقوق ولي استداراً ثم ترقَّى من استدارية منجك إلى استدارية السلطان بمصر. ويذكر أنه تربى في صغره ببيروت.
ابن حجر: الدرر الكامنة، جـ ١، ص ٤٩٧.
صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٨١ و١٩٧.
(٤) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٨١ و١٩٧.
(٥) المصدر نفسه، ص ١٩٧.
(٦) المصدر نفسه، ص ١٩٦.
(٧) المصدر نفسه، ص ٢١٦ و٢١٧.

٥ ـ بيروت دار الإسلام:

وفي عهد المماليك، تكاثر المسلمون في بيروت بعد أن عادت دار إسلام وإيمان[١]. وكان المماليك شديدي التمسك بمذهب أهل السنة، الذي أخذ يفرض وجوده. وشدَّد بعض سلاطين المماليك «بمنع أهل صيدا وبيروت وأعمالها من اعتقاد الرافضة والشيعة، وردعهم والرجوع إلى أهل السنة والجماعة، واعتقاد مذهب أهل الحق»[٢].

وقد أظهر الشيعة ببيروت تمسكهم بالسنة، ولكنهم في الباطن استمروا على مذهب أهل الشيعة، فحدثت في بيروت «حركة ردية»[٣]، كما يسميها صالح بن يحيى.

وبقيت رواسب التشيُّع لا سيما الفاطمي ظاهرة الملامح في أوساط المجتمع البيروتي آنذاك، مما اضطر المماليك للتهديد باستعمال القوة العسكرية للقضاء عليها. وقد أفلح المماليك في ذلك، فحققوا انتصار مذهبهم الذي أصبح مذهب أهل بيروت والمدن الساحلية، وتراجعت المذاهب الأخرى نحو الجبال تلوذ بسفوحها ووديانها[٤].

وكان أهم تطور حدث في النظام القضائي في عصر المماليك، هو ما قام به السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ / ١٢٦٥، من تحريم أي مذهب، عدا المذاهب الأربعة (الحنفية، المالكية، الحنبلية، الشافعية). وعيّن أربعة من قضاة القضاة يمثلون المذاهب الأربعة، وكان الوضع منذ أيام صلاح الدين الأيوبي، يقتصر على قاضي قضاة واحد هو الشافعي. وأصبحت لا تقبل شهادة أحد، ولا يرشح لوظائف القضاء أو الخطابة أو الإمارة أو التدريس، إلا إذا كان من أتباع أحد هذه المذاهب الأربعة[٥]. وكان يوجد في كل نيابة من نيابات الشام، أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة، علماً أن بيروت كانت تتبع نيابة دمشق[٦].

(١) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٣٥.
(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ١٣، ص ١٤.
(٣) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٩٥.
(٤) محمد طه الولي: تاريخ المساجد، ص ٨٣.
(٥) المقريزي: المواعظ والاعتبار، جـ ٤، ص ١٦١.
السلوك، جـ ١، ص ٥٣٨ ـ ٥٣٩.
(٦) سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ٣٠٧.

ولم يعد الطابع الذي يميز بيروت سوى الطابع الإسلامي، ولم نعثر على أسماء عائلات بيروت في ذلك الوقت سوى إسم عائلة اللبان، وأبرز وجوهها الحاج محمد بن اللبان[١]... ومن الأشرفية برزت عائلة هلال، وكان من أعيانها اسماعيل بن هلال، وكذلك محمد شقير، وسليمان بن فياض[٢].

وسواء في الأشرفية أو في غيرها من أحياء بيروت، فإن أسماء العائلات تدل على أن المسلمين تكاثروا في بيروت على مذهب أهل السنة. وقد رابط هؤلاء فيها للدفاع عنها، وبنوا فيها المساجد لتصبح دار حرب وإيمان.

وأهم المساجد البيروتية في أيام المماليك، الجامع الكبير[٣]. فمنذ سنة ٦٩٠/١٢٩١ تحولت كنيسة القديس يوحنا المعمدان إلى جامع، كما يذكر صالح بن يحيى قائلاً: «فبيروت لما كانت الفرنج بها كان بها جماعة من المسلمين، فلما قدَّر الله نزع الفرنج منها استقرت الكنيسة جامعاً، وكانت عند الفرنج تعرف بكنيسة ماريحنا، فشرَّفها الله تعالى وصارت

(١) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٩٣.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٣ و١٣٤.
(٣) الجامع الكبير: وعرف باسم جامع فتوح الإسلام في القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) أي زمن الأتراك العثمانيين كذلك اشتهر باسم جامع النبي يحيى حيث يشيع البعض بوجود قبر النبي يحيى (يوحنا المعمدان) داخل المسجد ثم عرف بالجامع الكبير في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي حيث وصفه الرحالة النابلسي وصفاً معمارياً سنة ١١١٢/١٧٠٠، ويعرف المبنى حالياً باسم الجامع العمري الكبير إحياء لذكرى جامع البحر الذي كان يطل على البحر وشيِّد عهد الخليفة عمر بن الخطاب وبقي موجوداً حتى سنة ١٩١٤ م. وقد أحدث بالجامع العمري الكبير العديد من التغييرات والإضافات ووضع في لائحة المباني الأثرية بمرسوم جمهوري رقم ٦١٢ تاريخ ١٦ حزيران ١٩٣٦ م. كما تعرضت المنطقة المحيطة به للدمار والخراب خلال حرب السنتين (١٩٧٥ ـ ١٩٧٦).
النابلسي: التحفة النابلسية، ص ٥١ ـ ٥٢.
لويس شيخو: بيروت وتاريخها، ص ٥١ ـ ٥٢.
محمد طه الولي: تاريخ الجوامع، ص ٦٦ و٩٤.
عبد الرحمن الحوت: الجوامع والمساجد، ص ٩.
لجنة من الأدباء: لبنان مباحث علمية واجتماعية، جـ ١، ص ٣١٧.
صالح لمعي مصطفى: مساجد بيروت، ص ٦.
يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ٣، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١.

جامعاً وكان بها صور طرشوا عليها السملين بـالطين ، وبقي إلى أيـام الجد (أي جـد صالح بن يحيى) فبيَّضه وأزال عنه الوضر من آثار تلك الصور »[1] .

وهكذا تحوَّلت كنيسة القديس يوحنا المعمدان في بيروت إلى جامع ، بعد أن دهنت الحيطان الداخلية بالطلاء، لتغطية الصور الدينية المسيحية التي كانت تزينه[2]. وقد دلَّت الترميمات التي جرت سنة ١٩٥٣ على أن بيروت كانت منخفضة عما هي عليه اليوم وأن لهذا الجامع دهليزاً غلب عليه الماء يقوم على أعمدة لمعبد روماني قديم[3].

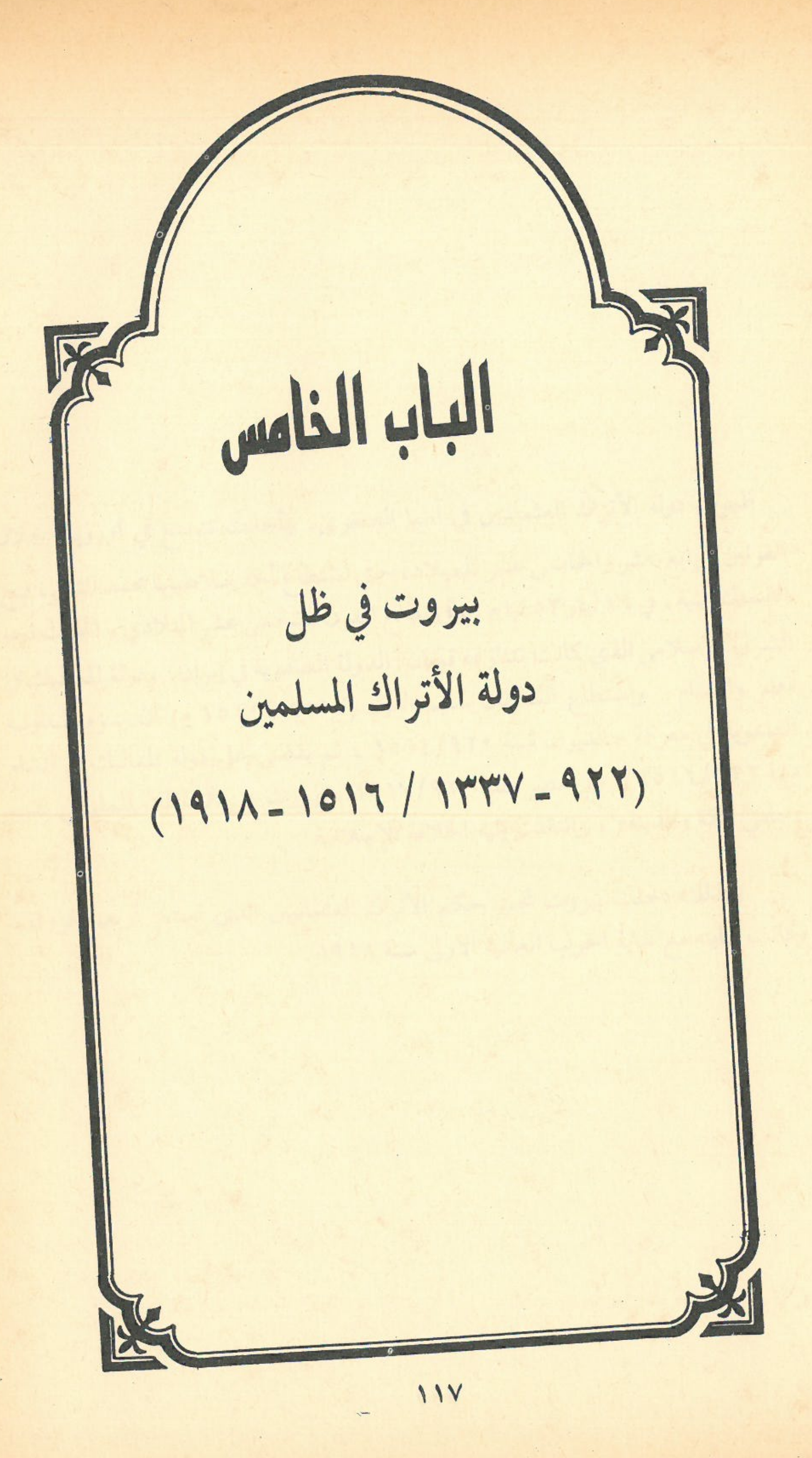
وأهم المساجد البيروتية أيضاً ، مسجد البدوي ومسجد الدباغة، وقد تم بناؤهما سنة ٧٤٣ / ١٣٤٣، في محلة المرفأ. وكذلك مسجد التوبة (عرف باسم جـامع البحر وجامع العمري)، كما بنيت زاوية المجذوب سنة ٧٤٥ / ١٣٤٤، وزاوية المغاربة سنة ٧٩٣ / ١٣٩٠، وزاوية رأس بيروت (جامع الحمراء اليوم) سنة ٨١٠ / ١٤٠٧ . . . وكانت هذه المساجد تكفي سكان بيروت المسلمين، الذين لم يتجاوز عددهم الخمسة آلاف نسمة في ذلك الوقت، ومعظمهم من أهل السنة، ومن هنا اتسمت بيروت بطابعها الإسلامي الذي رسخ في عهد المماليك واستمر في عهد الأتراك العثمانيين .

---

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت، ص ٣٤.

(٢) لويس شيخو: بيروت وتاريخها، ص ٥١ ـ ٥٢.

(٣) يوسف يزبك : أوراق لبنانية، م ٣، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١.



الباب الخامس

بيروت في ظل دولة الأتراك المسلمين

(٩٢٢ ـ ١٣٣٧ / ١٥١٦ ـ ١٩١٨)

ظهرت دولة الأتراك العثمانيين في آسيا الصغرى، وأخذت تتوسع في أوروبا، خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد، حتى استطاع أحد سلاطينها محمد الثاني، فتح القسطنطينية، في ٢٩ أيار ١٤٥٣م. وفي مطلع القرن السادس عشر الميلادي، اتجهت نحو الشرق الإسلامي الذي كانت تتنازعه قوتان: الدولة الصفوية في إيران، ودولة المماليك في مصر والشام. واستطاع السلطان سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠ م) أن يهزم الدولة الصفوية في معركة جالديران سنة ١٥١٤/٩٢٠، ثم يقضي على دولة المماليك في الشام سنة ١٥١٦/٩٢٢، وفي مصر سنة ١٥١٧/٩٢٣، وورث عن السلطان المملوكي لقب «حامي مكة والمدينة»، وانتقلت إليه الخلافة الإسلامية.

وبذلك دخلت بيروت تحت حكم الأتراك العثمانيين الذي استمر أربعة قرون، وكانت نهايته مع نهاية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨.

الفصل الأول

الفتح التركي العثماني لبيروت والشام
(٩٢٢-٩٢٣ / ١٥١٦ - ١٥١٧)

لم يستطع السلطان قانصوه الغوري[١]، آخر سلاطين المماليك في الشام، أن يقف في وجه الأتراك العثمانيين بقيادة السلطان سليم الأول، فكانت هزيمة المماليك في وقعة مرج دابق سنة ٩٢٢ / ١٥١٦ ، ونهاية دولتهم في الشام[٢].

١ - محمد بن قرقماز الجركسي يتولى بيروت (٢٨ ذي الحجة ٩٢٣ / ١٥١٧):

وكان الأمير ناصر الدين محمد بن الحنش قد حاول أن يستقل في ولايته التي تضم بيروت وصيدا والبقاع، فحاربه نائب دمشق وقتله[٣]. ثم عين محمد بن قرقماز الجركسي[٤]، على ولاية بيروت وصيدا والبقاع، في ٢٨ ذي الحجة ٩٢٣ / ١٥١٧، ويعتبر أول والٍ على مدينة بيروت بعد دخولها في ظل الدولة العثمانية.

٢ - الفرنج يحتلون بيروت ثلاثة أيام فيحررها نائب دمشق (٩٢٦ / ١٥٢٠):

وفي سنة ٩٢٦ / ١٥٢٠، أتت سفن الفرنج إلى ساحل بيروت، وحاصروها

---

(١) قانصوه الغوري: (٨٥٠ - ٩٢٢/١٤٤٦ - ١٥١٦): هو قانصوه بن عبد الله الظاهري الأشرفي الغوري، أبو النصر سيف الدين الملقب بالملك الأشرف، بويع بالسلطنة بقلعة الجبل في القاهرة، سنة ٩٠٥ هـ. كان شجاعاً ومع ذلك انهزم أمام السلطان سليم الأول في مرج دابق قرب حلب ومات في المعركة بعد أن وقع عن فرسه.
الزركلي: الاعلام، جـ ٥، ص ١٨٧.

(٢) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٢، ص ص ٢٠٨ - ٢١٠.

(٣) المرجع نفسه، جـ ٢، ص ٢١٣ و٢١٧.

(٤) عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة صيدا، ص ١٨٥.
عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر، ص ١١٣.

وهزموا أهلها، ثم احتلوها مدة ثلاثة أيام[١]. فلما بلغ نائب دمشق ذلك، أرسل حملة عسكرية لمساندة بيروت، وجرت معركة قتل فيها مئة من المسلمين وأربعمائة من الفرنج وأسر ثلاثمئة آخرين منهم، وقد غنم المسلمون الكثير من السلاح والقماش، وثلاث سفن كبيرة. وقيل إنه كان بين الأسرى جماعة من أولاد الملوك الفرنج، وجيء برؤوس الفرنج إلى دمشق.

٣ - بيروت «سنجق» يتبع ولاية الشام (٩٢٦ / ١٥٢٠):

عندما فتح السلطان سليم الأول بلاد الشام سنة ١٥١٦/٩٢٢، أبقى التقسيمات الإدارية على ما كانت عليه في عهد المماليك، فكانت بيروت تتبع نيابة دمشق. وفي عهد السلطان سليمان القانوني، وضع نظام جديد سنة ١٥٢٠/٩٢٦، قسمت بموجبه سورية إلى ثلاث ولايات كبرى يتبعها ٢٨ سنجقاً[٢]، وهي ولاية الشام ومركزها دمشق، ويتبعها ١٢ سنجقاً منها بيروت وصيدا، وتشرف بالتالي على أمراء جبل لبنان؛ ثم ولاية حلب ومركزها حلب، ويتبعها ٩ سناجق؛ فولاية طرابلس ومركزها طرابلس، ويتبعها ٧ سناجق. وفي عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥م)، أصبحت الولايات تسمى «الباشويات» أو «الإيالات». واستمرت سورية مقسمة إلى ثلاث باشويات: الشام وحلب وطرابلس، كما استمرت بيروت عبارة عن «سنجق» يتبع باشوية الشام، ويحكمها حاكم يلقب بـ «ميرميران»[٣].

وكان الأتراك على غرار المماليك قبلهم، شديدي التمسك بمذهب أهل السنة، وأصبح المذهب الحنفي هو المذهب الرسمي للدولة، واستمر مذهب أهل السنة يغلب على سكان بيروت، ولعل أول مسجد بني في بيروت، بعد دخول الأتراك العثمانيين إليها، هو جامع ابن عراق أو زاوية الشيخ محمد خضر العراقي، وذلك سنة ٩٢٣ / ١٥١٧، تجاه زاوية الإمام الأوزاعي.

(١) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٢، ص ٢١٧.
(٢) عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر، ص ١٢٥.
(٣) عبد العزيز عوض: الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ص ٦٢.

الفصل الثاني

بيروت والإمارة المعنية
(٩٩٩- ١١٠٩ / ١٥٩٠ - ١٦٩٧)

كان ظهور الأتراك العثمانيين فاتحة عصر جديد للأمراء المعنيين. فبعد دخول بيروت والشام تحت سيطرة السلطان سليم الأول، ذهب الأمير فخر الدين الأول مع وفد أمراء الجبل لمقابلته في دمشق، ودعا له بالعز والتخليد، فخلع عليه السلطان سليم بلقب «سلطان البر»، وأقره على بعقلين والشوف، كما أقر سائر الأمراء على إقطاعهم، وسمح لهم بنوع من الاستقلال الداخلي مقابل جزية طفيفة.

وحكم بنو عساف شمال لبنان، وقد شهدت بيروت مقتل حسن وحسين من أبناء الأمير عساف على يد أخيهما الأمير قائد بيه سنة ٩٢٨ / ١٥٢٢، وذلك بسبب الصراع على حكم كسروان[١]. وفي سنة ٩٨١ / ١٥٧٢، امتد حكم الأمير منصور العساف من نهر الكلب إلى حماه، وسكن بيروت في مقر عرف بالسراي، وبجانبه أقام جامع السراي المعروف اليوم باسم جامع الأمير عساف[٢]. وتوفي الأمير منصور سنة ٩٨٦ / ١٥٨٠، فخلفه ابنه الأمير محمد. واستطاع بنو سيفا القضاء على آل عساف والسيطرة على طرابلس والشمال، وأصبح التنافس بينهم وبين آل معن في الشوف. ودبر يوسف سيفا مكيدة لقرقماز بن فخر الدين الأول (١٥٤٢ - ١٥٨٥)، باتهامه بحادثة السطو التي وقعت في جون عكار سنة ١٥٨٤/٩٩٣ حيث هوجمت القافلة التي تحمل الضرائب من مصر إلى السلطان مراد الثالث في اسطنبول، واستغل

(١) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٢، ص ٢٢٦.
(٢) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ١، ص ٢١.
صالح لمعي مصطفى: مساجد بيروت، ص ٢٨.

الأتراك هذا الأمر فوجهوا حملة تأديبية إلى الشوف، معقل آل معن وأميرهم قرقماز بن فخر الدين الأول، الذي فر إلى قلعة نيحا «شقيف تيرون»، وتوفي فيها سنة ٩٩٤ / ١٥٨٥. وهرب ولداه فخر الدين الثاني ويونس.

١ - بيروت ضمن إمارة فخر الدين الثاني (١٠٠١/١٥٩٢):

اختبأ فخر الدين بعد وفاة والده، وعندما هدأت الأمور، استدعاه خاله الأمير سيف الدين التنوخي سنة ٩٩٩ / ١٥٩٠، وسلّمه ولاية الشوف، لتمتد سيطرته من نهر الكلب إلى جبل الكرمل. ففي سنة ١٠٠١/١٥٩٢، حصل على بيروت وصيدا وصور وعكا.

وكان الأمير فخر الدين الثاني قد اتخذ مدينة صيدا حاضرة لإمارته ومقراً له[١] سنة ١٠٠٣ / ١٥٩٤. ثم وسّع إمارته، ففي سنة ١٠٠٧ / ١٥٩٨ كانت وقعة نهر الكلب بينه وبين ابن سيفا، الذي أراد استرجاع بيروت، لكنه انهزم وتشتتت جيوشه، وتولى الأمير فخر الدين كسروان وبيروت [٢]. وبذلك ضم إليه بيروت، وكان عدد سكانها في ذلك الوقت لا يتجاوز الستة آلاف نسمة.

وجمع الأمير فخر الدين بعد موافقة ولاة الأمر العثمانيين، بين جبل لبنان وبيروت وصيدا. وبعد أن وسّع حدود إمارته، جعل عاصمته دير القمر صيفاً وصيدا شتاء [٣]. وبسيطرته على بيروت وصيدا تحكم في منفذ جبل لبنان إلى الخارج.

وعندما تضايقت الدولة العثمانية من الأمير فخر الدين لتحصينه القلاع وتوسيع إمارته، أرسلت عليه حملة بقيادة الحافظ أحمد باشا سنة ١٠٢٠ / ١٦١١، مما اضطره للهرب إلى إيطاليا حيث أقام فيها خمس سنين وشهرين (١٠٢٠ - ١٠٢٥ / ١٦١١ - ١٦١٦). ثم عاد بعد أن اطلع على طرف من الحضارة الأوروبية، مستصحباً معه كثيراً من المهندسين لبناء القلاع وعمل الذخائر الحربية[٤]، مما ساعد أيضاً على ازدهار بيروت في عهده.

---

(١) عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة صيدا، ص ١٨٦.
(٢) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٢، ص ٢٣٧.
(٣) يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ١١.
(٤) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٢، ص ٢٤٤.

٢ - الأمير منذر بن سليمان التنوخي يتولى بيروت (١٠٢٥ / ١٦١٦):

تولى الأمير منذر التنوخي حكم بيروت[١] سنة ١٠٢٥ / ١٦١٦، بتعيين من الأمير علي أثناء وجود والده الأمير فخر الدين الثاني في إيطاليا. وأنشأ في بيروت مسجد النوفرة[٢]، ويعرف باسمه، وترجع تسميته بالنوفرة لوجود نوفرة (فسقية) في صحن المسجد، كما هو الحال في أغلب المساجد التي أقيمت في أنحاء متعددة من الولايات العربية الإسلامية. وقد بني هذا المسجد سنة ١٠٢٩ / ١٦٢٠[٣]، ووصف الرحالة النابلسي هذا المسجد عند زيارته بيروت سنة ١١١٢ / ١٧٠٠[٤]. وأقام الأمير منذر التنوخي سكناً شتوياً له في بيروت، يتكوّن من طابقين، وملاصقاً للحد الجنوبي الشرقي للمسجد[٥]، وفيه برج منيع[٦].

وفي سنة ١٠٢٩ / ١٦٢٠، تعرضت بلاد الشام لوباء الطاعون الذي أفنى الكثيرين من سكان بيروت وصيدا وصفد، حتى قيل إن هذه المدن الإسلامية كانت تشيّع كل نهار نحو خمسين جنازة[٧].

٣ - بيروت مركز تجمع قوات الأمير فخر الدين الثاني:

كانت مدينة بيروت نقطة تجمع قوات الأمير فخر الدين الثاني، التي تأتيه من الشوف والغرب وسائر المناطق، فينطلق من بيروت لمحاربة أعدائه[٨]. ففي ١٠ شوال ١٠٣٢ / تشرين الثاني ١٦٢٢، وصل الخبر إلى الأمير فخر الدين أن قراصنة مالطة يتعرضون للتجار المسلمين ويأسرونهم[٩]، فجمع مائة شاب من المسلمين،

---

(١) أحمد الخالدي الصفدي: تاريخ الأمير فخر الدين، ص ٥٣.
طنوس الشدياق: أخبار الأعيان، جـ ١، ص ٢٥٣.
(٢) طنوس الشدياق: أخبار الأعيان، جـ ١، ص ١٣.
(٣) ويقع مسجد النوفرة حالياً في قلب العاصمة بيروت قرب باب ادريس وهو بديع الوضع، له قباب تعلو الأروقة المحيطة بصحنه وفي داخله نقوش جميلة وحجارة مختلفة الألوان. وفيه «درابزون» من خشب جميل. رممته دائرة الأوقاف الإسلامية في بيروت سنة ١٩٥١.
يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ٣، ص ٢٦٢.
(٤) عبد الغني النابلسي: التحفة النابلسية، ص ٤٢.
(٥) داود كنعان: بيروت في التاريخ، جـ ٢، ص ٩٥.
(٦) أحمد الخالدي الصفدي: تاريخ الأمير فخر الدين، ص ٦٧.
(٧) المصدر نفسه، ص ٩٣.
(٨) المصدر نفسه، ص ٧٤ و٨١ و١٤٠ و١٤٦.
(٩) المصدر نفسه، ص ١٣١.

وأمّن لهم بعض السفن ، فأقلعوا من بيروت لمطاردة القراصنة ومحاربتهم ، فطاردوهم من الساحل قرب الصرفند حتى تجاه مدينة صيدا، ثم منطقة الأوزاعي حيث استطاعوا أسرهم، وكان عددهم ثلاثين أسيراً[1]. كما طاردوا سفينة أخرى للقراصنة وأسروا ٢٥ رجلاً فيها[2]، وقد جاؤوا بجميع الأسرى إلى بيروت .

وفي سنة ١٠٣٣ / ١٦٢٣ ، استقبلت بيروت سفينتين، وكان في إحداها علي باشا الجشتجي ، فاستقبله الأمير حسين ابن الأمير فخر الدين، والأمير منذر التنوخي حاكم بيروت[3]، وقد أكرماه. فأقام في بيروت عشرين يوماً، ثم توجه إلى طرابلس .

٤ ـ ازدهار بيروت :

عرفت بيروت عصرها الذهبي زمن الأمير فخر الدين الثاني، فقد جعلها عاصمة ثانية له سنة ١٦٣٢/١٠٤٢ . وساهم الخبراء الإيطاليون في تحصين بيروت وتجميلها وتصميم منازلها ومدارسها وحدائقها ومبانيها العامة، كما بنيت الفنادق، ورصفت الأسواق، كل ذلك بهندسة إيطالية، حتى أصبحت بيروت مطمح أنظار السياح والرحالة الذين كتبوا عنها. وأهم ما اشتهرت به بيروت، قصر الأمير فخر الدين وبرجه وحديقته وحمامه، وغابة الصنوبر الكثيفة .

وقد بنى الأمير فخر الدين قصره في منطقة البرج، شمال شرق بيروت، ولا تزال هذه المنطقة تعرف بساحة البرج، منذ أن بنى فخر الدين «برج الكشاف»[4] الشهير لمراقبة السفن الآتية من البحر. ويتألف القصر من غرف كثيرة، واصطبلات للخيل، مبنية على صفوف عديدة من الأعمدة المربعة، وحديقة الوحوش التي بناها فخر الدين في أواخر أيامه تقليداً لملوك إيطاليا، وهي عبارة عن مرابض للأسود والوحوش الضارية . وكانت المياه تجري بأنابيب في الجدران. وفي الوسط حديقة البرتقال وهي بستان كبير، كان الأمير فخر الدين يجلس مع بطانته في مكان مرتفع منه شرقاً، حتى أصبح قصره أشبه

---

(١) أحمد الخالدي الصفدي : تاريخ الأمير فخر الدين ، ص ١٣٢ .
(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٣ .
(٣) المصدر نفسه، ص ١٦٠ .
(٤) عيسى المعلوف: تاريخ الأمير فخر الدين، ص ٢٥٦ .
محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٢، ص ٢٥١ .
يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ١، ص ٢١ .

بقصر روماني[1]. وقد شاهد النابلسي حمام الأمير فخر الدين أثناء زيارته بيروت سنة ١١١٢ / ١٧٠٠ . أما غابة الصنوبر في ضاحية بيروت جنوباً، فإن الأمير فخر الدين قد جدَّد زرعها لتقي المدينة من تيار الرمل[2]، ولم يكن أبداً أول من زرع هذه الغابة، كما يظن فولني وموندل ولامارتين وبوكوك وغيرهم ممن زار بيروت .

وعرفت بيروت بقلعتها أي «حبس بيروت» أو «حبس القلعة»[3]، حيث يتم توقيف وسجن حتى الأمراء. وقد رمم جسر نهر بيروت في ذلك الوقت.

واشتهرت تجارة الحرير زمن الأمير فخر الدين الثاني، الذي كان يتعاطى تربية دودة القز في أملاكه الخاصة، بصورة مباشرة أو بواسطة شركاء يتقاضى منهم ثلث المحاصيل. وكان الحرير متنوع الأصناف وفقاً للمناطق المنتجة له ، وكان « الحرير البيروتي » أجوده، والحرير الطرابلسي على جودته تقريبا، وحرائر صيدا دونها جودة[4].

ويستعمل الحرير البيروتي لحياكة النسائج الأطلسية والمموجة، وكان يباع شللاً وزن الواحدة منه نحو الرطل، كما كان يرسل بحراً إلى مرفأ ليفورنو بتوسكانا[5].

وحاول الأمير فخر الدين تسهيل التجارة بين الفرنج وموانىء الساحل، ومنها مرفأ بيروت ، فبدأ يرخص بتأسيس قنصليات للفرنج [6] . كما جدد مرفأي بيروت وصيدا لتدعيم حركة التجارة الخارجية. وشق طريقاً على الساحل وآخر في البقاع ، وربط بينهما بثلاث طرق تنطلق اثنتان من صيدا والثالثة من بيروت .

وفي عهده، سمح للإرساليات الكاثوليكية، لا سيما الكبوشيين، بتأسيس إرسالية في صيدا، ثم بالتوسع في أعمالها التي شملت بيروت وطرابلس وإهدن .

٥ ـ هزيمة الأمير فخر الدين الثاني وبدء انهيار بيروت (١٠٤٢ / ١٦٣٣) :

بعد هزيمة الأمير فخر الدين الثاني سنة ١٦٣٣/١٠٤٢، أمام قوة الدولة

---

(١) عيسى المعلوف: تاريخ الأمير فخر الدين، ص ١٩٩ و٢٥٦ و٢٥٩ .
اسطفان الدويهي : تاريخ الأزمنة، ص ٥٠٠ .
محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٢، ص ٢٥١ .
(٢) عيسى المعلوف: تاريخ الأمير فخر الدين، ص ٢٦٠
(٣) أحمد الخالدي الصفدي : تاريخ الأمير فخر الدين، ص ٩٤ .
(٤) موريس شهاب: دور لبنان في تاريخ الحرير، ص ٣٣ .
(٥) المرجع نفسه، ص ٣١ .
(٦) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٢، ص ٢٤٦ .

العثمانية، تم نقله إلى الأستانة، فقام ابن أخيه الأمير ملحم[1] بمحاربة والي دمشق، وهزمه ونهب بيروت[2] وصور وعكا. وعندها أمر السلطان بقطع رأس الأمير فخر الدين، وخنق ابنه الأكبر[3]. وأدّى ذلك إلى تدهور مدينة بيروت التي ضمت إلى صيدا، وأخذت تسير في طريق الانهيار. ففي القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، أشار المؤرِّخون إلى بيروت على أنها قرية صغيرة[4]، تتكوَّن من خمسة آلاف نسمة، ومنازلها فقيرة مبنية من الطين والحجارة الرملية، وشوارعها ضيِّقة، وميناؤها مليء بالرمال.

ويبدو أن بيروت كانت ستشهد أزهى أيامها لو تم النصر للأمير فخر الدين، خاصة وأنه جعلها عاصمة له قبل هزيمته بسنة واحدة، كما أنه عني بإدخال روح التجدد في إمارته. ولمحبة قومه له، ادعته أهل المذاهب الثلاثة في إمارته، فالموارنة يقولون إنه كان مارونياً، والدروز درزياً، وأهل السنة سنياً. والحقيقة أنه كان ينظر إلى رعيته نظرة المساواة، ويأخذ لخدمته الكفاة من كل طائفة، فقد اعتمد في قوته العسكرية على الدروز، وكان الكثير من مدبريه ورجاله من المسيحيين.

٦ ـ بيروت «سنجق» يتبع إيالة صيدا (١٠٧١ / ١٦٦٠):

وفي سنة ١٠٧١ / ١٦٦٠، أنشئت إيالة صيدا[5]، التي تتألف من سناجق صيدا وبيروت وصفد، بعد أن سلخت من ولاية الشام. ويرجع أسباب إنشاء إيالة صيدا، إلى الحد من سلطة ولاة الشام خوفاً من اتساع نفوذهم من ناحية، وإلى حرص الدولة العثمانية على مراقبة أمراء جبل لبنان[6] من ناحية ثانية. وذلك بصورة أقوى فاعلية بعد

(١) الأمير ملحم المعني (ت ١٠٦٨/١٦٥٨) وهو ملحم بن يونس بن قرقماز المعني، فرَّ بعد مقتل عمه الأمير فخر الدين الثاني سنة ١٠٤٤/١٦٣٥، ثم ظهر ووليِّ الشوف والغرب والجرد والمتن وكسروان. وأحسن سياسته مع السلطنة، وتوفي بمدينة صيدا.
الزركلي: الاعلام، جـ ٧، ص ٢٨٧.
(٢) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٢، ص ٢٥٠.
(٣) المرجع نفسه، جـ ٢، ص ٢٥٠.
(٤) طنوس الشدياق: أخبار الأعيان، ص ١٣.
(٥) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٣، ص ٢٢٨.
عبد الكريم رافق بلاد الشام ومصر، ص ١٩٤.
(٦) عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر، ص ١٩٥.

محاولة الأمير فخر الدين المعني الثاني إقامة ملك مستقل له. وبذلك أصبحت سورية مقسمة إلى أربع ولايات هي: الشام وحلب وطرابلس وصيدا. وأصبحت بيروت تتبع صيدا حيناً والشام أحياناً. وكان علي آغا الدفتردار أول من تولى إيالة صيدا[1]، وفي أيامه وقعت فتنة عظيمة بينه وبين مشايخ المتاولة، وفي سنة ١٠٧٢ / ١٦٦١، طلب مالاً من ناظر كنيسة مار جرجس في بيروت فرفض طلبه، فأمر أن تصير الكنيسة جامعاً وبنى لها مئذنة، وسميت مقام الخضر[2].

ثم عزل علي آغا الدفتردار عن إيالة صيدا التي تضم بيروت سنة ١٠٧٣ / ١٦٦٢، فتولاها محمد باشا الأرناؤوط[3] والي طرابلس. وكان أول قنصل فرنسي يعين في بيروت سنة ١٠٧٣ / ١٦٦٢، هو أبو نوفل بن أبي نادر الخازن، وهو من أصل لبناني، أنعم عليه لويس الرابع عشر بالجنسية الفرنسية.

وفي سنة ١٠٧٥ / ١٦٦٤، جرت في بيروت عند الغلغول، وقعة بين القيسية واليمنية انهزمت فيها اليمنية إلى دمشق. واشتدت الحالة على بلاد الشام في هذه السنة بسبب الطاعون المنتشر في أرجائها، والذي أتى على بيوت كثيرة، وأمات جميع سكانها[4]. وقد تولى اسماعيل باشا بيروت سنة ١٦٧٥، ثم محمد باشا سنة ١٦٧٧، وخليل باشا بن كيوان سنة ١٦٧٩، ثم تولاها محمد باشا سنة ١٦٨٠، ومصطفى باشا سنة ١٦٩٢، وحسين باشا سنة ١٦٩٧[5].

وعندما بدأ القرن الثاني عشر الهجري / أواخر القرن السابع عشر الميلادي، كان عبدون باشا والي صيدا التي تضم بيروت، يوغل في مظالمه، وجعفر باشا والي دمشق

(١) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٢، ص ٢٦٢.
(٢) جامع الخضر: يقع قرب مصب نهر بيروت في محلة الخضر أو الكرنتينا. ويروى أن موضع الجامع كان كنيسة بيزنطية قديمة بنيت تخليداً لذكرى القديس جرجس في المكان الذي أنقذ فيه ابنة حاكم بيروت الروماني من مخالب التنين كما جاء في الأسطورة. والمسلمون يعرفون القديس جرجس باسم الخضر.
محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٢، ص ٢٦٢.
يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ٣، ص ٢٦١.
(٣) عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة صيدا، ص ١٩١.
(٤) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٢، ص ٢٦٣.
(٥) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ١، ص ٢٢.

ليس دونه في إنشاء المظالم[1]. ذلك أن منصب الوالي، كان في الأستانة يكلف من ٨٠ إلى ١٠٠ ألف دوكا، كما ورد في تقرير لأحد قناصل البندقية[2]. وكان منصب الدفتردار يباع من ٤٠ إلى ٥٠ ألف دوكا. وكان الوالي أو الدفتردار يضطر إلى سلب مال الأهالي أو يستغلهم لصالحه، حتى يسترد الأموال التي دفعها، مما يؤدي إلى الظلم والاستبداد.

وبموت الأمير أحمد بن معن[3]، سنة ١١٠٨ / ١٦٩٧، دون أن ينجب ابناً ذكراً، انقرضت الدولة المعنية[4]، وانتقل الحكم للأسرة الشهابية.

(١) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٢، ص ٢٦٩.
(٢) المرجع نفسه، جـ ٢، ص ٢٧٠.
(٣) الأمير أحمد بن ملحم بن يونس المعني (ت ١١٠٨/١٦٩٧): هو آخر أمراء آل معن، ولي الإمارة بعد وفاة أبية سنة ١٠٦٨ هـ. وفي أيامه كانت وقعة الغلغول، فظفر باليمنيين واستقل بإمارة بلادهم جميعاً.
الزركلي: الاعلام، جـ ١، ص ٢٦٠.
(٤) محمد كرد علي، خطط الشام، جـ ٢، ص ٢٧٢.

الفصل الثالث

بيروت والإمارة الشهابية
(١١٠٩ - ١٢٤٧ / ١٦٩٧ - ١٨٣١)

انقرضت الإمارة المعنية بوفاة الأمير أحمد بن معن سنة ١١٠٩ / ١٦٩٧. وعقد الأمراء والمشايخ مؤتمر السمقانية، حيث تم اختيار الأمير بشير بن شهاب من أمراء وادي التيم، وهو ابن أخت الأمير أحمد آخر أمراء آل معن. ثم أرسل قرار السمقانية إلى اسطنبول، بواسطة والي صيدا، فتمت الموافقة على أن تكون الإمارة لحيدر الشهابي ابن ابنة الأمير أحمد بن معن، وحيث أنه صغير السن، فقد تم اختيار الأمير بشير ريثما يبلغ أشدّه.

١ - زمن الأمير بشير الشهابي الأول (١١٠٩ - ١١١٨/١٦٩٧ - ١٧٠٦):

تولى الأمير بشير الشهابي الأول الإمارة سنة ١١٠٩/١٦٩٧ نيابة عن الأمير حيدر الشهابي[1]. وفي سنة ١١١٠ / ١٦٩٨ تولى قبلان باشا المطرجي ولاية صيدا التي تضم بيروت، ثم ما لبث أن استنجد بالأمير بشير بعد أن عصى عليه الشيخ مشرف بن علي الصغير حاكم بلاد بشارة (جبل عامل). فجمع الأمير بشير ثمانية آلاف رجل، وقبض على الشيخ مشرف، وسلّمه إلى الباشا الذي أعطاه مقابل ذلك ولاية صيدا، من صفد إلى جسر المعاملتين[2]. وأصبحت بيروت تابعة له، وقد أناب عنه أرسلان باشا[3]. وعندما توفي الأمير بشير سنة ١١١٨ / ١٧٠٦، تولى الإمارة حيدر الشهابي.

(١) الأمير حيدر الشهابي (١٠٩٣ - ١١٤٣/١٦٨٢ - ١٧٣١): هو ابن ابنة الأمير أحمد المعني كان صغير السن عندما تسلّم الإمارة عنه أمير راشيا بشير الشهابي الأول. توفي الأمير حيدر في دير القمر بعد أن حكم ٢٦ سنة وكان شجاعاً كريماً.
الزركلي: الاعلام، جـ ٢، ص ٢٩٠ - ٢٩١.
(٢) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٢، ص ٢٧٢.
(٣) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ١، ص ٢٢.

٢ ـ زمن الأمير حيدر الشهابي (١١١٨ ـ ١١٤٣ / ١٧٠٦ ـ ١٧٢٩):

وفي مستهل حكم الأمير حيدر، تولى بشير باشا ولاية صيدا التي تضم بيروت. وازداد الصراع بين القيسية واليمنية، فاستطاع الأمير حيدر جمع القيسية في عين دارة سنة ١١٢٣ / ١٧١١، في حين أرسلت اليمنية إلى بشير باشا والي صيدا فحضر إلى حرج بيروت[١]، كما حضر نصوح باشا والي دمشق إلى البقاع. وانتصر الأمير حيدر والقيسية.

وفي سنة ١١٢٧ / ١٧١٥، عزل عثمان باشا عن بيروت. وفي سنة ١١٢٩ / ١٧١٧ توفي الأمير عبد الله أبي اللمع زوج أخت الأمير حيدر الشهابي، فادعت زوجته بميراثها منه، وأخذت بستان بوكعكة في ساحل بيروت (البوشرية)، وجزيرة ابن معن عند نبع بيروت[٢].

٣ ـ زمن الأمير ملحم الشهابي (١١٤٣ ـ ١١٦٩/١٧٢٩ ـ ١٧٥٤):

وفي سنة ١١٤٣/١٧٢٩ ترك الأمير حيدر الحكم، فخلفه ابنه الأمير ملحم. وإذ ذاك بنى الأمير سليمان اللمعي قيسارية البارود في بيروت[٣].

ودخلت بيروت في حوزة الأمير ملحم منذ سنة ١١٦٤ / ١٧٤٩، وجعلها عاصمة شتوية له[٤]، وبنى فيها خان الملاحة. كما بنى أخواه الأميران أحمد ومنصور، أبنية وحوانيت وبساتين في بيروت. وبنت زوجة الأمير أحمد القيسارية العتيقة، والبرج المستدير بجانب السور الذي هدم، وبني مكانه مستشفى العساكر السلطانية.

٤ ـ زمن الأميران أحمد ومنصور (١١٦٩ ـ ١١٧٧/١٧٥٤ ـ ١٧٦٢):

وتنازل الأمير ملحم عن الإمارة سنة ١١٦٩ / ١٧٥٤، فانقطع إلى حياة تدين وأقام في بيروت، وعكف على دراسة الفقه ومعاشرة علماء الإسلام.

وفي سنة ١١٧٤ / ١٧٥٩، ازدهر مرفأ بيروت نتيجة الزلزال الذي ضرب صيدا، فانسحب منها التجار الفرنسيون إلى بيروت وطرابلس.

وسنة ١١٧٦ / ١٧٦١ توفي الأمير ملحم فدفن في جامع الأمير منذر التنوخي.

---

(١) محمد كرد علي: خطط الشام جـ ٢ ص ٢٧٤.
(٢) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ١، ص ٢٢.
(٣) المرجع نفسه، م ١ ص ٢٣.
(٤) يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ١١.
يوسف يزبك: أوراق لبنانية م ٢ ص ١٨٤.

٥ ـ زمن الأمير منصور الشهابي (١١٧٧ ـ ١١٨٥ / ١٧٦٢ ـ ١٧٧٠):

بنى الأمير منصور طاقة القصر جنوب شرق الكبوجية، والديوان، وميزان الحرير، والقيسارية المعروفة باسمه[١]. وفي سنة ١١٧٩ / ١٧٦٤ شيدت كاتدرائية القديس جاورجيوس للروم الأرثوذكس[٢]. وتولى بيروت محمد باشا عثمان ثم محمد باشا، فدرويش باشا. وعندما احتل الشيخ ظاهر العمر، مرفأ صيدا سنة ١١٨٥/١٧٧٠، وبرزت مطامعه في التوسع، استرضاه الأمير منصور بالمال لقاء ٢٥ ألف غرش وصرفه عن بيروت[٣]. ثم تنازل الأمير منصور عن الحكم لابن أخيه الأمير يوسف.

٦ ـ زمن الأمير يوسف الشهابي (١١٨٥ ـ ١١٩١ / ١٧٧٠ ـ ١٧٧٦):

بالرغم من زوال الخطر عن بيروت، فقد وصل إليها أحمد باشا الجزار على رأس جيش من دمشق، وتسلم بيروت من الأمير يوسف. ولكن الجزار أراد الاستقلال في بيروت[٤]، فحصّنها ورفض تسليمها. فاتفق الأمير يوسف الشهابي مع ظاهر العمر[٥] والي عكا، لنجدته بالأسطول الروسي الموجود في قبرص، حتى يسترجع بيروت من الجزار، وذلك مقابل دفع مبلغ ثلاثمائة ألف قرش لأمير الأسطول «كنتوجونى».

وعندما وصل الأسطول الروسي، أرسى سفنه مقابل برج أبي هدير، وأنزل بعض القوات إلى البر، ثم حاصر المدينة براً وبحراً. وقيل إن السفن الروسية أطلقت ستة آلاف قذيفة فدمرت جانباً من بيروت، وتصدعت جدران سورها وتهدمت جوانبه، وأحرقت بعض الأبراج. واستمر الحصار مدة أربعة أشهر[٦]، ليل نهار، مما أدى إلى تضايق أهالي بيروت أثناء الحصار، ونفذ ما عندهم من الزاد، فكانوا يأكلون لحوم الخيل

---

(١) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ١، ص ٢٣.
(٢) المرجع نفسه، م ٣، ص ٢١٣.
(٣) يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ١١.
(٤) حيدر شهاب: تاريخ أحمد باشا الجزار، ص ٣١٨.
(٥) ظاهر العمر (١١٠٦ ـ ١١٩٦/١٦٩٥ ـ ١٧٨٢): ظاهر بن عمر بن أبي زيدان، أصله من المدينة، هاجر أحد أجداده إلى فلسطين، خلف والده على حكم صفد، ثم استقر في عكا، وأحاطها بسور منيع. غدر به أحد رجاله فقتله.
الزركلي: الاعلام، جـ ٣، ص ٢٣٧.
(٦) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٢، ص ٢٩٣.
رستم والبستاني: لبنان في عهد الأمراء الشهابيين، ص ٩٨ ـ ٩٩.

والحمير والكلاب[1]. فاضطر الجزار إلى التسليم وطلب الأمان عن يد ظاهر العمر، والخروج من بيروت التي دخلها الروس ونهبوها. سنة ١١٨٨/١٧٧٣.

وتسلم الأمير يوسف الشهابي بيروت، وعاد إليها الأمراء الشهابيون. وغرم أهلها ثلاثمائة ألف قرش، دفعها لقائد الأسطول الروسي[2]. وكان الفرنسيون يدعون بيروت، قبل نهبها وحرقها، «باريس الموارنة الصغرى»[3].

وبعد ذلك عمَّر الأمير يوسف الشهابي بيروت، «وصار ما بينه وبين حضرة أبو الذهب حاكم مصر مكاتبة وهدايا وأرسل لأبي الذهب ماية اردب رز وعشر قناطير قهوة وفرو ثمين وسيف مذهب ومشيت المراكب لبيروت وارتفع اليسق (المنع والحذر)»[4].

وخلال الحرب التركية ـ الروسية، تعرضت بيروت للدمار والاحتلال، لفترة قصيرة، وذلك من تشرين أول ١٧٧٣ حتى شباط ١٧٧٤.

ولم يلبث أحمد باشا الجزار، أن هزم الأمير يوسف سنة ١١٩١ / ١٧٧٦، وسيطر على بيروت.

٧ ـ أحمد باشا الجزار يسيطر على بيروت (١١٩١ ـ ١٢٠٩ / ١٧٧٦ ـ ١٨٠٤):

سنحت الظروف لأحمد باشا الجزار[5]، بعد خروجه من بيروت، فقضى على ظاهر العمر، وتسلَّم ولاية عكا (صيدا). وانتصر على الأمير يوسف الشهابي في السعديات[6]

---

(١) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٢، ص ٢٩٤.
(٢) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٢، ص ٢٩٤.
رستم والبستاني: لبنان في عهد الأمراء الشهابيين، ص ٩٩ و١٠١.
(٣) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٢، ص ٢٩٤.
(٤) حيدر شهاب: تاريخ أحمد باشا الجزار، ص ٣٢٠.
(٥) أحمد باشا الجزار (ت ١٢١٩/١٨٠٤): أصل بشناقي من جماعة علي بك أمير مصر هرب إلى الشام لما قتل مولاه. وكان أحمد البشناقي هذا جزاراً سفاحاً، كان كاشف البحيرة في مصر فعهد إليه الانتقام من عربها لقتلهم عبد الله بك من المماليك فأسرف في القتل فلقِّب بالجزار وكان يقتل الكبير والصغير من وزراء وأفندية وعلماء وآغوات ويرضي السلطان العثماني بالمال ويداريه فيتغاضى عنه وقد حكم تسع وعشرين سنة.
محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٣، ص ٢٠ ـ ٢٥.
(٦) المرجع نفسه، جـ ٢، ص ٣٠٠.

(بين صيدا وبيروت)، ثم هاجم ضواحي بيروت فأحرق المكلس والجديدة والدكوانة، وأتلف عسكره أشجار بيروت[1]. وبذلك عاد الجزار قوياً إلى بيروت سنة ١١٩١ / ١٧٧٦، كما أصبح أقوى ولاة الدولة العثمانية عندما تولى ولاية دمشق، بعد ولاية عكا (صيدا)، وعُيِّن وزيراً على صيدا وصادر أملاك الشهابيين فيها، ورفع أيديهم عن حكمها، وأخذ يولي عليها من يشاء[2].

وقد عسكر جيش الأمير بشير الشهابي الثاني، في الحرش (غابة الصنوبر) ورأس بيروت[3]، أثناء حروبه للسيطرة على الحكم سنة ١٢٠٥ / ١٧٩٠.

وأخرج أحمد باشا الجزار، الفرنج من بيروت سنة ١٢٠٦ / ١٧٩١. ودك الكنائس وجعلها اصطبلات[4]. وأوقد جذوة التعصب بين المسلمين في بيروت، وأغراهم بقتل الموارنة، حتى يضمن حكمه على بيروت[5].

وكان الجزار يولي على بيروت حكاماً من المسيحيين، واشتد ظلم هؤلاء الحكَّام، حتى أن بعض أهالي المتن كانوا يعتدون، على مسلمي بيروت خارج المدينة، ويسرقون كل ما يحملونه. وعندما قتل رجل من أهالي بيروت خارج المدينة، ضاقت الحال بالمسلمين، وشكوا أمرهم إلى قائد الأسطول العثماني، الذي كان يأتي كل سنة لحمل الأموال المقررة، فأشار عليهم بالتخلص من المسيحيين. فأغلق غوغاء المسلمين أبواب المدينة، وقبضوا على نحو ستين رجلاً من أهل الجبل، وقتلوهم جميعاً[6].

٨ ـ تخطيط بيروت «مدينة صغيرة تمتد داخل السور» (١٢٠٦ ـ ١٢٤١/١٧٩١ ـ ١٨٢٥):

جدَّد أحمد باشا الجزار سور بيروت سنة ١٢٠٦/١٧٩١. وبوفاته سنة ١٢١٩/١٨٠٤ خلفه في حكم عكا، فسليمان باشا، ثم عبد الله باشا سنة

---

(١) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ط، ص ٣٠١.
(٢) رستم والبستاني: لبنان في عهد الأمراء الشهابين، ص ١٢٠.
(٣) المرجع نفسه، ص ١٦٣.
(٤) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٣، ص ٩.
(٥) المرجع نفسه، جـ ٣، ص ٢٢.
(٦) رستم والبستاني: لبنان في عهد الأمراء الشهابين، ص ١٦٧.
محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٣، ص ٩.

١٢٣٥ / ١٨١٩ الذي استمر حكمه حتى دخول بيروت تحت الحكم المصري سنة ١٢٤٧/١٨٣١ . وسواء في حكم الجزار أو عبد الله باشا، حيث الضرائب الباهظة والظلم والتعسف، كانت بيروت ملجأ للمظلومين، يجتازون سورها عبر الأبواب، فهي محصنة كما يلي:

(أ) السور والأبواب:

اشتهرت بيروت بسورها الذي يعود عهده إلى عصر الكنعانيين، وهو عبارة عن حجارة كبيرة تحيط ببيروت لحمايتها من الأعداء، وقد تهدَّم السور مراراً. وفي سنة ١٢٠٦ / ١٧٩١ ، أعاد أحمد باشا الجزار بناء سور بيروت ، بحجارة أبنية الشهابيين والكنائس التي دكَّها ، وذلك لتقوية دفاعات المدينة[١]. وارتفاع السور خمسة أمتار ، ويصل سمكه إلى أربعة أمتار عند القاعدة وثلاثة أمتار عند القمة . ويبدأ السور من قلعة بيروت القديمة في الشمال الشرقي ، إلى باب أبي النصر في الجنوب الشرقي ، وإلى باب يعقوب عند محلة السور في الجنوب الغربي ، ثم إلى باب السنطية ليصل إلى ميناء الخشب عند مرفأ بيروت القديم في الشمال الغربي [٢] .

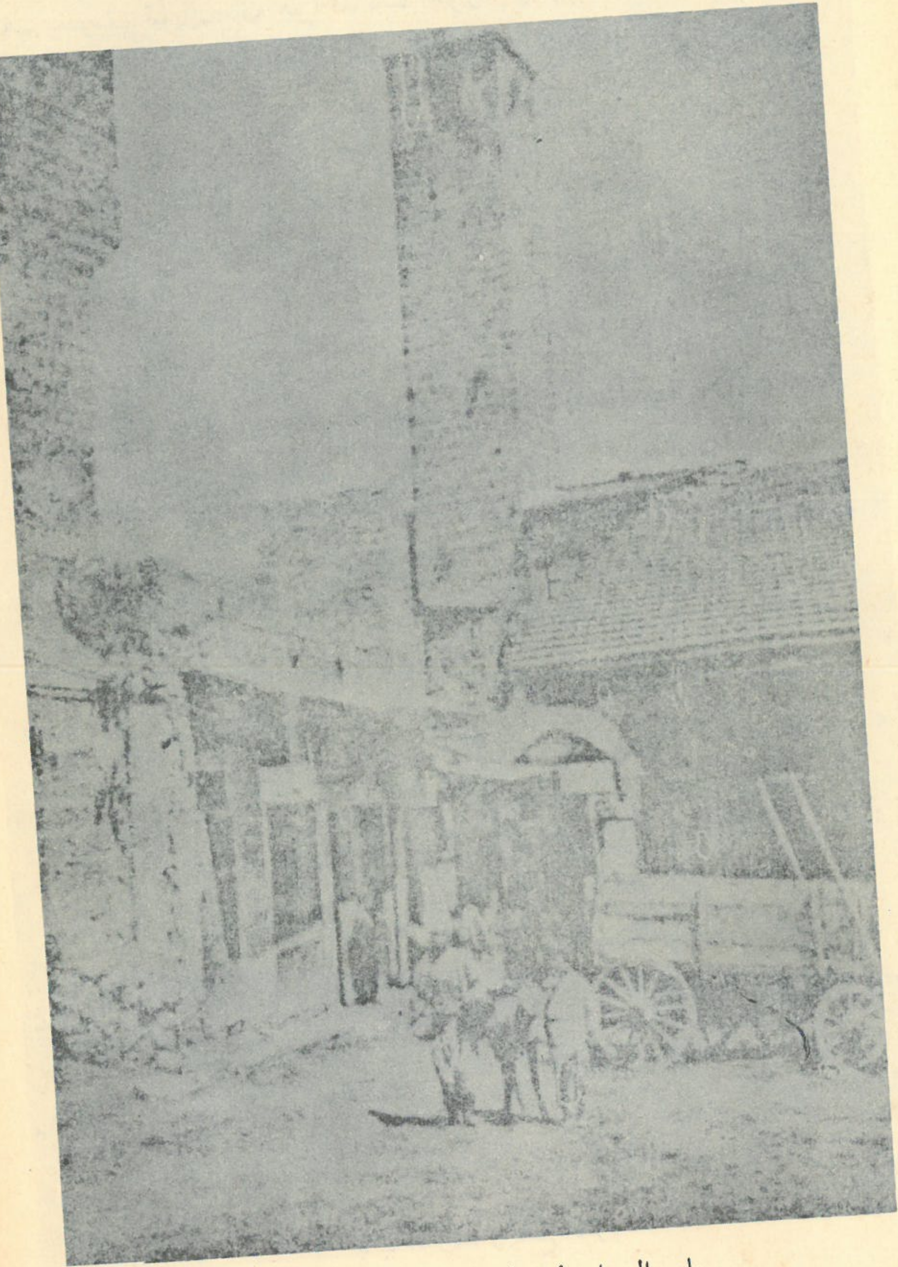
وأصبحت بيروت المحصنة تمتد داخل السور في منطقة صغيرة طولها ٦٦٠ متراً من الشمال إلى الجنوب، وعرضها ٣٨٠ متراً من الشرق إلى الغرب.

وكان لسور بيروت سبعة أبواب مصفحة بالحديد، لا يمكن دخول المدينة إلا عبرها، وهي:

- باب الدباغة: يعتبر من أكثر الأبواب ازدحاماً، لقربه من سوق الدباغين الذي حمل اسمه، ومن مرفأ بيروت حيث اتخذ مركزاً لتحصيل رسوم البضائع الصادرة والواردة.
- باب السرايا: يقع قرب سرايا الأمير فخر الدين التي تهدمت سنة ١٨٨٢ .
- باب أبي النصر: عند مدخل السوق الذي سمي باسمه من ناحية ساحة البرج، وينسب هذا الباب إلى الشيخ عمر أبي النصر اليافي.

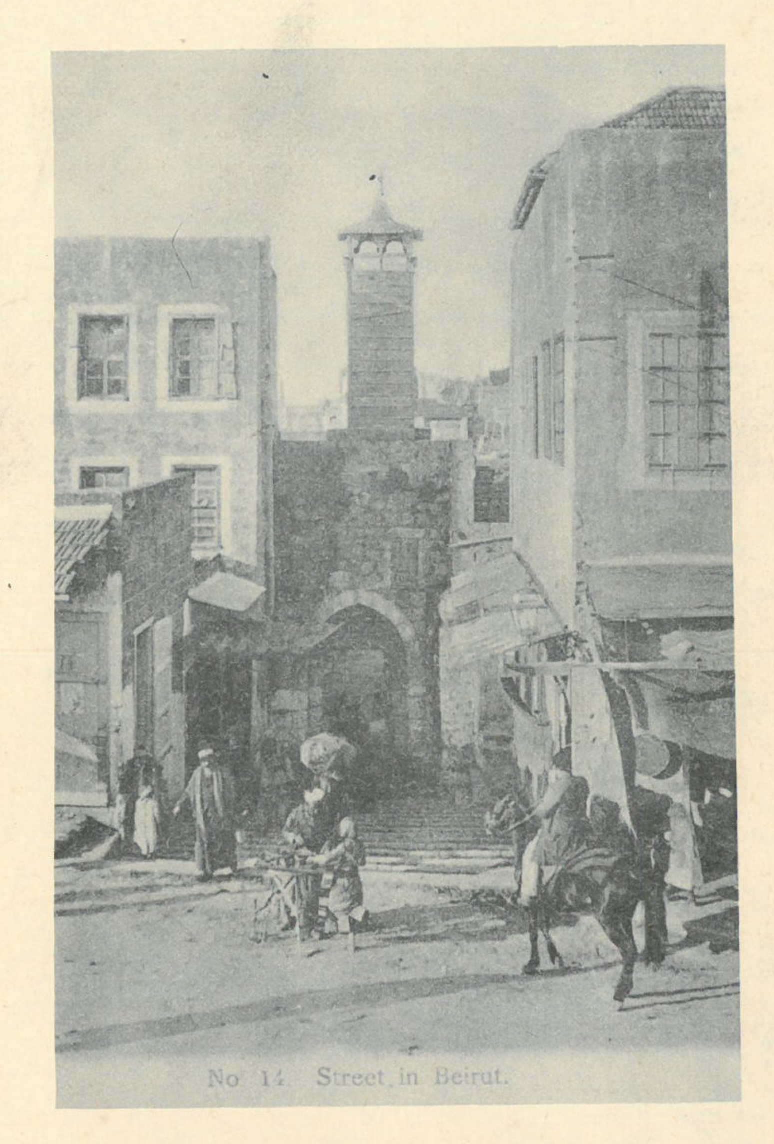
---

(١) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٣، ص ٩.
(٢) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ١، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ .

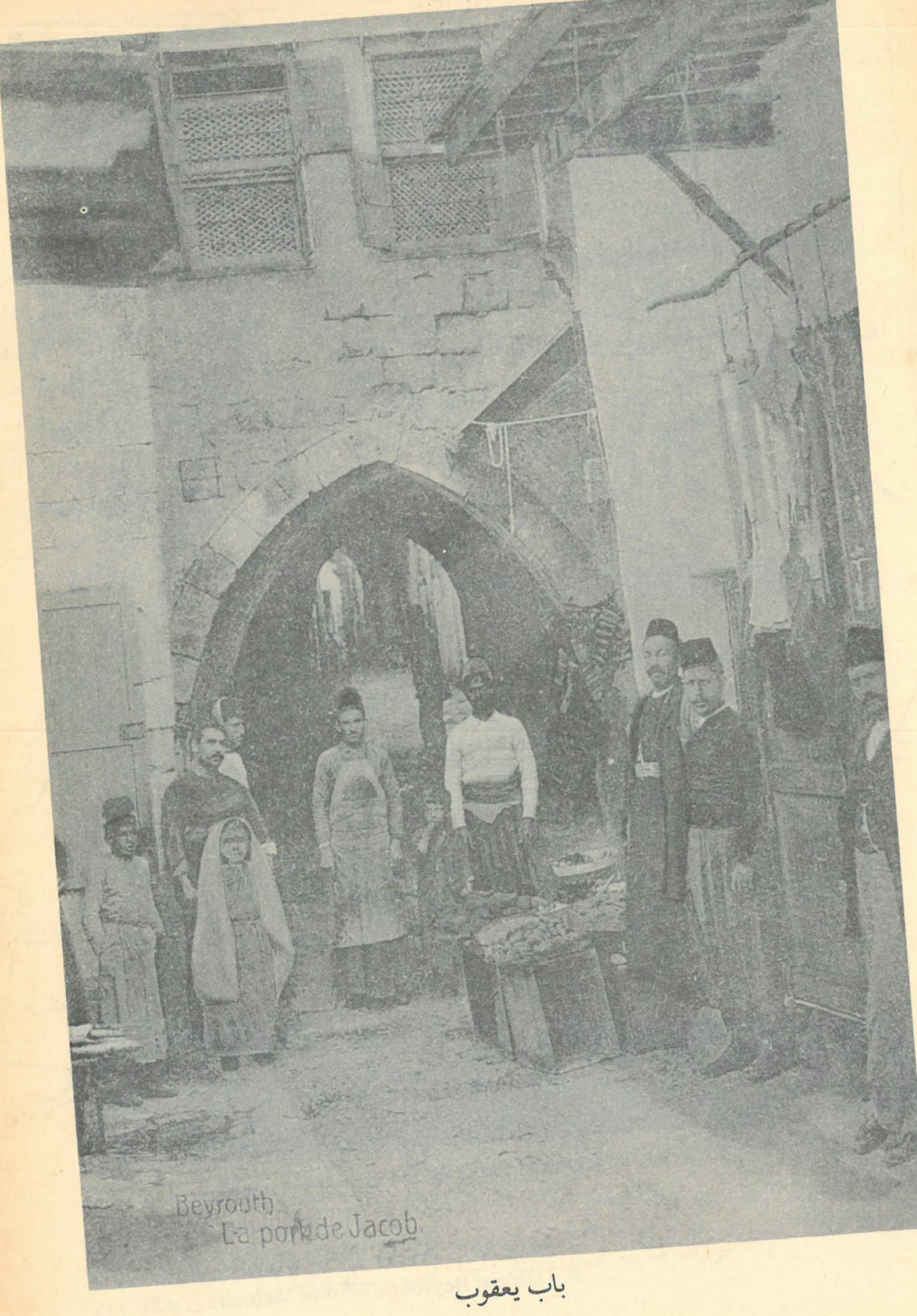


باب السراي في مطلع القرن التاسع عشر .

- باب الدركاه: من أجمل أبواب بيروت. والدركاه تعني الفندق. وقد بني جنوب المدينة بأحجار صلدة ذات ألوان طبيعية، وقد تهدَّم سنة ١٩١٥.
- باب يعقوب: قيل إن بانيه هو أحمد باشا الجزار، كما قيل نسبة إلى طبيب صيداوي يدعى يعقوب أبيلا، أو نسبة إلى يعقوب الكسرواني الذي كان يسكن فوقه.



باب الدركاه وجامع الدركاه



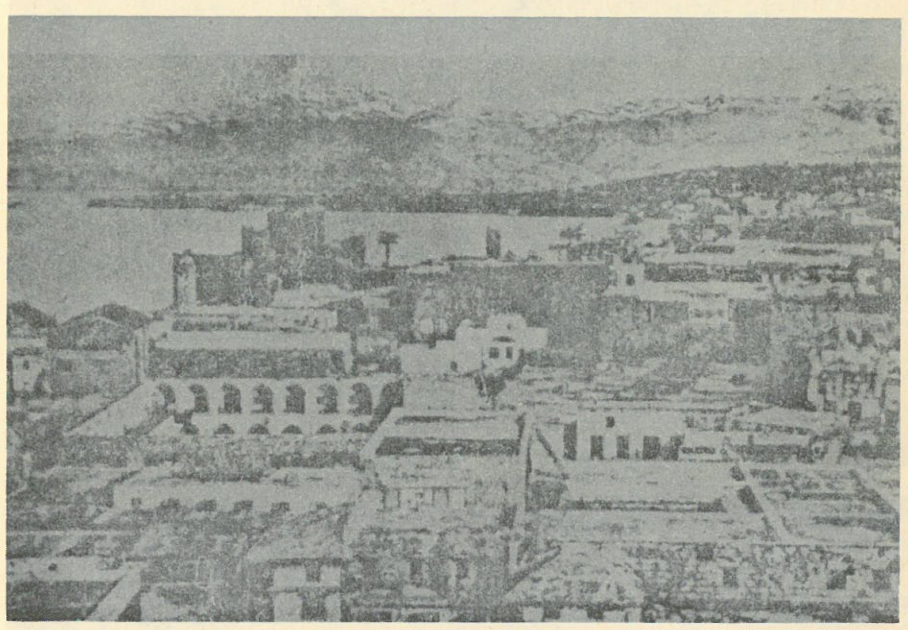
باب يعقوب

● باب ادريس: يقع غرب بيروت، وسمي كذلك نسبة إلى رجل من أسرة ادريس كان يسكن هناك، وقد هدم الباب سنة ١٨٥٩ عند توسيع أسواق المدينة.

● باب السنطية: يعتبر أصغر أبواب بيروت، ويقع شمال غرب المدينة بجانب مقبرة السنطية الإسلامية.

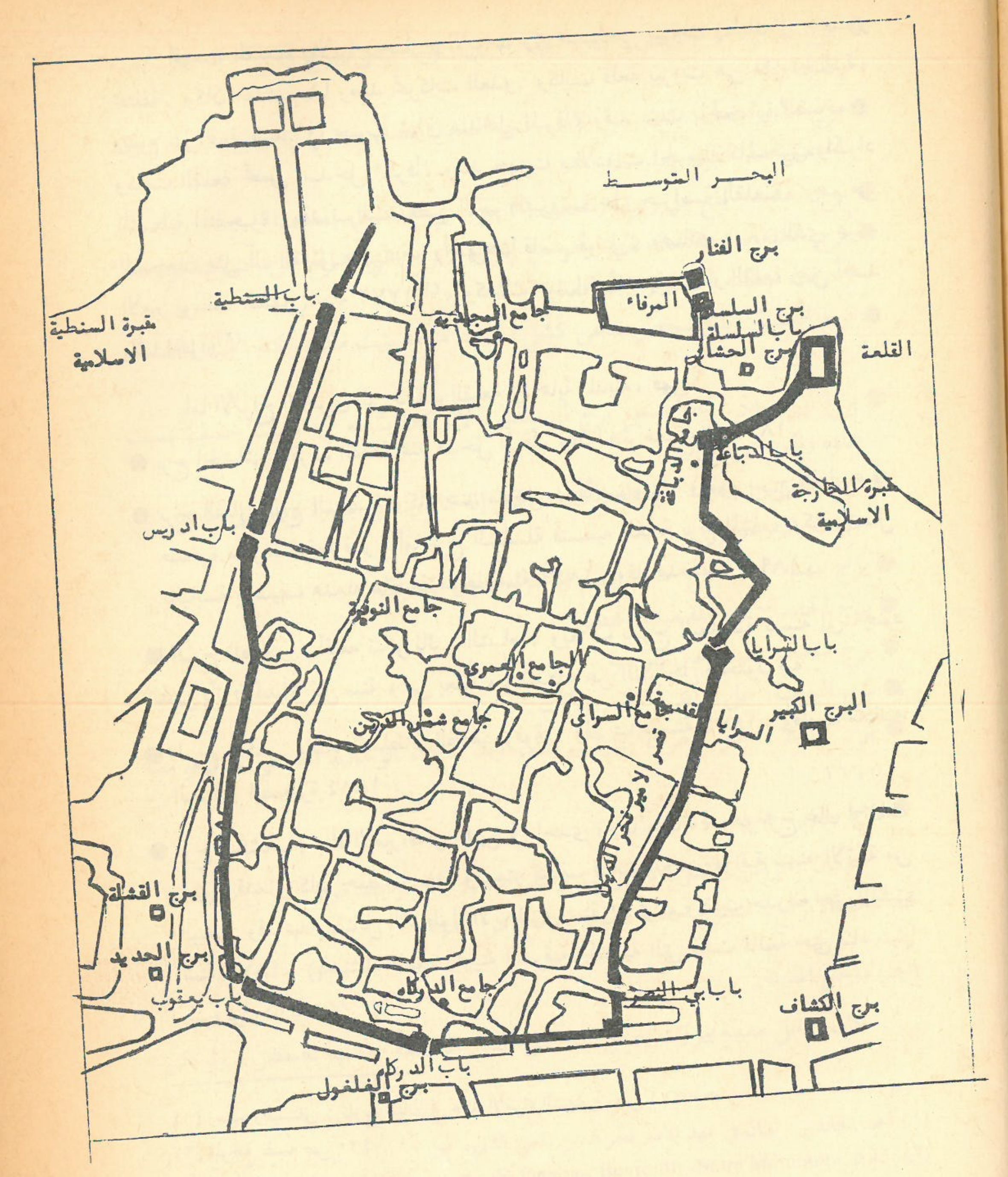
وكانت مهمة «خفاظ الأبواب»، إقفال الأبواب عند مغيب الشمس، وإنارة المصباح المعلّق إلى جانب كل باب. ثم تعطى مفاتيح الأبواب إلى متسلم بيروت الذي يحفظها عنده حتى الصباح. وكانت القوافل التي تفد ليلاً إلى بيروت، تضطر للبقاء خارج المدينة حتى يفتح الباب في الصباح(١). ووحده باب الدركاه يبقى مفتوحاً حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، لدخول القادمين الذين قد يتأخروا في الوصول(٢).

(ب) القلعة والأبراج:



بيروت القديمة وقلعة المرفأ سنة ١٨٠٠ م

(١) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ١، ص ٢٨٠ - ٢٨٢.
(٢) F. Debbas: Beyrouth «Notre Mémoire», p 51.



بيروت مدينة صغيرة تمتد داخل السور سنة ١٨٢٥ م.

أقيمت القلعة والأبراج خارج الأبواب وفي ضواحي بيروت وذلك في عصور مختلفة. وكان الهدف منها رصد تحركات العدو. وكانت قلعة بيروت هي مقر الحامية، وتقوم على قمة صخر في جنوب شرق مدخل المرفأ، وقد بنيت بالحجارة الضخمة. وكانت القلعة تحمي مدخل المرفأ، وقد جهزت بالأدوات الحربية كالمنجنيق والمواد النفطية المتفجرة. وقد توالت بعض الأسر البيروتية على حراسة القلعة، وهم من الشجعان مثل آل القوتلي وآل دية، وأشهرهم قاسم قوتلي، وصادق دية، الذي عيَّنه الأمير يوسف الشهابي سنة ١٧٧٢[1]، وكذلك عبد الله أبو دية دزدار القلعة زمن أحمد باشا الجزار[2].

أما الأبراج الأخرى التي تساند القلعة في حماية المدينة، فهي:

- برج الحشاش: قرب القلعة عند مدخل المرفأ، وقد اندثر معها سنة ١٨٧٤.
- برج الفنار وبرج السلسلة: كانا عند مدخل مرفأ بيروت. ويقوم برج الفنار على صخرة منفردة فوقها فنار. أما برج السلسلة فتسميه العامة برج الميناء، وكان يتصل باليابسة برصيف هدمته عاصفة هوجاء سنة ١٨٤٩. وقد هدما سنة ١٨٩٠.
- البرج الصغير: أقامه تنكز نائب الشام، ويعرف ببرج البعلبكية نسبة إلى الجنود الذين يأتون أبدالاً كل سنة، من بعلبك، للدفاع عن السواحل فيحلون فيه.
- البرج الكبير: بناه السلطان الظاهر برقوق، وقد تهدم سنة ١٨٧٤، وقامت مكانه السراي الصغيرة ١٨٨٤.
- برج الكشاف: بناه الأمير فخر الدين في إحدى زوايا بستانه، وهو برج عال ارتفاعه ستون قدماً، كان حصيناً جداً ومهمته كشف قوات العدو ومراقبة سفنه الآتية من البحر. وقد تهدم بقنابل الأسطول الانكليزي سنة ١٨٤٠، وبقيت جدرانه حتى أزيلت سنة ١٨٧٤، (باستثناء قاعدة زاويته الشرقية الجنوبية التي ظلت قائمة حتى بناء سينما متروبول فأزيلت)[3].

---

(١) رستم والبستاني: تاريخ لبنان في عهد الأمراء الشهابيين ص ١٠١.
(٢) المرجع نفسه ص ٤٢٠.
(٣) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ٢، ص ٢٥١؛
يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ١، ص ٢١.

- برج الأمير جمال الدين: زمن فخر الدين أيضاً وهو «برج رفيع حاكم على جميع المدينة»[1].
- برج الأمير دندن: كان زمن الأمير فخر الدين أيضاً، ويقع في طريق الشام. وقد اختفى هذا البرج بعد سنة ١٨٣١.
- برج الحديد: يقع على ربوة ارتفاعها ٣١ متراً، في محلة باب يعقوب[2].
- برج الغلغول: «الشلفون»: وهو من أقوى الأبراج التي تدافع عن جنوب بيروت. (عرفت منطقته باللعازارية فيما بعد).
- برج القشلة: بناه شخص يدعى كَشْلي، وبعد هدمه بنيت مكانه ثكنة الجند «القشلة» سنة ١٨٥٣.
- برج أبي حيدر: كان يسمى برج أبي هدير، لأنه كان يسمع فيه صوت خفيف بسبب علوه ونفوذ الرياح إليه.
- برج العريس: غرب البسطة التحتا، وقيل إنه كان يتصل بمغارة نافذة إلى المحلة التي عرفت بالمزرعة.
- برج بيهم: بناه الحاج حسين بيهم في منزله بمحلة المصيطبة.
- برج الحصن: في محلة ميناء الحصن.
- برج شعبان: قرب عين المريسة.
- برج البواب: على شاطىء رأس بيروت.
- برج شاتيلا: جنوب غرب منارة بيروت، وقد شاهده الرحالة الفرنسي دارفيو سنة ١٦٦٠.
- برج سيور: هدم سنة ١٨٥٣.

وكان الحراس يحيطون بالأبراج، وعند الشعور بالخطر يضرمون النار في شعلة على قمة أحد الأبراج، فتسرع حامية القلعة للدفاع عن المدينة[3].

(جـ) داخل المدينة:

كان داخل مدينة بيروت يضم عدداً من المباني الملتصقة بعضها بالبعض، ولم تكن

---

(١) أحمد الخالدي: لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني، ص ٦٧.
(٢) F. Debbas: Beyrouth «Notre Mémoire», p 43.
(٣) المرجع نفسه ص ٤٢.

هذه المباني تحتل كل مساحة المدينة، بل إن الأراضي الخالية كانت عبارة عن حدائق وكثبان من الرمل تنمو فيها النباتات البرية.

وكانت البيوت تنار بأسرجة زيت الزيتون، ومياه الشرب تنقل إليها في قرب من الجلد، وجرار من الفخار، على ظهور الرجال أو الحمير، أما مياه الحاجات المنزلية فتسحب من الآبار المحفورة في البيوت.

وكانت واجهات البيوت مبنية على الغالب بحجر غير منحوت، ولا تعلو الشبابيك أكثر من متر واحد، وعرضها ثلاثة أرباع المتر، يفصل بينها حاجز صغير. وبدأ استعمال الزجاج في منازل الأغنياء، بعد أن كان نادراً وجوده في مدينة بيروت[١].

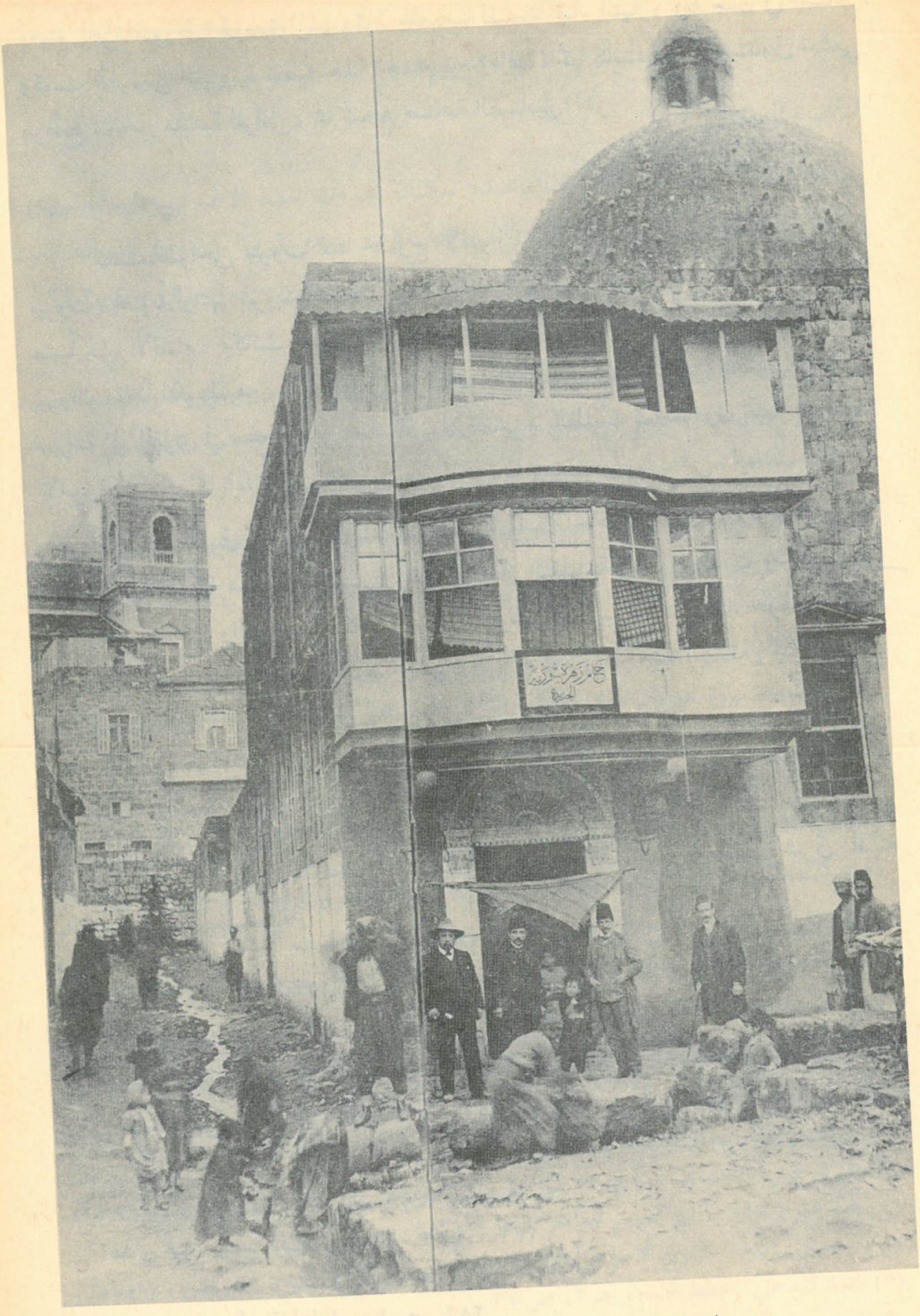
وكانت بيروت ذات ممرات ملتوية، وأزقة مظلمة، ودروب ضيِّقة، سيئة التبليط، أو بالأحرى مرصوفة بحجارة كبيرة، وفي وسطها قناة تسير فيها الحيوانات، وغالباً ما تكون مليئة بالماء[٢].

ومقاهي بيروت كثيرة- وتطل مباشرة على الشوارع كمقاهي الآستانة. والمقهى عبارة عن غرفة مظلمة، رديئة البلاط، تنتصب حولها مقاعد من الحجارة مفروشة بحصير، يجلس عليها الرواد داخل المقهى، وعلى الطريق العام. وتكتظ المقاهي بالبيروتيين بين صلاتي المغرب والعشاء، وأشهرها: مقهى عربي في محلة السور، يرتاده العامة من الناس، فيجلسون على الأرض ويلعبون بالمنقلة والداما أو يستمعون إلى «الحكواتي» يقص عليهم بطولة عنترة بن شداد وتغريبة بني هلال، أو يتفرجون على لاعبي الكركوز، وهم يشربون القهوة، وفي أفواه بعضهم الغلايين الطويلة أو النارجيلات التي كانت توضع حول الموقد[٣].

وكان يوجد في بيروت عدة حمامات، أشهرها: الحمام الكبير الذي يقع قرب السراي القديمة[٤]، وكذلك حمام السفير، وحمام الدركاه وهو حمام تركي عند باب الدركاه سمي

---

(١) هنري غيز: بيروت ولبنان، جـ ١، ص ٢٦ - ٢٧.
(٢) ادوار روبنصون: يوميات في لبنان، جـ ١، ص ٧٥ - ٧٧.
(٣) لويس لورته: مشاهدات في لبنان، ص ٤٥.
هنري غيز: بيروت ولبنان، ص ٣٠ - ٣١.
(٤) هنري غيز: بيروت ولبنان، جـ ١، ص ٣٨.



حمام زهرة سورية الجديدة وخلفه الكاتدرائية المارونية

«حمام زهرة سورية الجديدة»(١)، وكان مخصصاً للنساء أثناء النهار، وللرجال في المساء. وكانت العروس البيروتية تقصد هذا الحمام يوم زفافها، كما كانت تتزود بصندوق خشبي مرصَّع بمسامير مذهبة الرأس، مما شجع صناعة الصناديق(٢).

(د) ـ الضواحي:

كانت ضواحي بيروت تمتد خارج الأسوار، ولا تتجاوز غابة الصنوبر (حرج بيروت) جنوباً أو نهر بيروت شمالاً. وهذه المسافة يمكن اجتيازها بأقل من نصف ساعة مشياً على الأقدام. وكانت سلطة متسلم بيروت لا تمتد وراء هذه الضواحي، مما جعل بيروت ملجأ للمظلومين والمنكوبين، وخاصة الأغنياء منهم، الذين يمكنهم مغادرتها بسرعة إلى القرى في سفح الجبل عند أقل بادرة تنبىء بالظلم، ثم يعودون إليها حين تهدأ الأمور.

وكانت الطرق خارج بيروت تتفرع من أبوابها باتجاهات مختلفة، وهي عبارة عن ممرات رملية ضيِّقة مسيَّجة بالصبير، أشهر الأثمار التقليدية وقتها. وكانت وسائل النقل هي المشي والخيل والدواب. وكانت بساتين التوت تحيط ببيروت، وتمتد حولها، وبينها كروم العنب والتين والزيتون وشجر الجميز والزلزلخت، وأكثر هذه البساتين محاطة بسياج من الصبير(٣).

وقد أقيمت المقابر في الضواحي، خارج سور بيروت، وأشهرها مقبرة الخارجة الإسلامية التي تقع في شمال غرب المدينة، جنوب القلعة، وتشاهد عند الخروج من بابي الدباغة والسراي. أما مقبرة السنطية الإسلامية فكانت تقع في شمال شرق المدينة بالقرب من باب السنطية.

وكانت الإقامة خطرة جداً خارج سور بيروت، وكانت أولى المنازل التي بنيت خارج السور نحو سنة ١٢١٦/١٨١٠، عبارة عن أكواخ صغيرة استخدمت لإيواء دودة القز. وقيل إن أوائل الأسر التي أقامت في دار خارج السور، هي أسرة بسُّول، وهي مشتقَّة من باسل أي الشجاع(٤). وكان يطلق على أبناء الضواحي اسم «أولاد

(١) F. Debbas: Beyrouth «Notre Mémoire», p 82.
(٢) هنري غيز: بيروت ولبنان، جـ ١، ص ١٣٢ ـ ١٣٦.
(٣) ادوارد روبنصون: يوميات في لبنان، جـ ١، ص ٧٧.
(٤) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ١، ص ٢٨٢.

البرية»، وهم قوم شديدو الشكيمة، متمسكون بفروض الدين، وإذا جاؤوا إلى بيروت قالوا: «كنا في المدينة»، أو «بدنا ننزل للمدينة».

(هـ) السكان:

سنة ١٢٠٦/١٧٩١ كان عدد سكان بيروت ستة آلاف نسمة، وفي سنة ١٢٣٦/١٨٢٠، أصبح عدد السكان ثمانية آلاف نسمة تقريباً(١). وقيل إن الطاعون الذي فتك بالمتن والعبادية، وأمات الكثير من سكانها في سنتي ١٢٤٢ ـ ١٢٤٣/١٨٢٦ ـ ١٨٢٧، قد جاء من بيروت(٢).

وسنة ١٢٤٧/١٨٣١، كانت بيروت تعتبر رابعة مدن سوريا، بالنسبة لعدد سكانها الذي لا يتجاوز الخمسة عشر ألفاً، وتأتي بعد دمشق وحلب وطرابلس. وكان نصف سكانها من المسلمين، يليهم الروم الأرثوذكس فالدروز والموارنة(٣).

هكذا كانت بيروت مدينة صغيرة تمتد داخل السور عندما هاجمها الأسطول اليوناني.

٨ ـ الأسطول اليوناني يقصف بيروت (١٢٤١/١٨٢٥):

قامت ثورة اليونان ضد الحكم التركي في ٢٥ آذار ١٨٢١، وكانت المساعدات الأوروبية تتوافد على الثوار وخاصة من روسيا، مما هدَّد الدولة العثمانية وبالتالي المدن العربية الإسلامية(٤). وسرعان ما هاجم الأسطول اليوناني موانىء الدولة العثمانية، وخاصة الاسكندرية مفتاح مصر وقاعدتها وبيروت مفتاح سوريا وقاعدتها، وذلك للتحكم في دفاع المنطقة بحرياً. وقد قصف الأسطول اليوناني بيروت سنة ١٢٤١/١٨٢٥(٥)، وتوقف في البحر تجاه برج أبي هدير (برج أبي حيدر)، ونصبت السلالم على السور شرقي المدينة، ودخل بعض البحارة اليونانيين المدينة، لكنهم انسحبوا بسرعة وأقلع الأسطول

(١) جمال حمدان: المدينة العربية، ص ١٨٧.
(٢) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ٣، ص ١٩٣.
(٣) هنري غيز: بيروت ولبنان، جـ ١، ص ٢٠.
(٤) عبد العزيز نوار: تاريخ العرب المعاصر «مصر والعراق»، ص ١٢١.
حسين مؤنس: الشرق الإسلامي في العصر الحديث، ص ٢٠٧.
(٥) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٣، ص ٣٧.

بعد مقتل أحد البحارة إلى الساحل جنوب بيروت (بين مار الياس بطينا والجناح). وفي الهجوم الثاني، قتل سبعة من البحارة المهاجمين وخمسة من المسلمين المدافعين، وأعطى الأمير بشير الشهابي الثاني أوامره إلى القوة المرابطة في حرج بيروت للمساندة، فاضطر الأسطول اليوناني للانسحاب نحو بلاده نتيجة بسالة رجال بيروت، تدعمهم قوات الأمير بشير[1].

وقد طلب السلطان العثماني محمود من والي مصر محمد علي باشا أن يخضع ثورة اليونان[2]. فاستطاعت القوات المصرية ـ التركية احتلال بعض المدن اليونانية في سنتي ١٢٤١ ـ ١٢٤٢ / ١٨٢٥ ـ ١٨٢٦، ثم العاصمة أثينا سنة ١٢٤٣/١٨٢٧، مما أدى إلى تحرك الدول الأوروبية فانقضت على الأسطول المصري ـ التركي في نافارين (٢٠ تشرين الأول ١٨٢٧). واضطر محمد علي باشا للجلاء عن اليونان، بعد أن قويت في نفسه فكرة إعلان الاستقلال، عن طريق محاربة تركيا، وضم سوريا إلى مصر[3].

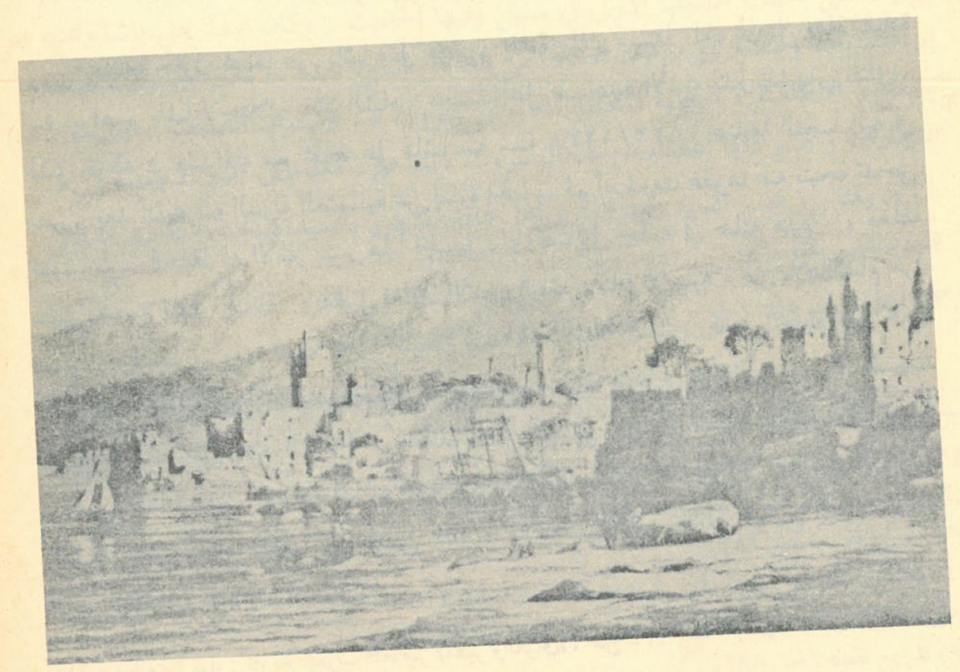
(١) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ١، ص ٢٤.
(٢) عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، ص ٢٠٩.
(٣) عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، ص ٢٢٢ ـ ٢٤٢.
عبد العزيز نوار: تاريخ العرب المعاصر «مصر والعراق»، ص ١٢٦.

الفصل الرابع

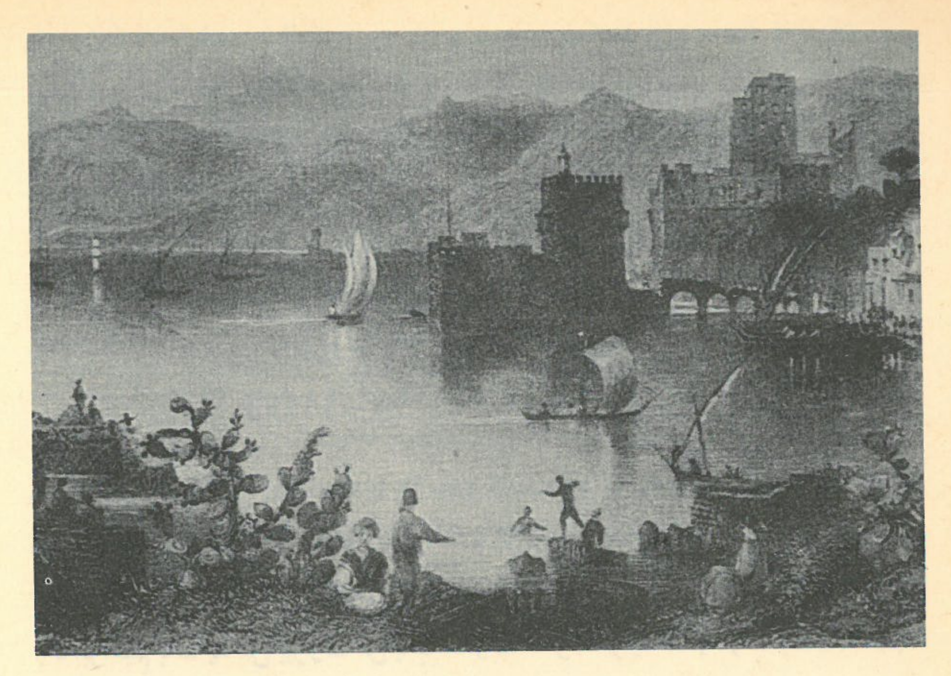
بيروت تحت الحكم المصري
(١٢٤٧ ـ ١٢٥٧/١٨٣١ ـ ١٨٤٠)

طمع محمد علي بضم سوريا إلى مصر لتأسيس دولة قوية، تحيي عهد الفاطميين والأيوبيين والمماليك، حين كانت مصر تضم إلى رقعتها سورية وجزيرة العرب. فأرسل ابنه ابراهيم باشا على رأس حملة قوية، لتنفيذ هذا المشروع.

١ ـ ابراهيم باشا يدخل بيروت من باب الدركاه نحو السرايا القديمة (١٢٤٧/١٨٣١):



بيروت (١٨٣١ ـ ١٨٣٦)



مرفأ بيروت سنة ١٨٣٤ .

عندما حاول محمد علي باشا والي مصر، إقامة ملك مستقل له، أرسل حملة بقيادة ابنه ابراهيم باشا لاحتلال بلاد الشام، معتمداً على مساعدة الأمير بشير الشهابي الثاني، الذي توطدت صداقته مع محمد علي باشا منه سنة ١٢٣٨/١٨٢٢ عندما التجأ إليه في مصر، بعد أن عزلته الدولة العثمانية عن إمارة الجبل، ثم أصدرت عفوها عنه نتيجة تدخل محمد علي، فحفظ له الأمير بشير هذا الجميل، ووقف إلى جانبه في حملته هذه[١]، معلّقاً مصيره بمصير تلك الحملة. وبفضل تعاون الأمير والباشا، كان الاستيلاء على بلاد الشام أمراً يسيراً. وكانت بيروت تابعة لوالي صيدا عبد الله باشا، الذي رفض تسليم الفلاحين المصريين الفارين من الخدمة العسكرية إلى محمد علي، فتذرع هذا الأخير بهذا السبب ليقوم بحملته على بلاد الشام[٢]. وهكذا دخل الجيش المصري عكا ودمشق وطرابلس وحمص، أما بيروت فقد دخلها ابراهيم باشا من باب الدركاه وشق طريقه نحو السرايا القديمة، التي بناها الأمير فخر الدين الثاني، في موكب فخم تظلله أقواس النصر ومعالم الزين والقباب سنة ١٢٤٧/١٨٣١ .

(١) عبد العزيز نوار: تاريخ العرب المعاصر «مصر والعراق»، ص ١٣٥ .
(٢) عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

٢ - تعيين محمود نامي بك محافظاً على بيروت (١٢٤٩/١٨٣٣):

وبعد دخوله بيروت، ألغى ابراهيم باشا التقسيمات الإدارية في بلاد الشام[١]، واتخذ مقره العام في أنطاكية. وعيّن محمد شريف بك حاكماً على سوريا سنة ١٢٤٨/١٨٣٢[٢]، كما جعل سليمان باشا الفرنساوي حاكماً على ولاية (عكا) وذلك مكان عبد الله باشا، الذي سلّم نفسه بعد سقوط عكا فأرسله ابراهيم باشا إلى الاسكندرية، حيث أحسن محمد علي باشا مثواه، وأنزله في قصر مخصّص له[٣].

ثم عيّن ابراهيم باشا متسلمين على المدن الساحلية مثل بيروت وصيدا وصور وطرابلس. وسنة ١٢٤٨/١٨٣٢ فوّض الأمير بشير الشهابي الثاني بإدارة هذه المدن، فولّى عليها متسلمين من أقاربه، وأرسل الأمير بشير ابنه الأمير ملحم حيدر متسلماً على بيروت، وقد بعث برسالة إلى قاضي بيروت الشيخ يونس البزري في ١٠ كانون الأول ١٨٣٢ يعلمه بتوجه ابنه ليتسلّم بيروت. وظلّت بيروت وصيدا وصور تابعة لحكم الأمير بشير، وفي كل منها ممثل لابراهيم باشا[٤]. وقد عيّن ابراهيم باشا محمود نامي بك محافظاً على بيروت لمدة سبع سنوات (١٢٤٩ - ١٢٥٦ / ١٨٣٣ - ١٨٤٠) [٥]، وهو أحد ضباط البحرية، تخصص بمادة الرياضيات في فرنسا، فانعكست ثقافته على تسيير أمور بيروت التي خطت خطوتها الأولى في سبيل رقيها الحديث. وكان محمد علي باشا وابنه إبراهيم باشا وعامله على بيروت محمود نامي بك من الذين آمنوا بالأفكار الحديثة، فرغم سلطتهم المطلقة، شكّلوا «مجلس شورى بيروت»، وديوان الصحة، وديوان التجارة، وتضم كلها أعضاء من سكان بيروت، يتباحثون معهم في جميع الأعمال[٦].

وقد برز اسم السيد عبد الفتاح آغا حمادة المشهور بالسيد فتيحة، كأحد معاوني محمود نامي بك.

٣ - ازدهار بيروت (حرج الصنوبر، المرفأ، المحجر الصحي...):

قام السيد عبد الفتاح آغا حمادة بغرس أشجار الصنوبر في ضاحية بيروت جنوباً،

(١) عبد العزيز عوض: الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ص ٦٣ .
(٢) عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، ص ٢٩٤ .
(٣) المرجع نفسه، ص ٢٥٩ .
(٤) يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ١٢ .
(٥) عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، ص ٢٩٥ و٢٩٧ .
(٦) المرجع نفسه، ص ٢٩٨ .

والواقع أن غرسها زيد في عهده لأن غابة الصنوبر هذه قديمة منذ العصر الروماني(١)، وقد جدَّد زرعها الأمير فخر الدين الثاني.

واستمرت بيروت وحيفا وطرابلس وانطاكية واسكندرون، كموانىء يكثر قدوم السفن الأوروبية إليها، وهي المحطات الرئيسية لتجارة الشرق(٢).

وازدهرت تجارة بيروت، بعد أن رخص ابراهيم باشا للأجانب في إرسال معتمديهم إلى دمشق وكانوا يمنعون من دخولها، فنزل وكلاؤهم السواحل مثل بيروت وصيدا وعكا وطرابلس(٣). وتقدَّم مرفأ بيروت على المرافىء السورية الأخرى، مما أدَّى إلى إقامة عدد كبير من التجار في بيروت، إضافة إلى القناصل ووكلاء الدول الأوروبية المختلفة(٤).

وكانت بيروت تصدِّر الحرير الخام والقطن والزيتون والتين إلى القاهرة ودمشق وحلب. وكان رصيف مرفأ بيروت يتألف في بعض أجزائه من أعمدة غرانيتية قديمة، وبإزاء الماء قامت جملة من مباني القنصليات الأجنبية(٥). وقد ساعد في ذلك، توسيع ميناء بيروت بعد ردم الميناء الصغير(٦). وكان السواح يصلون مرفأ بيروت بواسطة السفن الأوروبية المختلفة، لأنهم يجدون بيروت خير نقطة يبدأون منها سياحتهم في الشرق(٧).

ثم أنشأ ابراهيم باشا «المحجر الصحي»، شرق قلعة المرفأ في سنة ١٢٥٠/١٨٣٤، ويبعد قليلاً عن جامع الخضر. وقد استطاع هذا المحجر أن يقي بيروت وسوريا، طوال خمسة عشر شهراً من الطاعون الذي كان متفشياً في القسطنطينية وأزمير وقبرص ومصر، وهي البلدان التي كانت تفد منها السفن المشحونة بالركاب والبضائع إلى مرفأ بيروت(٨).

---

(١) ادوارد روبنصون: يوميات في لبنان، جـ ١، ص ٧٣.
يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ١، ص ٢٤.
(٢) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٤، ص ٢٤٨.
(٣) المرجع نفسه، جـ ٣، ص ٥٨.
(٤) جون كارن: رحلة في لبنان، ص ٩ - ١٥.
(٥) المصدر نفسه، ص ٢٦٩ - ٢٧٠.
(٦) ادوارد روبنصون: يوميات في لبنان، جـ ١، ص ٧٣ - ٧٧.
(٧) جون كارن: رحلة في لبنان، ص ٢٧٠.
(٨) هنري غيز: بيروت ولبنان، جـ ١، ص ٥٤.

وقد سمي المحجر الصحي بـ «الكرنتينا»، لأن المسافرين كانوا يعزلون في الأبنية التي يتألف منها، خوفاً من تفشي الأمراض المعدية في حال إصابتهم بها. وكانت مدة العزل تصل أحياناً إلى ٤٠ يوماً، أي «Quaranteine»(١)، ومن هنا تسميته بـ «الكرنتينا».

وعندما زار إدوارد روبنصون بيروت في سنة ١٢٥٤/ ٢٧ حزيران ١٨٣٨، ذكر أن النطاق الصحي رفع عن بيروت أو جرى إهماله، لأنه لم تقع إصابات بالطاعون منذ أسبوعين أو ثلاثة أسابيع(٢).

٤ - استياء مسلمي بيروت من الحكم المصري (١٢٥٠/١٨٣٤):

بدأ تذمر أهل بيروت وبلاد الشام من الحكم المصري سنة ١٢٥٠/١٨٣٤، وذلك بسبب احتكار ابراهيم باشا أصناف الحرير، وفرض ضريبة جديدة. وزاد الحنق بنزع السلاح من الأهالي، حتى بلغ ذروته بتطبيق سياسة التجنيد الإجباري على الشبان المسلمين. وخاصة أن الحكومة المصرية عهدت بجمع أسلحتهم إلى الأمير أمين المشهور بمسيحيته، كما كان الجنود المصريون يداهمون المنازل وحتى الجوامع وقت صلاة الجمعة، بحثاً عن الشبان لتنفيذ الخدمة العسكرية، فيقتاد البعض في حين يتوارى البعض الآخر من وجه السلطة(٣).

أما النصارى الذين كانوا يدفعون الخراج، فقد أعفوا من الخدمة العسكرية، وكانت الضرائب تستوفى منهم دون زيادة، ولا يصادر منهم شيء إلا بعد دفع ثمنه، وتم تسليف الأموال للفلاحين منهم الذين قطنوا القرى المهجورة، لإصلاح بيوتهم وتموينها، وأعفوا من الضرائب مدة ثلاث سنوات(٤).

وقد أخطأ ابراهيم باشا في عدم استمالة المسلمين في بيروت وغيرها من المدن، بدلاً من استمالة النصارى بصفة عامة والموارنة بصفة خاصة. فشعر المسلمون بالقهر والذل، في حين اغتبط النصارى لنجاتهم من التعصب الذي أوصلهم إلى درجة من الذل لا تطاق.

---

(١) F. Debbas: Beyrouth «Notre Mémoire», p 204.
(٢) ادوارد روبنصون: يوميات في لبنان، ص ٧٣ - ٧٤.
(٣) هنري غيز: بيروت ولبنان، جـ ٢، ص ١٦٧ - ١٦٨.
(٤) مخائيل مشاقة: مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، ص ١٢٥.
محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٣، ص ٦٩.

وقد أدّى الحكم المصري الجديد أيضاً إلى تضرر مصالح الأمراء الإقطاعيين، الذين أظهروا الاستياء والتذمر، وقامت الثورات في فلسطين، والاضطرابات في دمشق وطرابلس وعكار وصافيتا والحصن، فأخمدها ابراهيم باشا. كما وقعت اضطرابات أقل شأناً منها في حلب وأنطاكية وبعلبك وبيروت[1].

ولا يمكن أن نغفل دور انكلترة ودسائسها التي ساعدت كثيراً في تأجيج الصدور ضد الحكم المصري، بعد أن خشيت منه ومن الدولة المصرية بقيادة محمد علي باشا، فسعت إلى تحالف أوروبي مع تركيا لتجريد مصر من قوتها العسكرية[2].

٥ ـ التحالف التركي ـ الأوروبي وقصف بيروت (١٠ ـ ١١ أيلول ١٨٤٠):

لم يكن الاستياء من الحكم المصري كافياً لوضع نهاية له، والحقيقة أن الحملة المصرية على بلاد الشام وانتصارها على الأتراك العثمانيين في معركة قونية (كانون الأول ١٨٣٢)، وتوقيع اتفاقية كوتاهية للصلح (نيسان ١٨٣٣)[3]، كانت عنصراً رئيساً في تفجير الصراع الدولي في المنطقة ضمن إطار المسألة الشرقية[4]، بعد أن خيل للعالم أن الضربة القاضية لتفكيك الدولة العثمانية أصبحت وشيكة الوقوع[5].

لذلك قررت انكلترة تجريد مصر من أسطولها البحري، حتى تعجز عن إمداد قواتها في الشام عن طريق البحر، وأمرت الكومودور شارل نابييه Napier بأسر الأسطول المصري أو تدميره، وكانت بعض السفن الحربية المصرية في مرفأ بيروت. وكانت فرنسا تؤيد مصر في حربها، فأرسلت إحدى سفنها لتبلغ ابراهيم باشا بما تضمره انكلترة، وعلى الفور عادت السفن المصرية إلى الاسكندرية. وعندما جاء نابييه إلى بيروت لم يجدها، وظل في عرض البحر ينتظر الفرصة لتنفيذ مهمته[6]. وبالمقابل أخذ سليمان باشا، «حاكم سوريا وقائد القوات المصرية»، في تحصين بيروت وغيرها من الثغور السورية

(١) عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، ص ٣٠٦.
محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٣، ص ٥٨ و٦٣.
(٢) مخائيل مشاقة: مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، ص ١٢٦.
عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، ص ٣٣٩.
(٣) أسد رستم: بشير بين السلطان والعزيز، جـ ١، ص ٩٤.
(٤) أحمد طربين: أزمة الحكم في لبنان، ص ٤٥ ـ ٤٦.
(٥) أسد رستم: ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا، ص ١١٩.
(٦) عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي باشا، ص ٣٣٨.

توقعاً لمواجهة الأسطول الانكليزي.

وفي أوائل آب ١٨٤٠، حاصر الأسطول الانكليزي سواحل مصر والشام. ورجع الكومودور نابييه إلى بيروت واستولى في طريقه على كل ما صادفه من المراكب المصرية حربية كانت أم تجارية، وأنذر الجيش المصري بإخلاء بيروت وعكا في أقرب وقت. وكان ابراهيم باشا قد استعد للدفاع عن بلاد الشام، فجاء إلى بيروت وعسكر في ضواحيها.

وأمام التحالف التركي ـ الأوروبي، جاء أسطول دولي، بقيادة الأميرال الانكليزي روبرت ستوتفورد، والأميرال النمساوي بانديارا، ويتألف من ثلاث وعشرين سفينة حربية انكليزية وخمس تركية وثلاث نمساوية، تحمل بين عشرة وخمسة عشر ألف جندي تركي وألفي جندي أوروبي. ونزلت قوات الحلفاء في ميناء جونية شمال بيروت. أما القوات المصرية المرابطة في بيروت، فكانت تتألف من عشرة آلاف جندي. وأرسل الأميرال الانكليزي إنذاراً إلى سليمان باشا يأمره بإخلاء بيروت فوراً، فطلب سليمان باشا مدة أربع وعشرين ساعة لمراجعة ابراهيم باشا في الأمر، فلم يقبل طلبه[1].

وفي الساعة الثامنة من صباح يوم الجمعة ١٠ أيلول ١٨٤٠، رست بارجة انكليزية تجاه المحجر الصحي «الكرنتينا»، وقذفت «الباكسترانس» ببعض قنابلها. ثم جاءت بارجة نمساوية لمساعدة البارجة الانكليزية بقصف المحجر الصحي، بالرغم من وجود العلم الأسود عليه للدلالة على أنه مستشفى عسكري. وفي هذه الأثناء اتجهت أربع سفن انكليزية نحو جنوب شرق رأس بيروت، في محاولة الخداع بأنها ستقوم بعملية إنزال على الشاطىء، ثم اتجهت في الساعة التاسعة نحو جونية. لكن هذه الحيلة لم تنطل على القوات المصرية المرابطة في رأس بيروت، فلم تطلق بندقية أو مدفعاً. وكانت خطة سليمان باشا أن يدع القوات التركية والانكليزية تنزل إلى البر، لمحاصرتها والقضاء عليها[2]. وتابعت مدفعية الأسطول قذف بيروت والمحجر الصحي بالقنابل، مما أدّى إلى قتل النساء والأطفال والشيوخ والفلاحين أكثر مما قتل من الجنود.

وفي الساعة السادسة من صباح يوم السبت ١١ أيلول ١٨٤٠، عادت المدفعية الانكليزية تقصف بيروت، وأرسل الأميرالان الانكليزي والنمساوي رسالة إلى قائد القوات المصرية يطلبان فيها تسليم بيروت وسحب الجنود المصريين منها، وإلا فإن المدينة

(١) عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي باشا، ص ٣٤٣.
(٢) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ٣، ص ٤٢٨ ـ ٤٢٩.

ستقصف بعنف. وكان رد سليمان باشا رفض تسليم المدينة، وأنه إذا فشل في الدفاع «فلن تُستوليا على بيروت إلا بعد أن تصبح هذه المدينة رماداً»(١).

ونتيجة قصف الأسطول الانكليزي يومي ١٠ و١١ حزيران ١٨٤٠(٢)، تهدَّم سور بيروت تهدماً يكاد يكون كاملاً كما دمرت جانباً وافراً من أحسن أبنيتها القائمة على أطرافها، وتهدم البرج الكشاف(٣)، وأحرق الأسطول المصري. ورغم ذلك ترددت قوات التحالف التركي ـ الأوروبي في احتلال بيروت، التي بقيت تحت سيطرة الجيش المصري شهراً، ظهر خلاله عامل جديد كان له تأثير سيء في مركز القوات المصرية. فبعد أن كان الموارنة بجانب الحكم المصري في البداية، وقفوا إلى جانب الحلفاء للمساعدة في طرد المصريين(٤)، وذلك بعد أن غرس الانكليز بذور الثورة في النفوس، وبعد نزول قوات الحلفاء في أماكن مختلفة على الشاطىء السوري، ولا سيما على مقربة من نهر الكلب وجونية، حيث تم توزيع ثلاثين ألف بندقية على الفلاحين في الجبل. واستولى الحلفاء على جبيل ثم البترون، واحتلوا حيفا وصور وصيدا، ثم سقطت بيروت في تشرين الأول ١٨٤٠ ، بعد أن انتصروا على القوات المصرية في معركة بحرصاف. وجلا المصريون عن طرابلس واللاذقية وأدنة من غير قتال، ثم استسلمت عكا في ٤ تشرين الثاني ١٨٤٠، وكذلك يافا ونابلس.

٦ ـ نهاية الحكم المصري ونفي الأمير بشير الثاني عن طريق بيروت بحراً:

أسفر التحالف التركي ـ الأوروبي بزعامة انكلترة ، عن نهاية الحكم المصري لبيروت والشام. واحتشدت القوات المصرية قرب دمشق لتنسحب جنوباً في كانون الأول ١٨٤٠ نحو مصر، فوصلتها بعد أن لاقت الأهوال والمصاعب والخسائر خلال الانسحاب(٥).

أما الأمير بشير الشهابي الثاني فقد عرض على الحلفاء انضمامه إليهم عندما رأى أن الوضع لصالحهم، لكنهم لم يطمئنوا إليه لوقوفه إلى جانب ابراهيم باشا، فأرسل إلى

(١) يوسف يزبك : أوراق لبنانية ، م ٣، ص ٤٣٠ ـ ٤٣١ .
(٢) أسد رستم: بشير بين السلطان والعزيز، جـ ٢، ص ٢٠٤ .
(٣) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ١، ص ٢١ .
(٤) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ٣، ص ٦٦ .
(٥) عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، ص ٣٤٩ ـ ٣٥١.

بيروت ومنها حملته سفينة انكليزية إلى منفاه في جزيرة مالطة في تشرين الثاني ١٨٤٠، ثم إلى اسطنبول حيث توفي سنة ١٨٥٠ (١).

وبدخول الحلفاء بيروت، أبقي على السيد عبد الفتاح آغا حمادة متسلماً رئاسة مجلسها العالي. وبرحيل محمود نامي بك مع القوات المصرية، تولى بيروت زكريا باشا ثم سليم باشا فعزت باشا(٢).

(١) عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، ص ٣٤٤.
لجنة من الأدباء: لبنان مباحث علمية واجتماعية، جـ ١، ص ٣٥٦.
(٢) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ١، ص ٢٥.

الفصل الخامس

موقف بيروت الإسلامية من الحروب الأهلية
(١٢٥٦ - ١٢٧٧/١٨٤٠ - ١٨٦٠)

ما إن تخلصت بيروت من الحكم المصري حتى مرَّت بفترات غير مستقرة (١٢٥٦ - ١٢٧٧/١٨٤٠ - ١٨٦٠)، نتيجة الحروب الأهلية بين الدروز والموارنة، والتي توقد نارها الدسائس الأجنبية، وخاصة فرنسا وانكلترة. كما لم يكن من مصلحة الدولة العثمانية أن تسود الإلفة بين الطوائف، فكان أكثر رجالها يوقدون جذوة التعصب الديني[1]، حتى يتيسَّر لها نزع الحكم من أرباب النفوذ والإقطاعات، وتجعل لجبل لبنان والياً، كما لطرابلس وصيدا والقدس وحلب ودمشق.

١ - امتداد فتنة (١٢٥٧/١٨٤١) إلى ساحل بيروت:

بعد نفي الأمير بشير الشهابي الثاني، أقامت الدولة العثمانية مكانه الأمير بشير قاسم الشهابي الثالث حاكماً على جبل لبنان، وفي عهده بدأ الصراع بين الدروز والموارنة سنة ١٢٥٧/١٨٤١، وكثرت الفتن والمناوشات والاضطرابات الدامية التي امتدت إلى ساحل بيروت[2]. وقيل إن لوالي صيدا عبد الله باشا، علاقة في إضرام نار الفتنة بغية إلغاء الإمارة في جبل لبنان وتحويلها إلى ولاية عثمانية صرف كسائر الولايات. فعزل الأمير بشير الثالث وأحضره من دير القمر إلى بيروت.

وانتهى الحكم الإقطاعي العائلي، وعيِّن عمر باشا النمساوي الأصل التركي التابعية حاكماً على جبل لبنان، فلم يرض ذلك الدروز والموارنة والدول الأوروبية فتم

---

(١) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ٣، ص ٧٤.
(٢) يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ١٢.

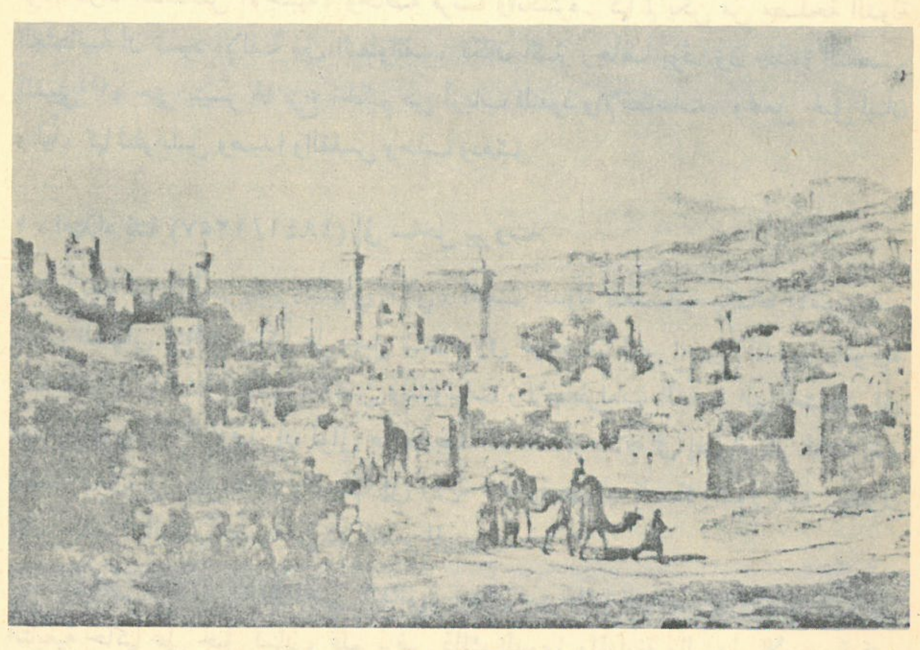
عزله. أما في بيروت فعُيِّن عليها أسْعد باشا سنة ١٨٤٢، وقد جدَّد سرايا الحكومة [١] .

٢ ـ خط بيروت ـ دمشق يفصل بين القائمقاميتين بعد فتنة (١٢٦١/١٨٤٥):

حل الخلاف بتقسيم جبل لبنان سنة ١٢٦١/١٨٤٥ إلى قائمقاميتين: شمالية يحكمها مسيحي وجنوبية يحكمها درزي على أن يكون والي صيدا مرجعاً لكليهما[٢]، ويفصل بين القائمقاميتين خط بيروت ـ دمشق. وكان يتولى بيروت وقتها، كامل باشا. وفي سنة ١٢٦٢ / ١٨٤٦، شيِّدت كاتدرائية مار الياس للروم الكاثوليك قرب السرايا القديمة شرق بيروت، وذلك في عهد البطريرك مكسيموس مظلوم [٣] .

وفي سنة ١٢٦٣/١٨٤٧ تولى بيروت مصطفى باشا الأرناؤوط ثم مصطفى وافق باشا سنة ١٢٦٤ / ١٨٤٨ .

٣ ـ خورشيد باشا يتولى بيروت سنة ١٢٧٤/١٨٥٧:



بيروت في منتصف القرن التاسع عشر

(١) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ١، ص ٢٥ .
(٢) يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ١٢ .
(٣) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ٣، ص ٢١٣ .

منذ أن تولى خورشيد باشا بيروت[١] سنة ١٢٧٤/١٨٥٧، كان يعيِّن كل سنة، لجنة قوامها ستة من أعيان المدينة تسمى «قومسيون لمِّ العسكر»، وذلك لاختيار الشبان الذين يستطيعون السفر للجهادية، أي للخدمة العسكرية، وكان الحاج حسين بيهم عضواً فيها أغلب الأحيان[٢] .

لكن نظام القائمقاميتين، لم يضع حداً للاضطرابات والفتن، فدخل جبل لبنان أكثر من ١٢٠ ألف بندقية و٢٠ ألف مسدس في الفترة (١٢٧٤ ـ ١٢٧٧/١٨٥٧ ـ ١٨٦٠)، حتى قامت الفتنة العظمى سنة ١٢٧٧/١٨٦٠ .

٤ ـ نزوح المسيحيين إلى بيروت خلال فتنة (١٢٧٧/١٨٦٠):

تولى أحمد باشا بيروت سنة ١٢٧٧/١٨٦٠[٣]. وقد كان لمسلمي بيروت، وفي مقدمتهم عمر بيهم أعظم تجار المدينة، موقف مشرف أثناء تلك الحوادث المؤسفة[٤].

بدأت الفتنة من بيت مري في سنة ١٢٧٦/ ٣٠ آب ١٨٥٩، فدير القمر، ثم إلى سائر الأطراف، حيث أخذ الدروز يفتكون بالموارنة ويحرقون مساكنهم في جزين وحاصبيا وراشيا الوادي وزحلة[٥]. وقد وصف اللورد دوفرين القتال بين الدروز والموارنة، بأنه «نتيجة تباغض طائفتين متساويتين في الهمجية»[٦].

وقد أدَّت الفتنة الكبرى سنة ١٢٧٧/١٨٦٠، إلى نزوح العديد من المسيحيين إلى مدينة بيروت، التي امتلأت بجماهير المشردين ممن افترشوا الأرض تحت الأشجار في كل مكان[٧]. والواقع أن النزوح يكون دائماً إلى منطقة الأمان، حيث لعب المسلمون في بيروت، دوراً مشرفاً في حماية المسيحيين الذين التجأوا إليهم، ففتحوا لهم بيوتهم، ووزعوا عليهم المواد الغذائية. وقد اضطر بعض المسيحيين للجوء إلى المناطق

(١) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ١، ص ٢٥ .
(٢) المرجع نفسه، م ١، ص ٤٣ .
(٣) المرجع نفسه، م ١، ص ٢٥ .
(٤) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٣، ص ٨٦ .
(٥) المرجع نفسه، جـ ٣، ص ٧٩ .
(٦) المرجع نفسه، جـ ٣، ص ٨٢ .
(٧) كمال الصليبي: تاريخ لبنان الحديث، ص ١٢٧ ـ ١٢٩ .

المارونية في الشمال، وهرب البعض الآخر إلى مصر واليونـان[1]. والحقيقة أن مسلمي بيروت، لم يترددوا في مساعدة المسيحيين الذين استجاروا بهم، وحالـوا بحكمتهم دون تدخل الرعاع، وهم قلة من أبناء طائفتهم[2] أظهـروا الشماتـة والتهديـد . فإن كـان بعض النصارى قد نزحوا من بيـروت ، فإن ذلـك يرجـع إلى التشتت والقلق والخوف الذي اعتراهم في تلك الفترة ، مما جعلهم لا يجـدون الاستقرار والأمـان إلا بين أبنـاء طائفتهم، وهذه هي مأساة الحـروب الأهلية المـذهبية . ولكن علينـا أن لا نغفل، أن نـزوح المسيحيين إلى بيـروت لم يكن إلا لأنهم أدركـوا أن مسلمي بيـروت سيحمـونهم ويفتحون لهم الأبواب .

ونوه المؤرخون بموقف أكثر عقلاء المسلمين وخاصة في بيروت ودمشق، وما بذلوه لحقن دماء أبناء ذمتهم من المسيحيين بعد أن أنقذوا الآلاف منهم .

وكان الأمير عبد القادر الجزائري[3]، أبرز هؤلاء العقلاء، وله مواقف مشرقة في الدفاع عن المسيحيـين في دمشق[4]. ولعب السيد عمـر بيهم الدور نفسـه في بيروت، إضافة إلى عشرات غيرهم من أهل العلم والمروءة في بيروت ودمشق، ممن فتحوا بيوتهم لإيواء مواطنيهم المسيحيين المنكوبين. ومما هو جدير بالذكر أن المدن الإسلامية التي يغلب عليها المذهب السني، مثل بيروت وطـرابلس واللاذقيـة وحمص وحماه وحلب نجت من الفتنة بفضل عقلاء تلك المدن[5]، الذين حالوا بين الرعاع من طـائفتهم وبين الإيقـاع بـأحد من أهـل مدنهم المسيحيـين. وهذا هـو الموقف المشـرف الذي يقضي بـه الدين والشرف، ففي الفتن والحروب الأهليـة، لا ينتصر أحد بـل يخرج الجميـع مهزومـين، فكـانت النتيجة هجـرة المسيحيين إلى مصر وقبـرص واليونـان والآستانـة، كـما أصيب المسلمون بأضرار كثيرة[6].

---

(١) كمال الصليبي : تاريخ لبنان الحديث ، ص ١٤٣ .

(٢) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ٣، ص ٨٧.

(٣) الأمير عبد القادر الجزائري (١٢٢٢ - ١٣٠٠/١٨٠٧ - ١٨٨٣): هو عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى الحسني الجزائري: أمير، مجاهد، من العلماء الشعراء. ولد في القيطنة (بالجزائر) وتعلّم في وهران. وعندما دخل الفرنسيون الجزائر سنة ١٢٤٦/١٨٣٠، قاتلهم خمسة عشر عاماً، واضطر للاستسلام سنة ١٢٦٣/١٨٤٧ . وبعد نفيه استقر في دمشق وتوفي فيها.

الزركلي: الاعلام، جـ٥، ص ٤٥ - ٤٦.

(٤) زاهية قدورة: تاريخ العرب الحديث، ص ٢٧٦ .

(٥) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ٣، ص ٩٢.

(٦) المرجع نفسه، جـ٣، ص ٩٠.

٥ - مجيء الأسطولين الفرنسي والتركي إلى مرفأ بيروت :

غادر المسيحيون بيروت بعد مجيء الفرنسيين إليها. فنتيجة التدخل الدولي، جاء الأسطول الفرنسي إلى مـرفأ بيـروت، وكان بقيـادة الجنرال دوبـوفور درتبـول. ونزلت القوات الفرنسية في حرج بيروت[1].

ثم جـاء الأسطول التـركي إلى بيروت، ورابـطت فرقـة عسكريـة في الحازميـة، وأخرى في حرج بيروت، من أجل المحافظة على الأمن. وعقد اجتماع في بيروت بين الدروز والموارنة، يقضي بوقف القتال بينها[2]، وذلك بإشراف محمد فؤاد باشا التركي، الذي أمر بتوقيف مشايخ الدروز في القشلة البيروتية[3].

ومن حرج بيروت، توجهت فرقة عسكرية فرنسية نحو بيت الدين ودير القمـر، وسار معها المسيحيون الذين كانوا في بيروت، واغتر البعض وهو في حمايـة الفرنسيـين، ليعتدي على الدروز في الطريق[4].

٦ - بيروت مركز دولي لحل أزمة جبل لبنان :

تحولت مدينة بيروت، إلى مـركز دولي، لحـل أزمة جبـل لبنان نتيجـة فتنة سنـة ١٢٧٧/١٨٦٠، وعقد محمد فؤاد باشا فيها مجلساً دولياً مؤلفاً منه ممثلاً الدولة العثمانية، ومن مندوبي الدول الخمس[5]: فرنسا وانكلترة وروسيا والنمسا وبروسيـا. فاضـطرت الدولة العثمـانية إلى الاعتـراف باستقـلال جبل لبنـان، دون بيروت، استقـلالاً إدارياً بموجب نظام مؤقت، وقَّعته مع الدول الكبرى الخمس سنة ١٢٧٨/١٨٦١. وأقر هـذا النظام نهائياً مع بعض التعديل سنة ١٢٨١/١٨٦٤، واشتركت إيطاليا في توقيعه[6]. فكانت متصرفية جبل لبنان، التي تحدها المدن الإسلامية الثلاث طرابلس شمالاً وصيدا جنوباً وبيروت غرباً، إضافة إلى البقاع وبعلبك شرقاً[7].

---

(١) كمال الصليبي : تاريخ لبنان الحديث، ص ١٤٥ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٤٣ .

(٣) يوسف أبو شقرا: الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية، ص ١٣٤ .

(٤) المرجع نفسه، ص ١٣٥ .

(٥) يوسف أبو شقرا: الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية، ص ١٣٧ .
كمال الصليبي : تاريخ لبنان الحديث، ص ١٤٧ .

(٦) يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ١٢ .

(٧) المرجع نفسه، ص ١٣ .

وكان داود باشا أول متصرف على جبل لبنان، وقد عيَّن عشرة جنود فقط لحفظ الأمن في ساحل بيروت[١].

---

(١) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ١، ص ١٩٠.

الفصل السادس

بداية مدينة بيروت الحديثة

(١٢٧٨ - ١٣٠٦/ ١٨٦٠ - ١٨٨٨)

كان زوال الحكم المصري عن بيروت، ومجيء الانكليز إليها سنة ١٨٤٠، ومجيء الفرنسيين سنة ١٨٦٠، ثم اعتبارها مركز ولاية بيروت سنة ١٨٨٨، بداية مدينة بيروت الحديثة التي أخذت تزدهر في مختلف النواحي العمرانية والتجارية والثقافية والصحية... أي أن مدينة بيروت كظاهرة حديثة هي وليدة النصف الثاني من القرن التاسع عشر[١].

١ - بيروت تمتد خارج أبوابها لتضم الضواحي «الأحياء الجديدة»:

بعد جلاء الجيش المصري سنة ١٨٤٠، بدأت بيروت تمتد خارج أبوابها، نحو نهر بيروت شرقاً ثم نحو الغرب والجنوب[٢]. وامتدت الشوارع الجديدة إلى الضواحي، بعد أن أصلحت وفرشت بالحصى واعتني بها[٣]، وملأت المساكن الجديدة الحدائق وبساتين التوت الواقعة على التلال في الجنوب والجنوب الشرقي[٤]. وبذلك عمرت أحياء جديدة، كانت تعتبر من ضواحي بيروت، فأصبحت ضمن حدودها الجديدة، مثل المصيطبة وزقاق البلاط ومار متر والأشرفية والمدور... أما الأحياء التي عمرت على بعد كيلومتر أو أكثر، فاعتبرت الضواحي الجديدة لبيروت.

وكان حي زقاق البلاط من أبرز الأحياء الجديدة، وقد سمي كذلك منذ أن

---

(١) جمال حمدان: المدينة العربية، ص ١٨٧ ـ ١٨٨.

(٢) لويس لورته: مشاهدات في لبنان، ص ٤٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٣.

(٤) ادوارد روبنصون: يوميات في لبنان، جـ ١، ص ٩٠ ـ ٩١.

رصف ابراهيم باشا بعض أزقة بيروت بالبلاط، ومنها زقاق البلاط[1] الذي كان من ضواحي بيروت زمن الحكم المصري، وكان يسكن فيه السيد عمر بيهم رئيس مجلس الشورى آنذاك[2].

ويمتاز حي زقاق البلاط بطابعه الأرستقراطي، إذ بنيت فيه بعض القصور، وحولها بيوت متواضعة تدين بالولاء أو الخدمة لأرباب هذه القصور. والأرجح أن قصر يوسف جدي الذي بني سنة ١٨٦٢، هو اليوم جزء من بناية مدرسة راهبات مار يوسف للظهور. ومن الأسر الوجيهة التي عمرت زقاق البلاط أسرة بيهم والحص وحمادة.

أما منطقة الباشوراء، فيقال إنها قديمة يرتقي عهدها إلى عصر الخليفة المنصور، وقد مرَّ بها الإمام الأوزاعي حين دخوله بيروت مرابطاً بأهله وولده. وقد اشتهرت بوجود المقبرة الإسلامية فيها التي تفصل محلة السور بينها وبين بيروت القديمة.

وبعد ذلك شيد ضريح قبر الوالي وحوض ماء، ومن هنا تسمية المنطقة المجاورة بـ « حوض الولاية ». وشمال مقبرة الباشورة، بني مستشفى قلب يسوع سنة ١٨٦٢ وسمي « المستشفى الفرنسي »، وأضيف إليه أبنية حديثة لجهة الجنوب الغربي، مما أدى إلى قيام منطقة البسطة، التي تمتد على طول الربوة المواجهة للأشرفية. وفي قمة هذه الربوة، تقع منطقة برج أبي حيدر، وأصلها برج أبي هدير، سميت كذلك نسبة إلى البرج الذي كان يوجد فيها. ويجاورها منطقة المصيطبة، التي كانت عبارة عن مسطبة عمرها بيدر الخوارزمي لبناء السفن. كما كانت مصيفاً للسلاطين والأمراء، الذين اختاروها لارتفاعها واعتدال هوائها، وتكرُّر مجيئهم إليها حتى عرفت بمنزلة السلاطين[3].

وشرق البسطة، كان يوجه سهل أخضر يقع في آخره رأس النبع، حيث يوجد نبع ماء عذب ومن هنا تسمية المنطقة برأس النبع الذي تشرف عليه هضبة مار متر ومنطقة الأشرفية.

وسحر الشاعر لامارتين بجمال هضبة مار متر حين تنقل في أرجائها، وكانت الجلول المغطاة بأشجار التوت تمتد على مسافة من مار متر وحتى أعالي محلة الأشرفية.

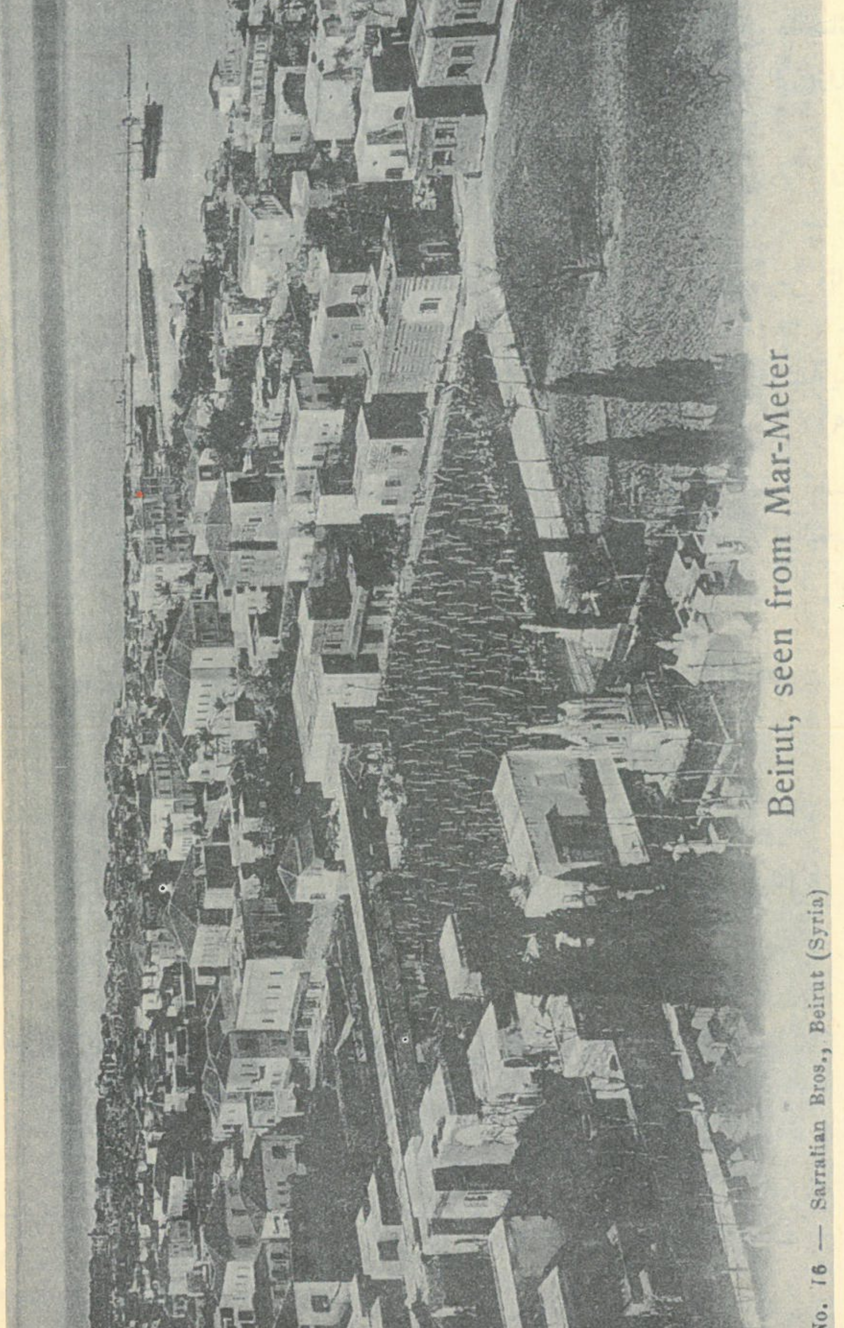
والأشرفية التي سميت كذلك نسبة إلى الأشرف خليل، كانت عبارة عن مزرعة في

---

(١) طنوس الشدياق: أخبار الأعيان، جـ ١، ص ١٤.

(٢) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ١، ص ١٩.

(٣) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٥١ - ٥٣.

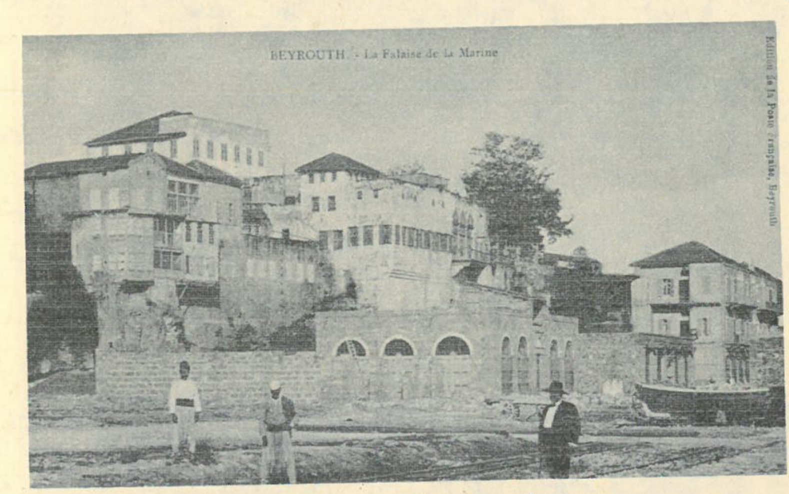


مارمتر وتبدو مقبرة سان ديمتري المسيحية

ضواحي بيروت تشتمل على أشجار التوت والفاكهة وأصول الزيتون والليمون وبيت للسكن، وقد اشتراها محمد مصطفى شاتيلا سنة ١٨٢٦ من بدرة بنت فرح الغزوزي بمبلغ ألف وستماية قرش فضة عثمـانية[١]. ثم ازدهـرت هذه المنطقة نتيجـة تأسيس المدارس والكنائس فيها. واشتهرت الكنيسة الأرثوذكسية سان ديمتري (مار متر) وعرفت بمقبرتها التي يزورها السواح.

وسنة ١٨٧٨ أقيمت كنيسة القديس يوسف، وهي مركز مطرانية بيروت المارونية. وعلى طرف الربوة قام حي السيوفي ونشأت فيه حديقة عامة يتنزه فيهـا السكـان. أمـا حي السراسقة «حي سرسق» المطل على البحر فقد سكنته عائلات سرسق وبسترس وثابت وجبيلي وطراد وتويني، الذين شرعوا ببناء قصورهم ومنازلهم الفخمة منذ ١٨٤٠، حتى عرف الحي باسم إحدى عائلاتهم وهي عائلة سرسق. ثم ظهرت منـطقة «التبـاريس» نسبة إلى قصر بسترس الذي بني سنة ١٨٧٠ وتحوَّل إلى كاباريه التباريس سنة ١٩٢٠.

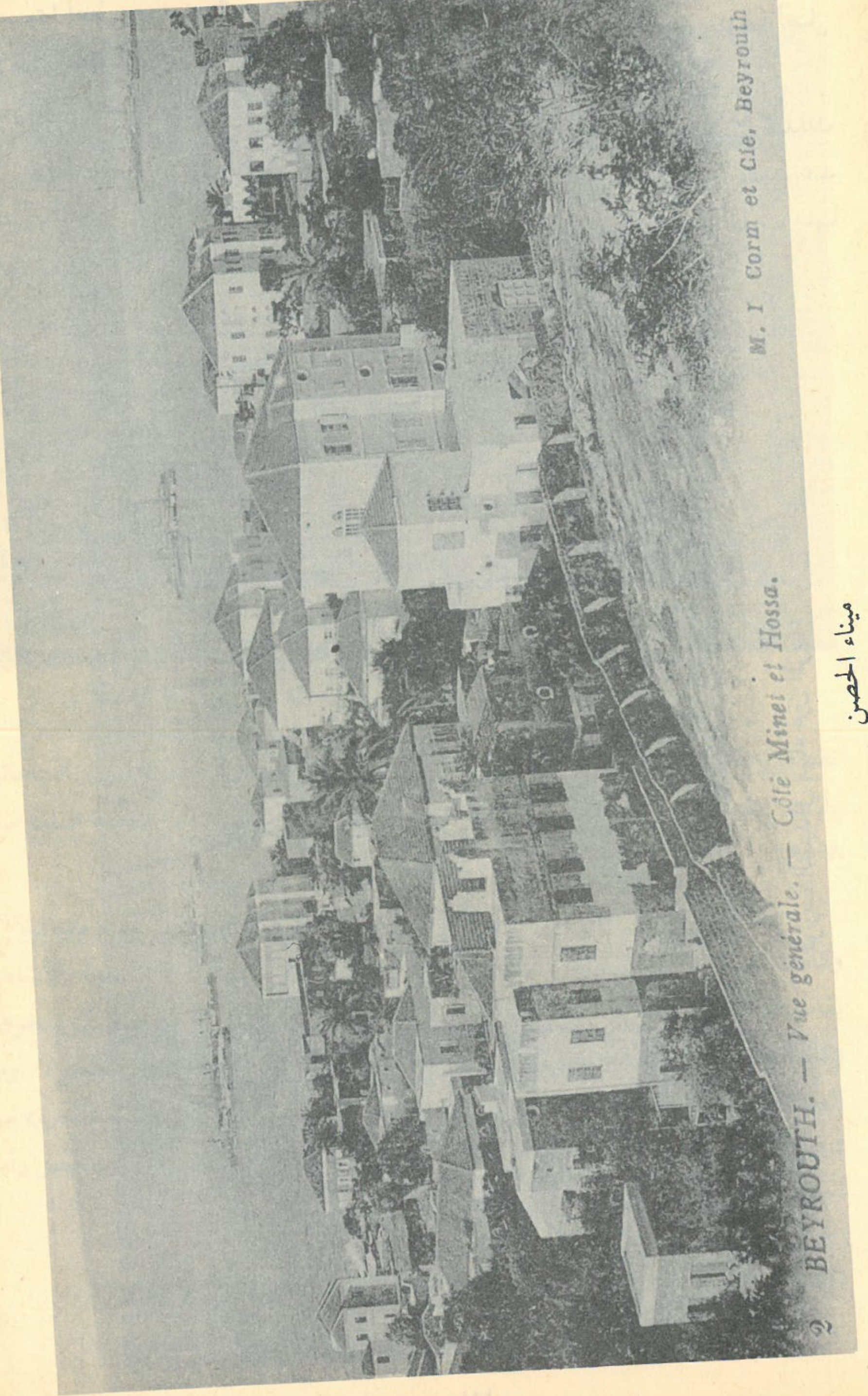
أما منطقة المدوَّر، فقد نشأت شمال ساحة البرج، حيث أقـام بعض الأغنياء قصـوراً فخمة لهم مثل قصر أسعد بك ملحمة الذي تحـول قصره إلى مـركز القـاعدة البحـرية الفـرنسية، وقصر جـان المدوَّر سنـة ١٨٧١، والذي أعـطى اسمـه للحي رأس بيت المدوَّر[٢].



رأس بيت المدور سنة ١٩١٠

(١) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ٢، ص ٦٩، و ١٨٥ و١٨٦.

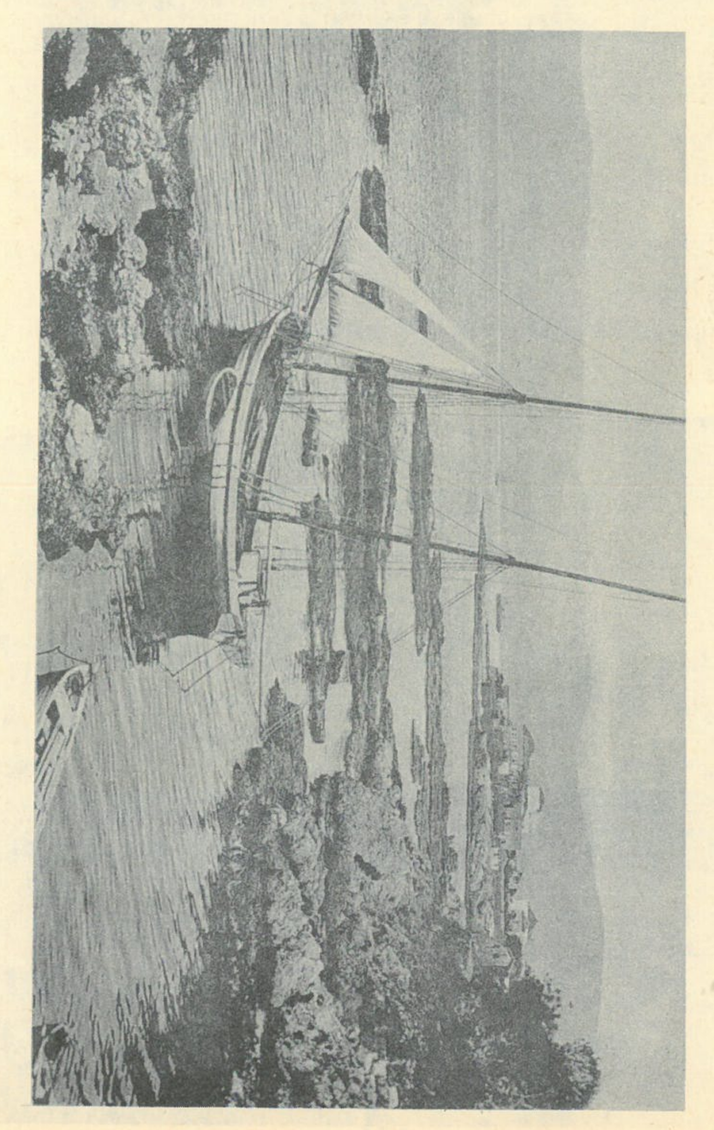
(٢) F. Debbas: Beyrouth «Notre Mémoire», p 177. 184. 199.

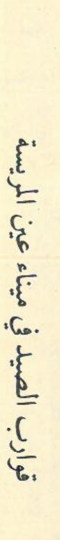


ميناء الحصن

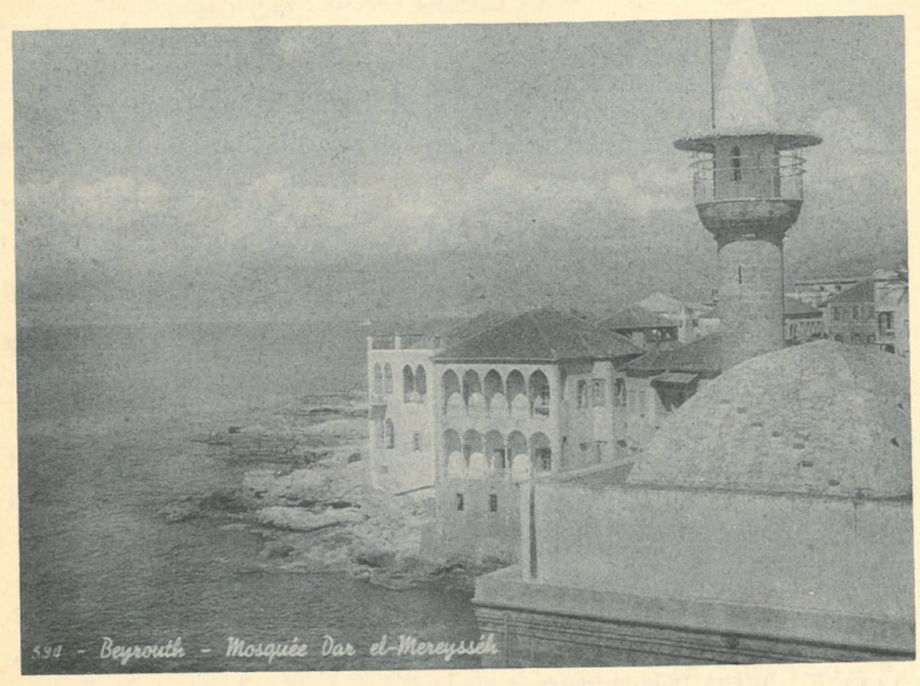
ومما أعطى بيروت أهمية خاصة ازدهار منطقة الزيتونة التي عرفت بمنطقة الفنادق والملاهي، واتسعت بيروت لتشمل منطقة ميناء الحصن قرب الزيتونة. (ربما أصل الاسم ميناء الحسين)، وهناك نزل الأسطول الفرنسي في ١٦ آب ١٨٦٠ .

وإلى الشرق، قرية الصيادين «عين المريسة» أو «عين المرسى»، وسميت كذلك لأنها بنيت حول ميناء صغير ترسو فيه زوارق الصيد ولوجود نبع أو عين ماء عذب عند شاطئها، وامتازت ببناء المساكن الجميلة التي تخص أغنياء المسلمين. وإلى الجنوب منها





قوارب الصيد في ميناء عين المريسة



جامع عين المريسة ويبدو منزل آل غندور

تقع مزرعة القنطاري الشهيرة بالتوت والفاكهة. ثم اشتهر فيها بعد «حاووز الساعاتية» بأبنيته الجميلة ، وحي الصنائع الذي بنيت فيه مدرسة للصنائع وحديقة عامة سنة ١٩٠٧ .

أما منطقة رأس بيروت فكانت «قطعة من صحراء مرمية على أقدام لبنان»[١]، وكانت تعرف باسم الرأس أو رأس المدينة ثم رأس بيروت. وكانت مكسوة بالأشجار يقصدها العائلات للاصطياف، ويسكنها بعض الدروز من سلالة مشايخ آل تلحوق، وكانوا يعتنون بحرث الحقول العامرة بدوالي العنب والخضار والأشجار المثمرة. ومن العائلات التي سكنتها: غلاييني وشاتيلا . . وقد بنى المهندسون الفرنسيون «المنارة» سنة ١٨٦٢ - ١٨٦٣ ، وعلوها ٣٨ متراً[٢]. وكان المبشِّرون الأميركيون أول من عمَّر رأس

(١) لامارتين: رحلة إلى المشرق، جـ ٢، ص ٣٣٦ .

(٢) F. Debbas : Beyrouth «Notre Mémoire» , p 177 . 184. 199.

بيروت، عندما اشتروا أرضاً واسعة شيَّدوا فيها مبنى «كولدج هول» سنة ١٨٧١ ـ ١٨٧٣ . ولم تلبث الصحراء الرملية أن أنتشر فيها العمران فكانت مدينة الجامعة الأميركية والأبنية الجديدة.

وبنيت منازل الأحياء الجديدة في أشكال هندسية جديدة، تغطي سطوحها العرائش وتحيط بها الحدائق المزروعة بالأشجار. وكانت النوافذ المزججة لا تزال نادرة في بيروت، فليس ثمة زجاج ولا نوافذ ذات فرجات، وإنما هي مصاريع أو شعريات من الخشب. فكانت الدفات اللازة الواسطة الوحيدة لاتقاء المطر والريح[١]. وفي بيوت الأغنياء أثاث أوروبي فخم يختلط بالتحف الفنية الثمينة المستوردة من القاهرة أو من دمشق[٢].

وتحسنت بيروت وضواحيها بفضل بناء المساكن الجديدة. وارتفعت أجور السكن بسبب وجود الكثير من الفرنسيين، فأجرة بيت يتسع لعائلة صغيرة، يبلغ ثلاثين ليرة استرلينية، وأوقية اللحم بأربع «بنسات»، وزجاجة النبيذ بأربع «بنسات» أيضاً[٣].

وكانت الحمير والجمال والبغال وسائل النقل آنذاك، ولكن يستطيع المرء مشاهدة بعض العربات التي تتنقل في مناطق محددة من الأحياء الجديدة، بسبب رداءة الطرق[٤]. وكان رائف باشا متصرِّف بيروت سنة ١٨٨٠ . كما كان رستم باشا متصرِّف جبل لبنان يسكن بيروت شتاء وقد شاهده محمد بيرم التونسي[٥] أثناء زيارته لها شتاء سنة ١٨٨٠ « راجعاً من الجبل إلى داره ، متخذاً أبهة فاخرة في عربة يجرها ثلاثة من الخيل العتاق ، وأمامه فارس ووراءه أربعة من العساكر الخيالة متسلحين وبندقية كل منهم حاملها في وجهه »[٦]

(١) ادوارد روبنصون: يوميات في لبنان، جـ ١، ص ٨٧.
لويس لورته: مشاهدات في لبنان، ص ٤٤ ـ ٤٥.
(٢) لويس لورته: مشاهدات في لبنان، ص ٤٥.
(٣) جون كارن: رحلة في لبنان، ص ٩ ـ ١٥.
(٤) لويس لورته: مشاهدات في لبنان، ص ٤٣.
(٥) محمد بيرم التونسي (١٨٤٠ ـ ١٨٨٩): من ألمع أدباء قومه، اشتهر برحلاته إلى الشرق والغرب ولا سيما رحلته التي حج فيها إلى بيت الله الحرام فسافر من تونس في ٢٦ شوال ١٢٩٦ / صيف ١٨٧٩، ومر بمالطة والاسكندرية والقاهرة ومكة والمدينة ثم رجع بطريق ينبع، السويس، فبيروت. وقد وصف رحلته هذه في كتاب « صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار».
(٦) محمد بيرم التونسي: صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، جـ ٥، ص ٣٦ ـ ٤٠.

٢ ـ بيروت القديمة تتحول إلى مركز تجاري:

كانت بيروت القديمة ذات أزقة وزواريب ومحلات . ومن أزقتها :

زقاق طاقة القصر ، وزقاق حنتس ، وزقاق اليافاوي ، وزقاق القباني ، وزقاق الموسات . وأشهر الزواريب : زاروب الدهان ، وزاروب سابا ، وزاروب المبروم . وأهم المحلات هي : محلة السنطية ، ومحلة الشامية ، ومحلة فخري بك ، ومحلة النورية ، ومحلة الثكنات ، وحارة اليهود ، ودرج رجال الأربعين . . .

ثم بدأ خروج السكان من بيروت القديمة ليقيموا في الأحياء الجديدة ، وأخذت بيروت القديمة تتحوَّل إلى مركز تجاري يستمد أهميته من المرفأ والأسواق والخانات.

(أ) مرفأ بيروت:

يقع مرفأ بيروت شمال المدينة، ويدل على مدخله برجان يسمى أحدهما برج الفنار والآخر برج السلسلة، وتفصل بينهما سلسلة حديدية تسد مدخل المرفأ. وفي سنة ١٨٤٩ هبَّت عاصفة قوية هدمت الرصيف الذي يربط برج السلسلة باليابسة. وسنة ١٨٦٠ أقيم رصيف الميناء «السنسول»، وذلك لتدعيم باب السلسلة. ومنذ ذلك التاريخ ازدهر مرفأ بيروت، وكانت مخازن بيروت مليئة بالسلع الأوروبية والأميركية[١]، ويكاد السائح يجد في كل أسواق بيروت سلعاً وبضائعاً من جزر الهند الغربية، وأقمشة قطنية من انكلترة، وحرائر فرنسية وصينية وهندية تستورد عن طريق مرفأ بيروت[٢].

ومنذ سنة ١٨٤٠ تحوَّلت بيروت إلى مركز تجاري هام، وكان كبار التجار من الأجانب، فقد ازدادت العائلات الأوروبية في بيروت إلى مائة عائلة. وأصبحت تدخل مرفأ بيروت ١٥٠ سفينة انكليزية كل عام . وتباهت بيروت بأسماء العائلات الجديدة التي تشهد على اندماج الأعراق البشرية في هذا المرفأ، مثل عائلات باسيلا، أبيلا، يني، باولي، كاتسفليس . . . ومنذ سنة ١٨٦٣ أصبح البيروتيون من كبار التجار، يستقبلون السفن المحملة بالبضائع باسمهم، عن طريق مرفأ بيروت[٣]. وفي هذه السنة كانت سبع رحلات بحرية تصل مرفأ بيروت بانتظام.

(١) زين زين: نشوء القومية العربية، ص ٤٨.
(٢) موريس شهاب: دور لبنان في تاريخ الحرير، ص ٥٢ ـ ٥٣.
(٣) زين زين: نشوء القومية العربية، ص ٤٨ ـ ٤٩.

كما ازدهر مرفأ بيروت بعد فتح قناة السويس سنة ١٨٦٨، فانتقل إليه الكثير من تجار دمشق وحلب نتيجة تقهقر تجارة القوافل البرية[١].

وكان مرفأ بيروت قليل العمق، يستقبل السفن الشراعية التي ترسو داخله فيضع عليها أهل بيروت «صقالات»، وهي ألواح عريضة من الخشب تعتبر بمثابة جسر تربط السفينة بالرصيف، فيعبر عليها المسافرون والبضائع. وبقيام السفن التجارية الكبيرة، لم يعد المرفأ قادراً على استقبالها، فتضطر للرسو في عرض البحر تجاه المدينة صيفاً، وكانت تقضي يومين وثلاثة أيام لتتمكن من تفريغ حمولتها بواسطة المراكب الصغيرة[٢]. وكانت هذه السفن تضطر شتاء للابتعاد عن الشاطىء، فتلجأ إلى الخليج الواقع عند رأس الخضر أو عند مصب نهر بيروت، لتتحامى الرياح والعواصف الفجائية والأمواج الهائجة[٣].

وعندما زار محمد بيرم التونسي بيروت شتاء ١٨٨٠، رست الباخرة بعيداً عن المرفأ، وكان البحر هائجاً، ونقله زورق صغير نحو مرفأ بيروت[٤].

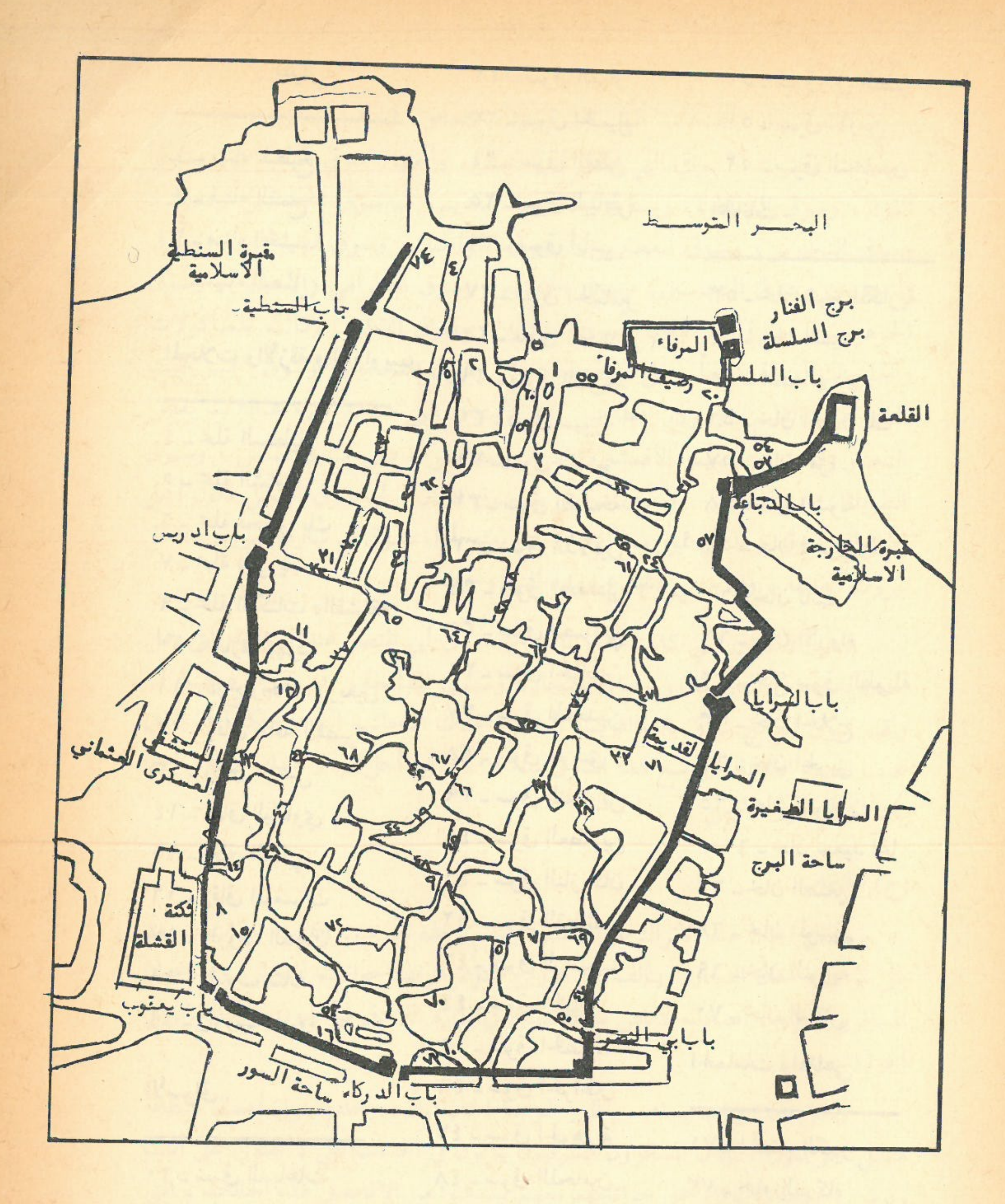
وكانت منازل الأجانب وقناصل الدول الأوروبية تقوم على الضفة الجنوبية من المرفأ، بينما كان يوجد إلى الغرب ميناء الخشب وميناء القمح وميناء البصل وميناء البطيخ، حيث تباع هذه الأنواع المذكورة. واشتهرت مقهى الحاج داود على شاطىء البحر قرب المرفأ.

(ب) الأسواق:

كانت أسواق بيروت، كجميع أسواق مدن الشرق، شوارع صغيرة متداخلة، وعلى جوانبها حوانيت عميقة ترتفع عن أرض الشارع زهاء متر، وعلى هذه المصاطب يجلس التجار القرفصاء يجللهم الوقار، فيحتسون القهوة ويدخنون النارجيلات أو لفائف التبغ[٥].

---

(١) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٥، ص ٢٥٠.
(٢) المرجع نفسه، جـ ٥، ص ١٥٤.
(٣) لويس لورته: مشاهدات في لبنان، ص ٣٨.
(٤) محمد بيرم التونسي: صفوة الاعتبار، جـ ٥، ص ٣٦.
(٥) لويس لورته: مشاهدات في لبنان، ص ٤٤.



بيروت القديمة داخل سورها المهدم تتحول إلى مركز تجاري (١٨٦٠ - ١٨٨٨)

الموانی

١ ـ ميناء البطيخ
٢ ـ ميناء القمح
٣ ـ ميناء الخشب
ـ ميناء البصل

المحلات والأزقة والزواريب

٤ ـ محلة السنطية
٥ ـ محلة الشامية
٦ ـ محلة فخري بك
٧ ـ محلة النورية
٩ ـ محلة الثكنات «القشلة»
١٠ ـ حارة اليهود
١١ ـ درج رجال الأربعين
١٢ ـ زقاق طاقة القصر
١٣ ـ زقاق حنتس
١٤ ـ زقاق اليافاوي
١٥ ـ زقاق القباني
١٦ ـ زقاق الموسسات
١٧ ـ زاروب الدهان
١٨ ـ زاروب سابا
١٩ ـ زاروب المبروم

الأسواق

٢٠ ـ سوق الدباغات
٢١ ـ سوق التجار
٢٢ ـ سوق القزاز
٢٣ ـ سوق الجميل
٢٤ ـ سوق القطن
٢٥ ـ سوق البياطرة
٢٦ ـ سوق أياس
٢٧ ـ سوق الحمّامير
٢٨ ـ سوق الحدادين ١
٢٩ ـ سوق الطويلة
٣٠ ـ سوق سيور
٣١ ـ سوق الفرنج
٣٢ ـ سوق الفشخة
٣٣ ـ سوق الدلالين
٣٤ ـ سوق الحدادين ٢
٣٥ ـ سوق الصرامي
٣٦ ـ سوق الخياطين
٣٧ ـ سوق المنجدين
٣٨ ـ سوق سرسق
٣٩ ـ سوق النجارين
٤٠ ـ سوق العطارين
٤١ ـ سوق البازركان
٤٢ ـ سوق القطائف
٤٣ ـ سوق الرصيف
٤٤ ـ سوق الخبز
٤٥ ـ سوق الخضرة
٤٦ ـ سوق الخراطين
٤٧ ـ سوق الجوهرية
٤٨ ـ سوق اللحامين
٤٩ ـ سوق النرابيج
٥٠ ـ سوق أبي النصر
٥١ ـ سوق الأرمن
٥٢ ـ سوق النحاسين

الخانات :

٥٣ ـ خان شيخ المكارية
٥٤ ـ خان السيد
٥٥ ـ خان البربير
٥٦ ـ خان أنطون بك
٥٧ ـ خان حمزة
٥٨ ـ خان الشونة
٥٩ ـ خان فخري بك
٦٠ ـ خان ثابت
٦١ ـ خان الأروام
٦٢ ـ خان سوق الطويلة
٦٣ ـ خان الحلاج
٦٤ ـ خان الحرير
٦٥ ـ خان التوتة
٦٦ ـ خان سعيد آغا
٦٧ ـ خان الصغير
٦٨ ـ خان الموسيقى
٦٩ ـ خان النورية
٧٠ ـ خان البيض

الحمامات والمقاهي

٧١ ـ الحمام الكبير
٧٣ ـ حمام الدركاه
٧٤ ـ مقهى الحاج داود

كان التجار وأصحاب المهن البيروتيون يتجمعون في أسواق كل حسب تجارته أو مهنته، فكثرت الأسواق التي تحمل أسماء المهن، وأهمها: سوق الدباغات، وسوق القزاز، وسوق البياطرة، وسوق الحدادين القديم، ثم سوق الحدادين الجديد، وسوق النجارين، وسوق العطارين، وسوق الخراطين، وسوق الخياطين، وسوق المنجدين، وسوق النحاسين، وسوق الحمّامير، وسوق الصرامي (الأحذية)، وسوق الجوهرجية، وسوق النرابيج، وسوق الدلّالين، وسوق القطن. وكانت للمأكولات والحلويات أسواق أيضاً، مثل سوق الخضرة، وسوق اللحامين، وسوق الخبز حيث اشتهرفرن القايم، وسوق القطايف. أما الأسواق التي حملت أسماء عائلات بعض التجار وكانت تهتم ببيع الأقمشة والحرائر والملابس، فهي سوق أياس، وسوق الطويلة، وسوق سيور، وسوق سرسق، وسوق التيان. أما سوق الجميل فكان أجمل الأسواق، وقد وجد في تموز سنة ١٨٩٤، ويعتبر أول سوق في شارع عريض داخل بيروت القديمة، وقد سمي «شارع بيهم» لفترة وجيزة.

ومن الأسواق التي كانت تعج بالناس: سوق أبي النصر عند البوابة التي حمل اسمها، وسوق البازركان، وسوق التجار، وسوق الفشخة، وسوق الرصيف[1]. وأقيم سوق الفرنج شرق باب ادريس تأميناً لحاجات الأجانب الذين سكنوا قربه في غرب المدينة القديمة. (وسع هذا السوق سنة ١٩٠٨ من أجل مرور الترامواي). وفيما بعد تكوَّن سوق الأرمن.

(ج) الخانات :

يطلق الخان عند الأتراك على الفندق وعنهم أخذه العرب. وكانت خانات بيروت على نوعين: خان التجارة ويتألف من دورين تكون غرفها حوانيت للتجار، وأما خان المسافرين فيؤجره أصحابه لأناس متخصصين في إدارة الفنادق فيأخذون من المسافرين أجرة المبيت.

ولكل خان بواب يساعده ناطور لحراسة الخان ليلاً، وخادم يتولى أعمال النظافة مقابل أجر معين. وكان المسافرون الشرقيون ينزلون في الخانات التي لا تحتوي على أثاث وفرش، فيضطرون إلى حمل حوائجهم معهم ليتمكنوا من الإقامة في هذه الخانات، التي

(١) Plan directeur de la ville de Beyrouth, p 50.

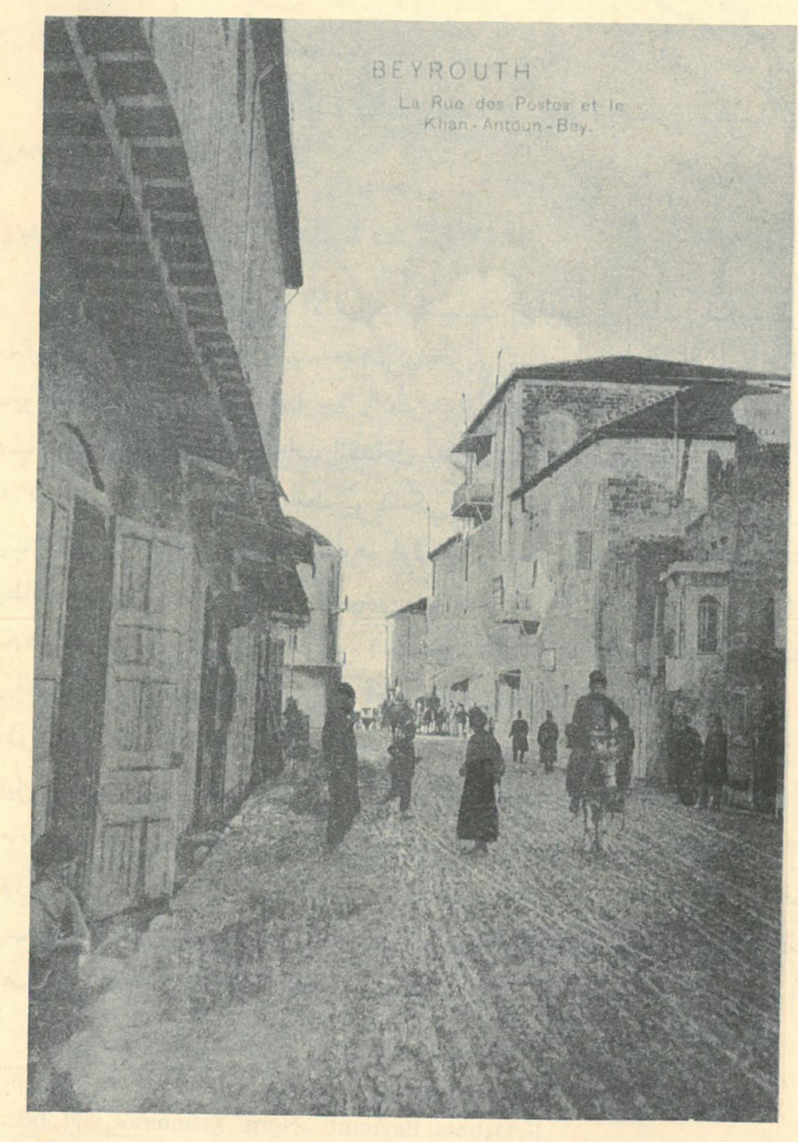


سوق الجميل سنة ١٩١٠

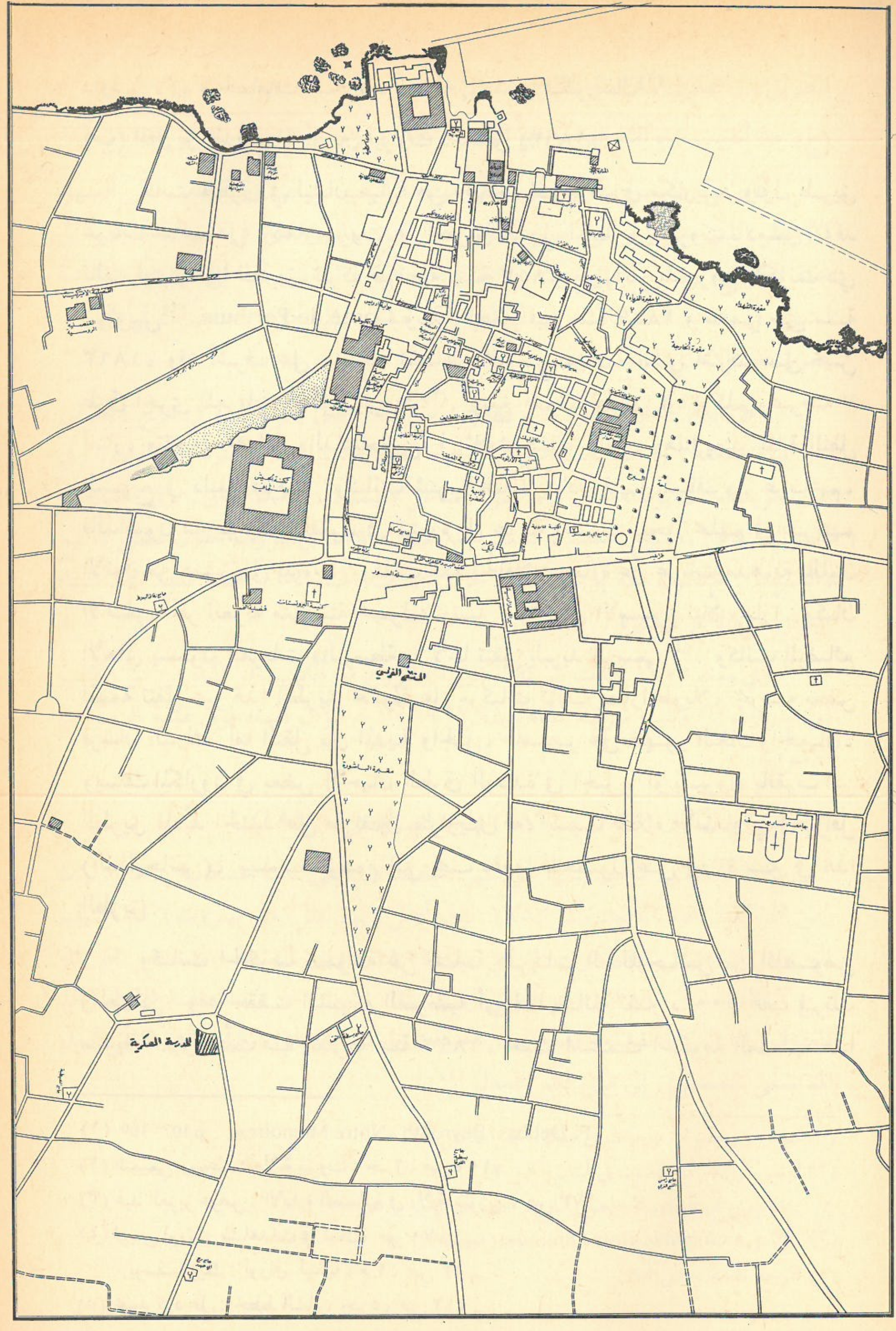


سوق الفشخة

انتشرت في بيروت بكثرة ، مثل : خان شيخ المكارية ، وخان السيد ، وخان البربير ، وخان حمزة ، وخان الشونة ، وخان فخري بك ، وخان ثابت ، وخان الأروام ، وخان سوق الطويلة ، وخان الحلاج ، وخان الحرير ، وخان التوتة ، وخان سعيد آغا ، وخان الصغير ، وخان الموسيقى ، وخان النورية ، وخان البيض .



خان أنطون بك في شارع البريد



تطور مدينة بيروت الممتدة خارج أبوابها (١٨٦٠ ـ ١٨٨٨)

ويبقى خان أنطون بك أشهر هذه الخانات وأجملها، وقد بني سنة ١٨٦٠، نسبة إلى أنطون بك نجار أحد كبار التجار البيروتيين .

وبعد هدم البرج الكبير سنة ١٨٧٤ ، استخدمت حجارته لبناء خان الكنفاني [1] .

٣ ـ المشاريع الانمائية والعمرانية :

بدأت المشاريع الإنمائية والعمرانية، تساهم في تطور مدينة بيروت وازدهارها، وأهم هذه المشاريع :

(أ) بناء الفنادق السياحية في الزيتونة منذ سنة ١٨٤٣ :

كان المسافرون والسياح الأجانب يفضلون الإقامة في أماكن قريبة من قلب المدينة، وتطل على البحر، مما يساعدهم في حرية التنقل. وكان شرق المرفأ عبارة عن مقابر المسلمين الثلاث : الخارجة والغرباء والشهداء، فضلاً عن منطقة المدوّر الرملية، مما جعل أنظار أصحاب الفنادق تتجه غرباً، نحو منطقة الزيتونة. ففي سنة ١٨٤٣ ، تم بناء لوكاندة أنطونيو بيانكي، وهو إيطالي من مالطة، ثم لوكاندة حبيب رزق الله (من الشويفات)، وهو أول لبناني عمل في هذه المهنة التي يحتكرها الإيطاليون واليونان[2]. وأنشأ السينيور باتيستا «أوتيل أوروبا» قرب المرفأ سنة ١٨٤٩ ، وفيه نزل الكاتب الفرنسي غوستاف فلوبير ، وفي هذه السنة أيضاً دشن أول أكبر أوتيل في المنطقة هو أوتيل , Bellevue d'Antonio Tremseni ثم بنى نيقولا بسول «أوتيل الشرق الكبير» أو «أوتيل بسول». وسنة ١٨٦٠ بنى قسطنطين بوير «أوتيل العالم». ثم تأسس «أوتيل كونتيننتال» ، الذي تحوّل مع الزمن إلى أوتيل نورماندي، وعرفت المنطقة التي يقع فيها بإسمه. وقرب باب السنطية قام «أوتيل فكتوريا الكبير»، ويخص عائلة نجوم. كما كان يوجد «أوتيل غاسمان» (عرف بعد الحرب العالمية الأولى بإسم أوتيل رويال). وأصبحت منطقة الفنادق مقصداً للسواح والأهالي، لكثرة ما فيها من الفنادق والمقاهي (قصر الحمراء، البحري، الحاج

---

(١) F. Debbas: Beyrouth «Notre Mémoire», p 31, 189 .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٠٥ .

داود . . .)، والحمامات البحرية، إضافة إلى سينما الكورسال[1] . .

(ب) الطريق الدولي المعبَّد بين بيروت ـ دمشق (١٨٦٣):

كانت الطرق في لبنان عبارة عن «قادوميات» وطرق مكارين، وأول طريق عربات ساعد على ازدهار بيروت هو الطريق الدولي المعبَّد بين بيروت ـ دمشق. وقد نالت امتياز هذا الطريق شركة فرنسية سنة ١٨٥٧، وترأس المشروع الكونت دي برتويس[2] Conte de Perthuis, وبدأ العمل فيه سنة ١٨٥٩ واستمر حتى سنة ١٨٦٣، وقد أشرف على هندسته المهندس الفرنسي ديمان، الذي أشرف على خمس طرق أخرى للعربات في لواء بيروت[3]. وبلغ طول الطريق ١١٢ كلم وعرضه ٧ أمتار، وتقطعه الحوافل «الدليليجانس» في ثلاث عشرة ساعة، وهذا يعتبر بمثابة النقل السريع في ذلك الوقت. وكانت شتورة محطة يتبادل فيها المسافرون عرباتهم، فالذاهبون من بيروت ينتقلون في شتورة إلى عربة دمشق، ليحل محلهم في عربتهم الآتون من دمشق إلى بيروت. وكانت هذه الحافلات عبارة عن عربات مدهونة باللون الأصفر، تجر العربة منها ستة خيول، وتسير مرتين في الأسبوع ليلاً ونهاراً. وكان الأهالي يسمون العربات «البوسطة»، لأنها تنقل البريد الرسمي[4]. وكانت البضائع المهمة تنقل عبر هذا الطريق محمولة على مركبات تؤلف قطاراً طويلاً، يحرسه بعض فرسان الدرك. أما النقل بين المدينة والجبل، فاستمر على ظهور البغال والجمال، ويسلك المكارون في بعض الأحيان الطرق البعيدة في الجبل، أو يسيرون بالقرب من الطريق المعبَّد الجديد على طريقين متوازيين له، بسبب غلاء الأسعار في الحوافل (الدليليجانس)، وبسبب الرسوم التي يجب دفعها للحصول على إجازة سير في هذا الطريق.

وكانت الحكومة مسؤولة عن حماية عربات الدليليجانس من اللصوص والمعتدين. وقد حققت الشركة الفرنسية أرباحاً طائلة تقدر بـ ٥٠٠ ألف فرنك سنوياً[5]. وانحلّت هذه الشركة سنة ١٨٩٢، حيث استلمت الحكومة العثمانية هذا

(١) F. Debbas: Beyrouth «Notre Mémoire», . p 107 - 109
(٢) التميمي وبهجت: ولاية بيروت، جـ٢، ص ١٠٦.
(٣) عبد العزيز عوض: الادارة العثمانية في ولاية سورية، ص ٢٧٣.
(٤) لويس لورته: مشاهدات في لبنان، ص ٧٠.
يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ٢، ص ١٣.
(٥) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ٥، ص ٢١٢.

الطريق، وأهملت المحافظة عليه.

(ج) مد أنابيب مياه الشرب من نهر الكلب (١٨٧٥):

كان سكان بيروت يحصلون على مياه الشرب من عدة ينابيع. ففي السهل الأخضر الذي عرف برأس النبع، كان يوجد نبع ماء يتغلغل في جوف الأرض إلى محلة الكراوية (شارع الشيخ بشارة الخوري حالياً)، ثم ينساب إلى المدينة القديمة لينتهي في ساحة الدركاه. وهناك يجري في أنبوب إلى حوض منحوت في الصخر يشرب منه الأهالي.

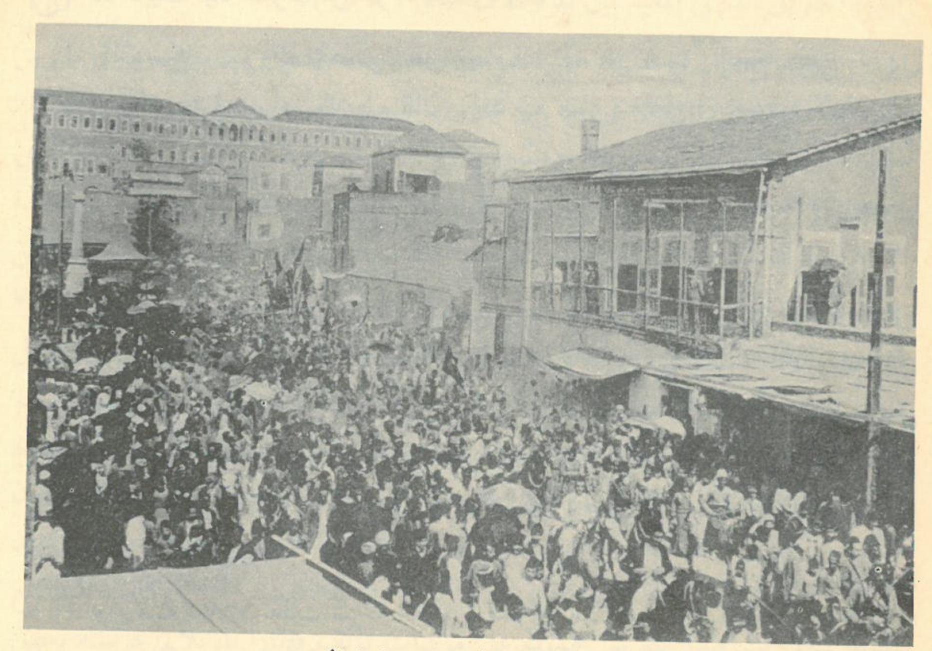
وعلى بعد خطوات من باب يعقوب نبع ماء عميق ينزل إليه في درج ويستقي منه أبناء المحلة. وقرب باب السنطية لجهة المقابر، سبيل ماء لأسرة المجذوب. وفي عين المريسة كان يوجد عين ماء على الشاطىء يشرب منه الأهالي. وفي الساحل الجنوبي الغربي، ينبوع عذب، تستقي منه عدة عائلات في بيروت خلال فصلي الربيع والصيف. فينقلون الماء إلى المدينة في جرار تحملها الحمير[1]. هذا فضلاً عن المياه المتوفرة من الآبار الكثيرة.

وفي سنة ١٨٧٥ نفذت شركة انكليزية مشروع مد أنابيب لجر المياه من نهر الكلب إلى بيروت[2] وبنت شركة المياه سنة ١٩٢٢[3]، خزان المياه فوق قمة الربوة في الأشرفية.

(د) السراي الكبير (١٨٥٣ ـ ١٨٦١) والسراي الصغير (١٨٨٤):

كان السراي الكبير عبارة عن مبنى «القشلة»، وهي ثكنة عسكرية بناها الأتراك زمن السلطان عبد المجيد سنة ١٨٥٣ فوق أجل ربوة تطل على بيروت، ثم أضيف إليه مبنى المستشفى العسكري التركي سنة ١٨٦١. وبين القشلة والمستشفى تم بناء برج الساعة سنة ١٨٩٧، زمن الوالي رشيد بك. وبعد الحرب العالمية الأولى اتخذ المفوض الفرنسي «القشلة» مقراً له، وعرفت باسم السراي الكبير، في حين تحوَّل المستشفى العسكري إلى مبنى قصر العدل[4].

(١) ادوارد روبنصون: يوميات في لبنان، جـ١، ص ٩٢.
(٢) لويس لورته: مشاهدات في لبنان، ص ٤٣ و٦٩ ـ ٧٠.
الخوري قسطنطين المخلص: تاريخ أسرة آل فرعون، ص ١٧٧.
(٣) F. Debbas: Beyrouth «Notre Mémoire», p 70.
(٤) المرجع نفسه، ص ٩٥.



السراي الكبير يطل على ساحة السور



السراي الصغير وخلفه مقبرة الخارجة الإسلامية

أما السراي الصغير فقد بناه الأتراك سنة ١٨٨٣ - ١٨٨٤، في شمال ساحة البرج وخلف المقبرة الإسلامية. وأصبح مقراً لحكومة ولاية بيروت بعد سنة ١٨٨٨، وقد هدم سنة ١٩٥٠.

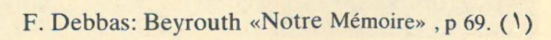
(هـ) ساحة الحميدية (١٨٨٤):

في سنة ١٨٨٤، وزمن والي سوريا حمدي باشا، دشن رئيس بلدية بيروت فخري بك، ساحة فيها حديقة عامة، وذلك تكريماً للسلطان عبد الحميد الثاني، فسميت «ساحة الحميدية». وبعد إعلان العودة إلى الدستور العثماني سنة ١٩٠٨، سميت ساحة الحرية أو الوحدة. وبعد تعليق المشانق فيها سنة ١٩١٥ و١٩١٦، سميت ساحة الشهداء[١]. وقد قامت هذه الساحة في المكان الذي بنى فيه الأمير فخر الدين قصره وبستانه وبرج الكشاف، لذلك أطلق على هذه الساحة اسم ساحة البرج، وهو الاسم الأكثر شيوعاً حتى اليوم. ويوم دخول الجيش الفرنسي هذه الساحة سنة ١٨٦٠، أطلق عليها اسم ساحة المدافع Place des Canons.

وكانت ساحة الحميدية عبارة عن ساحة مكشوفة في الوسط، تستخدم في الاحتفالات، وكانت هناك نافورتا مياه. ومنذ سنة ١٩٠٠، أخذت الساحة تزدهر لتصبح قلب مدينة بيروت ومركزها السياحي والتجاري.

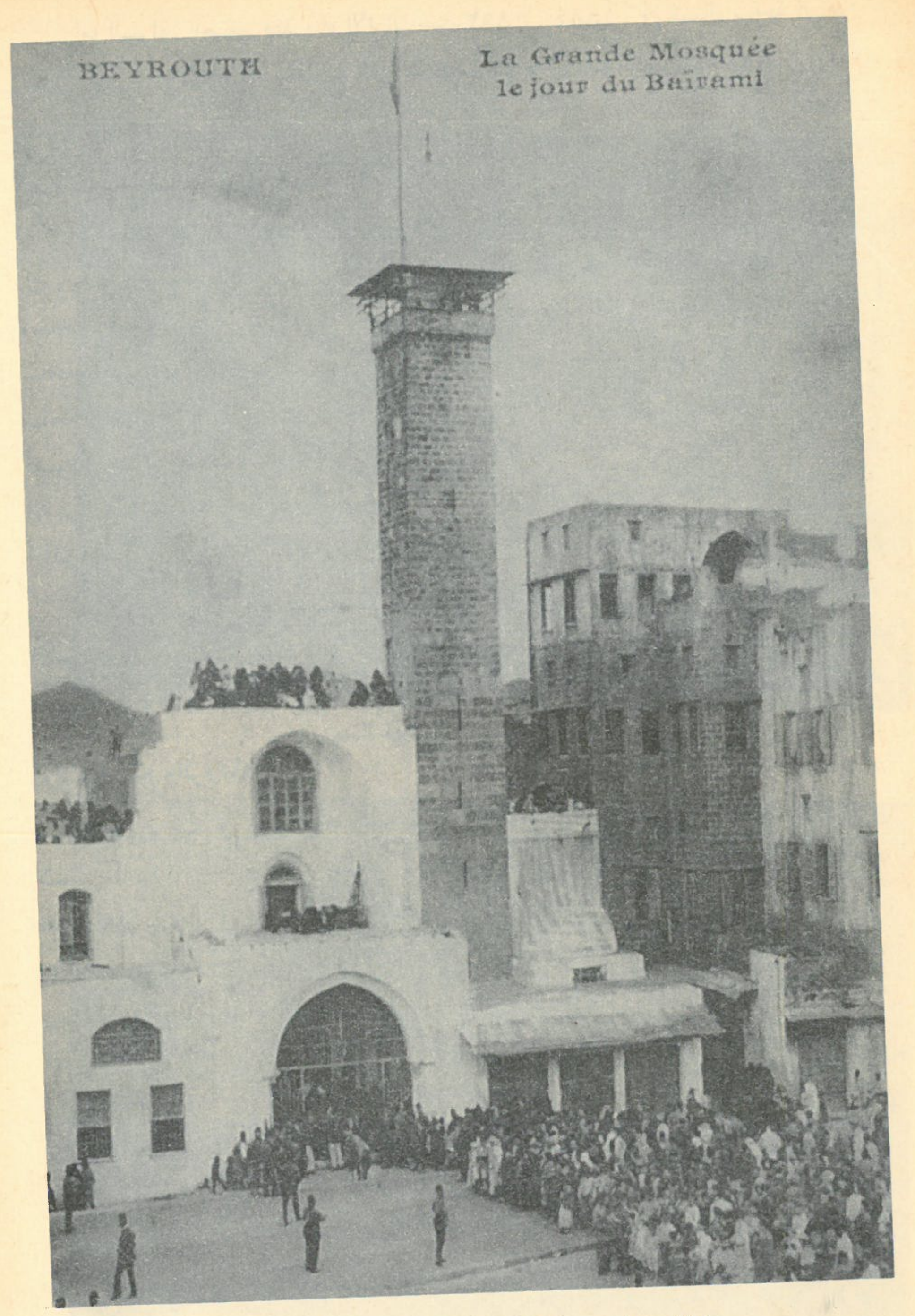
(و) الجوامع والزوايا:

كان يوجد في بيروت جوامع كثيرة، مثل الجامع العمري الكبير، وجامع شمس الدين، وجامع الأمير عساف، وجامع النوفرة، وجامع الدباغة.. ومع ذلك نشط أهل بيروت في بناء الجوامع الجديدة، وذلك لتلبية حاجة المسلمين الذين كانوا يتزايدون مع مرور الزمن. ففي سنة ١٨٠٠، اشتهر جامع المجيدية في منطقة مرفأ بيروت، وقد سمي كذلك نسبة إلى السلطان عبد المجيد الأول. أما جامع الدركاه فقد كان عند بوابة الدركاه، وهو جامع صغير يمتاز بمئذنته الخشبية (هدم سنة ١٩١٥). وفي سنة ١٨٤٤، وجد جامع عند القلعة القديمة التي تشرف على مرفأ بيروت، فسمي جامع الحميدية نسبة إلى السلطان عبد الحميد[٢].



(١) F. Debbas: Beyrouth «Notre Mémoire», p 69.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣١-٣٢.



الجامع العمري الكبير في نهاية القرن التاسع عشر

وانتشرت الجوامع في بيروت، فكان جامع بوابة يعقوب، وجامع رجال الأربعين عند درج خان البيض، والجامع المعلق في سوق النورية، وسمي كذلك لأنه يصعد إليه على درج خلافاً لسائر جوامع بيروت، وقد اندثر سنة ١٩٢٢. وبامتداد بيروت القديمة خارج السور، انتشرت الجوامع في الأحياء الجديدة، فشيد جامع الباشوراء أو البسطة التحتا، ثم جامع البسطة الفوقا، وجامع زقاق البلاط. كما أنشأ عمر الغزاوي جامع رأس النبع، وذلك بالاشتراك مع جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في سنة ١٢٩٩/١٨٨٢[١]. ثم بني جامع برج أبي حيدر. وفي سنة ١٣٠٢/١٨٨٤ أنشيء جامع المصيطبة[٢]، زمن الوالي حمدي باشا، وقد أشرف على بنائه الحاج ابراهيم الطيارة بتبرعات أهالي بيروت المسلمين. كما تم إنشاء جامع عين المريسة، بفضل جهود عبد الله بيهم ومحمد الهبري والشيخ محمد علايا وذلك سنة ١٣٠٥/١٨٨٨[٣]، وجامع الأشرفية سنة ١٣١١/١٨٩٤، ثم جامع الحرج، وجامع القنطاري، وجامع المنارة، وجامع الشيخ شربي (يوجد مدفن عرف بإسمه)، وجامع الصنائع، وجامع شيخ الفهرة. وكان جامع قصر الصنوبر قد بني سنة ١٣١٦/١٨٩٩، في داخل غابة الصنوبر (في الميدان الذي عُرف فيما بعد بسباق الخيل).

وأقيمت في بيروت عشرات الزوايا. والزاوية (تسمَّى أيضاً تكية)، عبارة عن بناء متواضع يقوم على قبة واحدة تحتها «مسجد»، يجتمع فيه أتباع شيخ الزاوية، للصلاة وتلاوة الذكر. وكانت الزاوية مدرسة يتلقّى فيها الصبيان الدرس عن المريدين، كما كانت ملجأ لأصحاب العاهات ومأوى لأبناء السبيل، يجدون فيه من الطعام مما يساق إلى الزاوية من صدقات المحسنين والنذور والمؤن والمال، حتى صار لأكثر الزوايا أوقاف[٤]. ومن أهم الزوايا التي كانت موجودة في مطلع القرن التاسع عشر: زاوية البدوي، وزاوية الشيخ محمد العراقي، وزاوية الإمام الأوزاعي، وزاوية الحمراء، وزاوية المغاربة، وزاوية المجذوب. ثم أضيف إليها فيما بعد زاوية أبي النصر، وزاوية الراعي، وزاوية القصار، وزاوية سوق البياطرة،

---

(١) عبد الرحمن الحوت: الجوامع والمساجد، ص ١٨.
(٢) صالح لمعي مصطفى: مساجد بيروت، ص ٩٢.
(٣) المرجع نفسه، ص ١٠٢.
(٤) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ١، ص ٤٩٤ - ٤٩٨.

وزاوية سوق القطن، وزاوية الهال، والزاوية المجيدية (تقع في نهاية سوق الطويلة في محلة ميناء الخشب)، وزاوية باب الدركاه، وزاوية باب المصلى، وزاوية الجمرك، وزاوية الشهداء[1].

وكان من عادات أهل بيروت، زيارة أضرحة بعض الأتقياء الزهاد والصالحين، فيسمونها المزارات، حيث ينذرون النذور، كالزيت والشموع والبخور، ويأتون إليها بالحلى أو النقود، لتنفق على المزار. وأشهر مزارات بيروت: مزار النورية، ومزار الخضر، الذي يقصده المصابون بداء الروماتيزم للشفاء منه، ومزار الأوزاعي[2].

(ز) الكنائس والأديرة:

لم تكن بيروت منطوية على أكثرية أهلها المسلمين، فقد شرعت أحياءها لبناء الكنائس والأديرة. وأشهرها كنيسة المخلص الصليبية للفرنسيسكان، ودير الفرنسيسكان الصليبي، وكنيسة مار الياس الملكية، وكنيسة مار جرجس الأرثوذكسية، وكنيسة المسكوبية، وكنيسة سيدة النورية، ودير الكبوشيين القديم، وكاتدرائية مار جرجس المارونية القديمة[3].

ثم أقيم دير الكبوشيين الجديد، الذي دشنت كنيسته في أول آب ١٨٦٣. وكاتدرائية مار جرجس المارونية، التي شيدها المطران يوسف الدبس سنة ١٨٨٨ مكان الكاتدرائية القديمة التي تحمل نفس الاسم[4].

٤ - ثورة بيروت الثقافية والفكرية:

وهذا الازدهار العمراني، والتوسع التجاري، والتطور السكاني لمدينة بيروت، رافقته ثورة ثقافية هامة، امتدت حتى مطلع القرن العشرين، وأصبحت بيروت عاصمة الشرق تجارياً وثقافياً وعلمياً، وجسراً يصل الشرق بالغرب.

وانتشرت المدارس الوطنية والأجنبية، وبصورة خاصة في مدينة بيروت[5].

---

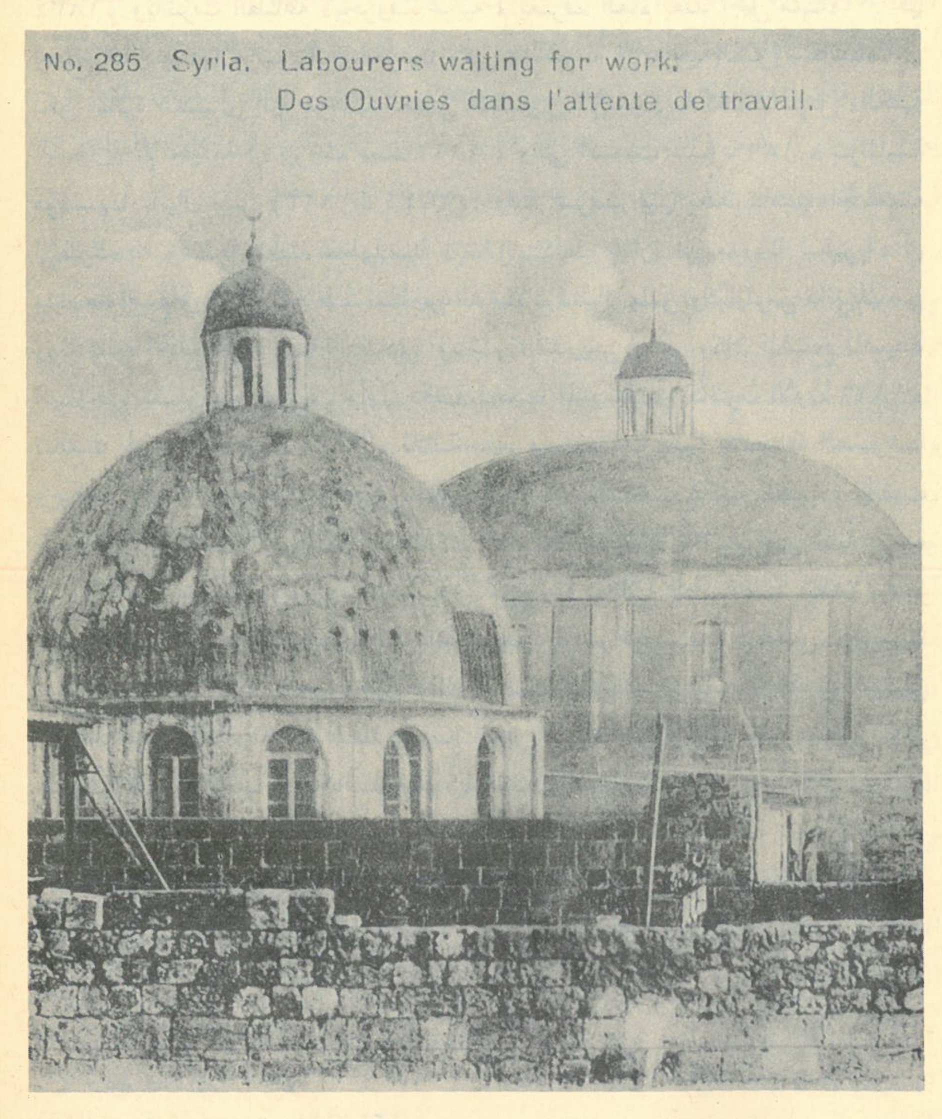
(١) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ١، ص ٤٩٩ - ٥٠٢.

(٢) المرجع نفسه، م ٣، ص ٢٦٢ - ٢٦٣.

(٣) Plan directeur de la ville de Beyrouth, p 50.

(٤) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ٣، ص ٢١٣.

(٥) يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ٣١ - ٣٣.
أسد رستم: بشير بين السلطان والعزيز، جـ ٢، ص ٢٢٧.



كنيسة مار جرجس الأرثوذكسية في نهاية القرن التاسع عشر

(أ) الكلية السورية الإنجيلية (١٨٦٦) :

استقبلت بيروت طلائع المرسلين الإنجيليين[١] الأميركيين منذ سنة ١٨٢٠. وأنشأت زوجة غالي سميث، أحد هؤلاء المرسلين، «مدرسة صغيرة زاهرة للبنات في إحدى غرف دار الإرسالية» وذلك سنة ١٨٣٤، ربما كانت أول مدرسة من نوعها في بيروت والسلطنة العثمانية[٢]. ثم أصبح للإرسالية الإنجيلية مطبعتها في بيروت سنة ١٨٣٤، وباشرت الطباعة «بحروف عربية لم يعرف العالم بعد أجمل منها»[٣]. كما أصبح لها كنيستها قرب باب يعقوب، وهي «الكنيسة الإنجيلية للبروتستانت»[٤]. لكن المأثرة الكبرى التي توجت العمل التبشيري الإنجيلي، كان تأسيس «الكلية السورية الإنجيلية في بيروت سنة ١٨٦٢، والتي افتتحت سنة ١٨٦٦، برئاسة مؤسسها دانيال بلس (١٨٢٣ - ١٩١٦). وقد عرفت فيما بعد باسم «الجامعة الأميركية». وعندما بدأت عملها سنة ١٨٦٦، كانت عبارة عن مدرسة تبشيرية، في بيت متواضع في زقاق البلاط، استأجره المرسلان دانيال بلس وكرنيلوس فانديك من ورثة بانيه الحاج عبد الفتاح حمادة، وباشرا التدريس فيه. وكان الشيخ ناصيف اليازجي يسكن في جواره. وأول دفعة دخلت المدرسة، في كانون الأول ١٨٦٦، تألفت من ستة عشر تلميذاً[٥]، ثلاثة منهم من بيروت هم: فتح الله الصوصا وجرجس ساسين وجرجس الخوري. وفي سنة ١٨٦٧ افتتحت الكلية الطبية، وألقيت الدروس فيها باللغة العربية. وكان الدكتور كرنيلوس فانديك نفسه يرتدي ثياباً عربية في زي أهل بيروت. وأول طبيب بيروتي تخرَّج من الكلية الطبية سنة ١٨٧١، هو سليم فريج، إضافة إلى خمسة أطباء آخرين هم: سليم دياب من طرابلس، ويوسف حجار من بمكين، وناصر حليم من حمانا، ورشيد شكر الله من بعبدا، وشبلي الشميل من كفرشيما. وسنة ١٨٧١ أيضاً، وضع حجر الأساس في الأرض التي اشتروها في رأس بيروت، فكانت «بناية الساعة»، وانتقلت إليها الكلية سنة ١٨٧٣[٦].

(١) كمال الصليبي: تاريخ لبنان الحديث، ص ٩٠ و١٧١ و١٧٢.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٧٤.
(٣) المرجع نفسه، ص ١٧٦.
(٤) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ٣، ص ٢١٣.
(٥) المرجع نفسه، م ١، ص ١٢١.
(٦) المرجع نفسه، م ١، ص ١٢٠ - ١٢٢.

وفي السنة الدراسية ١٨٨٢ - ١٨٨٣، حدثت في الكلية أزمة عرفت بثورة الدكتور فانديك والدكتور بوست[١]. واختلفت الآراء حول أسباب هذه الثورة، فمنهم من يذكر السبب في استخدام اللغة الانكليزية في التدريس سنة ١٨٨٢، وجعلها لغة الكلية الرسمية بدلاً من اللغة العربية، بحجة أن الانكليزية أوفر كتباً وأوسع بحثاً، مما حمل الدكتور فانديك على الثورة. ويزعم البعض أن السبب هو مطالبة فانديك وأنصاره في العمدة ترقية المدرسين الوطنيين، ومنحهم لقب نائب أستاذ أو أستاذ حسب كفاءتهم. ويبدو أن السبب الحقيقي للثورة هو التنافس والحسد بين الدكتور فانديك والدكتور جورج بوست واختلاف مزاجهما. وكان فانديك تقياً عن تعقل وتفكير، وشديد التمسك بجوهر الدين المسيحي، ويقف إلى جانب الوطنيين؛ في حين كان بوست حاد المزاج سريع الغضب، فيه ميل إلى الانتقام.

وبدأت الثورة عندما ألقى الدكتور أدون لويس خطبة بعنوان «المعرفة والعلم والله»، في احتفال الكلية السنوي (تموز ١٨٨٢)، فكانت السبب المباشر للثورة. حيث ذكر في خطبته اسم تشارلس دارون، وكيف توصل إلى نظرية النشوء والارتقاء[٢]، فاعتبر الكثيرون أن هذه الآراء خطراً على المعتقدات الدينية. وبضغط من بوست، قبلت دائرة الأمناء استقالة لويس، فتضامن معه خمسة من أعضاء العمدة بينهم فانديك واستقالوا من التدريس، كما تضامن معهم بعض الطلبة في الكلية الطبية ومنهم جرجي زيدان الذي كان في السنة الثانية[٣]. وانقسم الطلبة في الكلية إلى فريقين، أحدهما ينتمي لفانديك، والآخر لبوست. وقد نشبت بينهما معارك ومشاجرات، أشهرها المعركة التي نشبت ليلاً شرقي بناية الدائرة العلمية، وضرب فيها أنصار فانديك بعض أنصار بوست، لكن القضية انتهت بالإفراج عن جميع الطلبة الموقوفين في هذا الحادث دون إجراء محاكمتهم. وطردت العمدة خمسة عشر طالباً من الدائرة الطبية لسوء تصرفهم، ثم عاد بعضهم معتذراً ومتعهداً بإطاعة قوانين الكلية، فقبل في عداد الكلية.

ويمكن القول، إن استبدال اللغة العربية باللغة الانكليزية في التدريس - رغم الأسباب المختلفة التي ذكرناها - قد أحدث ثورة فكرية، وأيقظ شعوراً قومياً في المثقفين العرب.

(١) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ٢، ص ٥١١ - ٥١٦ و٥٦٩ - ٥٧٤.
(٢) المرجع نفسه، م ٢، ص ٥١٢.
(٣) المرجع نفسه، م ٢، ص ٥١٤.

وقد سميت الفترة الأولى في تاريخ اللغة العربية في الكلية بالعصر الذهبي، وذلك لأن العربية كانت اللغة الرئيسة وبها كانت تدرس كل فروع العلوم في الدائرة العلمية والدائرة الطبية. وتراجعت اللغة العربية بسبب استبدالها بالانكليزية[١]. ومهما قيل لتبرير هذا الاستبدال بحجة أن الإنكليزية أوفر كتباً، وأوسع بحثاً، فيبدو أن الهدف الأساسي هو أن تكون عمدة الكلية وإدارتها بيد الأميركيين، بدلاً من أن تكون تحت رحمة الوطنيين بسبب عقبة اللغة، لأنه يتعذر على كل الأساتذة الأميركيين إتقان العربية ليعلّموا ويؤلّفوا بها[٢]. وما خروج معظم تلامذة الطب وتفرقهم في العالم، وتغيير مستقبل بعضهم، وانتقال كثيرين إلى مصر وغيرها، إلا تعبيراً عن يقظة الشعور القومي عند المثقفين العرب[٣].

وأخذت الجامعة الأميركية تتسع شيئاً فشيئاً، بفضل مساعي القائمين على إدارتها وجهود أساتذتها من أميركيين ولبنانيين وسوريين، وبفضل الإعانات التي كانت تردها من الأثرياء الأميركيين[٤]. فأقبل الطلاب عليها من مختلف البلدان والأديان والمذاهب، حتى أصبحت من أعظم الجامعات في الشرق.

(ب) الكلية اليسوعية (١٨٧٥) :

نشط الآباء اليسوعيون فأسسوا لهم مدرسة في بيروت سنة ١٨٤٣، كما أنشأوا مطبعة حجرية سميت «المطبعة الكاثوليكية» في سنة ١٨٤٧، والتي أصبحت في نهاية القرن التاسع عشر كبرى مطابع بيروت، سواء في كمية الكتب العلمية والمدرسية التي أخرجتها، أو في جودة الإنتاج[٥].

وتحولت المدرسة اليسوعية منذ سنة ١٨٧٥ إلى كلية للتعليم العالي، تنافس الكلية السورية الإنجيلية، فكانت هذه نواة «جامعة القديس يوسف»، وذلك بفضل جهود مؤسسيها الرهبان العلماء ونشاطهم، مع مساعدة مالية من فرنسا تقل وتزداد حسب سياسة الحزب الذي يتولى الحكم فيها. وازدهرت جامعة القديس يوسف، لا سيما في كليتي الطب والحقوق، وأقبل عليها الطلاب من متصرفية جبل لبنان وولايتي

(١) يوسف يزبك : أوراق لبنانية ، م ٢ ، ص ٥٧٢ - ٥٧٣ .
(٢) المرجع نفسه، م ٢، ص ٥٧٢.
(٣) المرجع نفسه، م ٢، ص ٥١٦.
(٤) يوسف الحكيم : بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ٣٢.
(٥) كمال الصليبي : تاريخ لبنان الحديث، ص ١٨١.

سورية وحلب وغيرهم ، حتى أصبحت مع الجامعة الأميركية في سباق ثقافي ، أدّى إلى منافع كثيرة ، واعتبرتا معاً من أهم جامعات الشرق قاطبة . وقد اشتهر من رؤسائها أحد مؤسسيها الأب كاتن السويسري [١] . ومن أساتذتها الأب لويس شيخو [٢] .

لم تقتصر الإرساليات التبشيرية في بيروت على الإنجيليين الأميركيين، أو اليسوعيين الفرنسيين، بل تعدتها إلى الإرساليات الأخرى من فرنسية وانكليزية وألمانية وحتى يهودية[٣].

ففي ٢٤ أيلول ١٨٤٧، وصلت الأخت جيلاس من راهبات بنات المحبة «القديس سان فنسنت دي بول»، وكان برفقتها ثلاث أخوات. وافتتحت مدرسة صغيرة للبنات، بمساعدة القنصل العام الفرنسي والدكتور سوكييه ممثل البعثة الفرنسية. وعندما انتشر التيفوس والكوليرا في بيروت سنة ١٨٤٨، لعبت الأخت جيلاس وأخواتها دوراً فعالاً في تخفيف آلام المصابين، مما حمل والي بيروت على أن يقدّم لها أرضاً تقع في حي الغلغول، حيث تم بناء ميتم للصبيان ثم آخر للبنات، وعرف باللعازارية. وأنشأت مدرسة مار يوسف الظهور للبنات في زقاق البلاط سنة ١٨٤٧ .

وقررت الأم دي فو ، رئيسة رهبانية سيدات النصارى، بناء مدرسة داخلية للبنات في الأشرفية سنة ١٨٦٩ . (كما تأسست فيها بعد مدرسة الفرير في الجميزة ومدرسة اللاييك الفرنسية للبنات في خندق الغميق سنة ١٩١٠ ، ثم انتقلت إلى زقاق البلاط سنة ١٩٢٨) .

أما الانكليز فأنشأوا «مدرسة للعميان» في زقاق البلاط سنة ١٨٦٠، وذلك لتعليم العميان القراءة ، وتدريبهم على المهن . (ثم المدرسة الإنجيلية للبنات فيها بعد). وأسس الألمان «المدرسة الألمانية» سنة ١٨٦٢ ، لتدريس الألمانية والإنكليزية والعربية، فضلاً عن إيوائها الأيتام ، وضحايا الحرب الأهلية سنة ١٨٦٠، وكانت تقع في الشارع الذي سمي فيها بعد بشارع البطريرك حويك .

وكان لليهود مدارسهم ، ففي وادي أبو جميل وجدت سنة ١٨٦٥ مدرسة البعثة

(١) يوسف الحكيم : بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ٣٢.
(٢) المصدر نفسه، ص ٣٣.
(٣) F. Debbas: Beyrouth «Notre Mémoire», p 86, 123, 125, 143, 144, 175, 179.

اليهودية لكنيس الأيكوس، (اشترت ماري قصاب هذا المبنى سنة ١٩١٧ وتحول إلى المدرسة الأهلية). وفي سنة ١٨٧٥، أنشأ زكي كوهين «المدرسة اليهودية الدولية الكبرى» في الأشرفية، وذلك لتعليم العبرية والعربية، وهي مدرسة داخلية للصبيان كما اشتهرت «مدرسة الأليانس» اليهودية في وادي أبو جميل مطلع هذا القرن.

(جـ) جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية (١٨٧٨):

ولم تغب الطائفة الإسلامية عن المشاركة في هذه الثورة الثقافية، وهي التي تشكل أغلبية سكان مدينة بيروت لقرون خلت. فقد أسس بعض الشبان من وجهاء المسلمين في بيروت «جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية»، وذلك لدرء الأخطار التي تعرض لها المسلمون، أثر الهجمة الشرسة من الإرساليات التبشيرية الأجنبية التي غزت بيروت وقرى جبل لبنان بعد حوادث سنة ١٨٦٠. فضلاً عن عدم اهتمام السلطنة العثمانية بتخلف المسلمين ثقافياً، في حين كثرت المدارس التي أنشأتها الطوائف المسيحية.

وفي بدء ليلة الأول من شعبان ١٢٩٥ / ٣١ تموز ١٨٧٨، عقد أول اجتماع في دار أحد أعيان بيروت ويدعى عبد القادر القباني [١]، حضره السادة: أحمد دريان، بشير البربير، بديع اليافي، حسن بيهم، حسن الطرابلسي، حسن محرم، خضر الحص، راغب عز الدين، سعيد الجندي، سعيد طربيه، طه النصولي، عبد الله غزاوي، عبد القادر سنو، عبد اللطيف حمادة، عبد الرحمن النعماني، محمود خرما، محمد دية، محمود رمضان، مصطفى شبارو، محمد الفاخوري، محمد اللبابيدي، مصباح محرم، محمد المغربل، هاشم الجمال. وقد انتخبوا عبد القادر القباني أول رئيس لجمعية المقاصد، وبشير البربير أميناً للصندوق، ومصباح محرم كاتباً للأعمال [٢].

وسرعان ما قامت الجمعية بإنشاء مدارس للبنين والبنات، في بيروت وصيدا

---

(١) عبد القادر القباني: (١٢٦٤ - ١٨٤٨/١٣٥٤ - ١٩٣٥): هو عبد القادر بن مصطفى آغا بن عبد الغني القباني، صحافي من أعيان بيروت. أصدر جريدة «ثمرات الفنون» الأسبوعية لمدة ٣٣ سنة (١٨٧٥ - ١٩٠٨). أول من ترأس جمعية المقاصد، كما ترأس المجلس البلدي في بيروت وعيِّن مديراً لمعارفها ست سنوات فمديراً للأوقاف الإسلامية فيها مدة خمس سنوات.
الزركلي: الاعلام، جـ ٤، ص ٤٦.

(٢) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ١، ص ٥٠ - ٥٢.

وطرابلس. ويعتبر توجه الجمعية نحو تعليم الفتاة المسلمة ثورة في حد ذاتها، فقد لقيت هذه الفكرة إعراضاً من معظم المسلمين، ومقاومة من العلماء والمشايخ، ولكن الجمعية لم تعبأ بالمقاومة ولا بالمعرضين [١]. وهكذا أسست الجمعية أول مدرسة للبنات بمحلة البسطة التحتا، وكانت السيدة كلثوم بنت الشيخ محمد البربير (أم علي سلام) إحدى تلميذاتها، وكانت حليمة رضوان (المديرة)، وفاطمة عمار (الناظرة) [٢]. ثم افتتحت الجمعية مدارس عدة في كافة الأحياء البيروتية، ليتسنى لأكبر عدد من الفتيات من تلقي العلم، فافتتحت «مدرسة البنات الثانية» في سوق المنجدين، قرب زاوية المجذوب - ملك البربير -، وكانت تديرها الآنسة هاجر المير [٣]. وكان يشترط على من يود إدخال ابنته إلى المدرسة، أن يوقع تعهداً بتعليمها أربع سنوات على الأقل حتى يتسنى للفتاة التزود بأكبر قسط من العلم والفن، ومن تلامذة هذه المدرسة، خديجة خضر محمصاني (زوجة محمد فروخ)، ونظيرة محاسبجي (والدة رياض الصلح) [٤].

وكانت الخطوة التالية، لا تقل أهمية وثورة عن تعليم الفتاة المسلمة. فقد كان معظم الأطباء المسلمون من الحلاقين والحجامين، ولم يكن في بيروت طبيب واحد مسلم من أبنائها يحمل شهادة جامعية. وفي مدارس الإرساليات التبشيرية، كان مسلمو بيروت أقل المواطنين نصيباً منها. لذلك عقدت جمعية المقاصد جلسة برئاسة محرم بك [٥]، في يوم السبت ٦ محرم ١٢٩٧ / ١٩ كانون الأول ١٨٧٩، وقررت إيفاد خمسة طلاب لدراسة الطب في المدرسة الخديوية الطبية في مصر [٦]، وهم: كامل قريطم، عبد الرحمن الأنسي، سليم سعد الدين سلام، حسن الأسير، محمد

---

(١) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ١، ص ٥٤.

(٢) المرجع نفسه، م ١، ص ١٣٦ - ١٣٨.

(٣) المرجع نفسه، م ١، ص ١٨٢.

(٤) المرجع نفسه، م ١، ص ١٨٣.

(٥) في السنة الثانية من تأسيس جمعية المقاصد عقدت جلسة في ٢٢شوال ١٨٧٩/١٢٩٦ وانتخب محرم بك رئيساً خلفاً لعبد القادر القباني كما انتخب محمود رمضان نائباً للرئيس ودخل أربعة أعضاء جدد هم: رسلان دمشقية وسليم رمضان وفضلو القصار ومحمد طبارة، في حين خرج من الجمعية أربعة أعضاء هم: راغب عز الدين وعبد اللطيف حمادة ومحمد دية وخضر الحص.
المرجع نفسه، م ٢، ص ٣٣٧.

(٦) المرجع نفسه، م ١، ص ٥٤، وم ٢، ص ٢٦٣ - ٢٦٥.

سلطاني ، فكان هؤلاء بمثابة أوائل الأطباء المسلمين في بيروت .

ويذكر الرحالة محمد بيرم التونسي أنه زار مدارس المقاصد شتاء ١٨٨٠ (١) . والجدير بالذكر أن جمعية المقاصد ، التي تحولت مع الزمن إلى أغنى مؤسسة من نوعها في بيروت بصفة خاصة ولبنان بصفة عامة، وإلى أنشط مؤسسة، كانت قد بدأت بصندوق مالي عاجز ، وكان أعضاء الجمعية يدفعون مرتباً شهرياً للصندوق (٢)، وأخذت المساعدات من الأهالي تتواصل (٣) . وكان في بيروت «أوقاف» للبر والخير ، فقرر وجوه الأهالي تسلمها للجمعية بمصادقة الحكومة السنية . وتعتبر السيدة عائشة بنت الحاج مصطفى آغا القباني، وهي أخت عبد القادر القباني ، أول من قدمت من أملاكها وقفاً للجمعية (٤) .

وبعد ست سنوات من تأسيسها ، أخذت تركيا تحارب جمعية المقاصد ، ذلك أن مدحت باشا والي سوريا (وبيروت تابعة لولاية سوريا)، بذل عنايته لمساعدة الجمعية، إلا أن روح الحسد حمل البعض على الوشاية بأن مدحت باشا يفكر بالاستقلال في سوريا ، بواسطة جمعية المقاصد . فعينت الحكومة التركية مكانه حمدي باشا ، الذي أمر بحل الجمعية وإلحاقها بالمعارف ، وسماها «شعبة المعارف الأهلية»، وعين رئيساً لها عبد الله جمال الدين أفندي (انتقل فيما بعد إلى مصر وأصبح قاضياً لها). ثم تبدلت حال «شعبة المعارف»، وأخذت الجمعية بالاضمحلال، وكسدت مدارسها، حتى كان إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨، وطالب البيروتيون بإعادة جمعية المقاصد فأعيدت ، وانتخب رئيساً لها الشيخ عبد الرحمن أفندي الحوت ، ثم خلفه الشيخ مصطفى أفندي نجا. ومع سليم علي سلام سنة ١٩٠٩، بدأت الجمعية تستعيد نشاطها، فاستأجرت مكاناً آخراً في زقاق البلاط وجعل مدرسة للذكور . وفي سنة ١٩١٢ كانت مدارس الجمعية زاهية (٥). وفي الحرب العالمية الأولى أصبحت الجمعية في عهدة الدولة التركية، وبعد انتهاء الحرب عاد الأهالي واسترجعوا الجمعية. وكان قيام جمعية المقاصد في بيروت سنة ١٨٧٨ حافزاً لتأسيس جمعية المقاصد

---

(١) محمد بيرم التونسي: صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، جـ ٥، ص ٣٩.
(٢) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ٢، ص ٣٣٥ و٥٥٦ ـ ٥٥٨.
(٣) المرجع نفسه، م ٢، ص ٥٠١ ـ ٥٠٢.
(٤) المرجع نفسه، م ٢، ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧.
(٥) المرجع نفسه، م ١، ص ١٥٢ ـ ١٥٤.

الخيرية الإسلامية في صيدا يوم ٢٦ ربيع الثاني ١٢٩٦/ ١٠ نيسان ١٨٧٩ ، وكانت برئاسة محمد فريد خورشيد (١) .

وانتشرت المدارس الوطنية الإسلامية في بيروت، ففي سنة ١٨٨٤ ، أنشأ والي سوريا حمدي باشا «المدرسة الإعدادية السلطانية» للبنات ، في المنطقة التي عرفت بـ الباشوراء (حالياً ثانوية المقاصد للبنات) . وفي سنة ١٨٨٦ كانت توجد عدة مدارس تابعة للدولة العثمانية وتخص المسلمين (٢)، مثل المدرسة العسكرية وعدد طلابها ١٢٠ (حالياً مبنى ثانوية حوض الولاية للبنين)، فضلاً عن ١٢ مدرسة ابتدائية قديمة و٤ مدارس جديدة للذكور، و٤ مدارس ابتدائية جديدة للإناث . وأنشأ حسن المدور (٣) «المدرسة العلمية»، واشتهرت «المدرسة العثمانية» سنة ١٨٩٧، ومؤسسها هو أحمد عباس الأزهري (١٨٥٣ ـ ١٩٢٧)، لكن الأتراك أغلقوها أثناء الحرب العالمية الأولى (٤) .

وكذلك انتشرت المدارس الوطنية غير الإسلامية في بيروت ، فتأسست «مدرسة الثلاثة أقمار» سنة ١٨٥٢ ، بعد نقل مطرانية الروم الأرثوذكس مدرستها من سوق الغرب إلى بيروت . وسنة ١٨٦٣ ، أسس المعلم بطرس البستاني «المدرسة الوطنية» في زقاق البلاط . وفي المنطقة ذاتها، أنشئت «المدرسة البطريركية» للروم الكاثوليك سنة ١٨٦٥ . كما أنشئت «مدرسة الحكمة» للموارنة سنة ١٨٧٤ ، وقد أسسها المطران يوسف الدبس ، بعد أن نقل المطرانية من الجبل إلى بيروت . وأنشأت السيدة إميلي سرسق ، «مدرسة زهرة الإحسان» للبنات، في الأشرفية وذلك سنة ١٨٨٠ .

وفي سنة ١٨٨٦ كانت المدارس غير الإسلامية في بيروت (٥) ، عبارة عن ٣٥ مدرسة عادية للذكور فيها ٢١٢٠ طالباً ، و٣ مدارس عادية للإناث فيها ٣٨٥

---

(١) يوسف يزبك : أوراق لبنانية ، م ١، ص ١٨٤ ـ ١٨٥ .
(٢) عبد العزيز عوض: الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ص ٣٦٣ و٣٦٥.
(٣) حسن المدور (١٢٧٩ ـ ١٣٣٢/١٨٦٢ ـ ١٩١٤): حسن بن رمضان المدور. ولد وتوفي ببيروت، تعلم بها وبدمشق وتتلمذ للشيخ محمد عبده وغيره من علماء الأزهر بمصر وعاد إلى بيروت فأنشأ المدرسة العلمية وعكف فيها وفي بعض المساجد والمدارس الأخرى على تدريس الفقه والمنطق والفرائض. وعيِّن أميناً للفتوى وأستاذاً للدروس الدينية في «المكتب» السلطاني فاستمر إلى أن توفي. الزركلي: الاعلام، جـ ٢، ص ١٩١ .
(٤) كمال الصليبي : تاريخ لبنان الحديث، ص ١٨٣ .
(٥) عبد العزيز عوض: الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ص ٣٦٨.

طالبة ، فضلاً عن ٤٧ مدرسة عالية للذكور فيها ١٤٥٠ طالباً، و٢٣ مدرسة عالية للإناث فيها ٣٨٠٠ طالبة .

(د) الصحافة والتأليف :

وفي هذا المجتمع البيروتي نشط المفكرون المسلمون البيروتيون ، في إصدار المجلات والجرائد والكتب ، فأصدر عبد القادر القباني جريدة «ثمرات الفنون» الأسبوعية التي استمرت ٣٣ سنة (١٨٧٥ - ١٩٠٨). كما عمل في تحرير هذه الجريدة الشيخ أحمد طبارة ، الذي أنشأ جريدة «الاتحاد العثماني» اليومية والتي أغلقتها الحكومة على أثر إعلان الدستور سنة ١٩٠٨، فأصدر جريدة «الإصلاح» وكانت تناصر الحركة الإصلاحية التي قامت في بيروت تطالب باللامركزية. كما شارك عبد الغني العريسي في إصدار جريدة «المفيد» اليومية. إضافة إلى عمر حمد الذي ألهب الحماس بقصائده الشعرية . وألف مصطفى الأسير[1] رسالتين هما «النبراس» في فضائل الإسلام ، و«هدية الإخوان في تفسير ما أبهم على العامة من ألفاظ القرآن». وفي القانون والشرع برز المحامي محمد طبارة[2] ، الذي بقي من مؤلفاته «الأساس في العفة» .

وأنشأ يوسف سنو[3] من آل يموت ، المطبعة العثمانية في بيروت ، وأصدر مصطفى الغلاييني[4] مجلة «النبراس» ، وكذلك رشيد الدنا كان له صحيفة «بيروت» أصدرها سنة ١٨٨٦ .

---

(١) مصطفى الأسير (١٢٧٣ - ١٣٣٣/١٨٥٦ - ١٩١٥): مصطفى بن يوسف بن عبد القادر الأسير الحسيني البيروتي، ولد وتوفي في بيروت. من موظفي حكومتها وحكومة دمشق.
الزركلي: الاعلام، جـ٧، ص ٢٤٧.

(٢) محمد بن يحيى طبارة (١٢٦٤ - ١٣٥٢/١٨٤٨ - ١٩٣٣): أديب متفقه متشرّع من أهل بيروت وقد عمل محامياً شرعياً ثم كان من أعضاء محكمة استئناف الحقوق بولاية بيروت. له شعر ضاع مع مكتبة له، بيعت بعد وفاته.
المرجع نفسه، جـ٧، ص ١٤٣.

(٣) يوسف سنو (ت ١٣٢٣/١٩٠٥): يوسف بن عبد الغني بن حسين سنو بن حسن بن ابراهيم الحسيني من آل يموت: أديب من أهل بيروت، رحل إلى القاهرة ولعله توفي فيها. له كتب «أبدع ما نظم في الأخلاق والحكم» و«المعاني البديعة في شعر ابن أبي ربيعة» و«الجوهر الفرد في شعر طرفة بن العبد».
المرجع نفسه، جـ٨، ص ٢٣٨.

(٤) مصطفى بن محمد سليم الغلاييني (١٣٠٣ - ١٣٦٤/ ١٨٨٦ - ١٩٤٤): شاعر =

وصدرت في بيروت صحف كثيرة أصحابها مسيحيون وهي : «حديقة الأخبار» التي أصدرها خليل خوري سنة ١٨٥٧ ، «والبشير» لفيليب برتوي الفرنسي، و«المصباح» لنقولا النقاش، وقد صدرتا سنة ١٨٧٥ ، و«لسان الحال» لخليل سركيس سنة ١٨٧٧ ، و«الأحوال» لخليل البدوي سنة ١٨٩١ [1] .

وكان أول تعطيل إداري في الصحافة البيروتية ، هو عندما أوقفت الحكومة التركية جريدة «النحلة» لصاحبها القس لويس الصابونجي سنة ١٨٧١ ، بسبب حملته على زميليه المعلم بطرس البستاني ونجله سليم ، صاحبي «الجنة» و«الجنان» [2] .

٥ - إحياء فكرة القومية العربية (١٨٧٥ - ١٨٨٣) :

كان الدين (الإسلام) يجمع الأتراك العثمانيين مع الأغلبية الساحقة من العرب ، وكانت القومية (عرب وأتراك) تفرق بينهما . واستغل المسيحيون هذا الواقع ، وقاموا بإحياء فكرة القومية العربية ، وذلك لإثارة الشعور القومي عند المسلمين العرب ، فيتحدون مع المسيحيين العرب في جبهة قومية واحدة ضد المسلمين الأتراك . وبذلك يسهل التخلص من الحكم التركي الإسلامي .

وكان الموارنة يعتبرون جبل لبنان وطناً مسيحياً قبل كل شيء[3] ويطالبون بتوسيع رقعة هذا الوطن المسيحي حتى يصبح صالحاً للبقاء وهذا ما يمثل «القومية اللبنانية». في حين أن الروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك، شمل ولاؤهم الوطني سوريا كلها، حيث لهم فيها إخوان كثيرون ؛ فنمت عندهم فكرة «القومية السورية» التي تتخطى الاعتبارات الدينية والطائفية ، لتحتضن المسلمين والمسيحيين السوريين على السواء لأن التعاون المسيحي - الإسلامي برأيهم هو الضمان الأكبر للمسيحيين في البلاد . وفي نهاية القرن

= من الكتاب الخطباء، من أعضاء المجمع العلمي العربي، ولد وتوفي ببيروت وتتلمذ للشيخ محمد عبده. أصدر مجلة «النبراس» سنتين ببيروت ووظف فيها أستاذاً للعربية في المدرسة السلطانية أربع سنوات. نصب رئيساً للمجلس الإسلامي في بيروت ثم قاضياً شرعياً إلى أن توفي. من كتبه «نظرات في اللغة والأدب» و«عظة الناشئين» و«نظرات في كتاب السفور والحجاب» و«ديوان الغلاييني».
الزركلي: الاعلام، جـ٧، ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

(١) يوسف يزبك، أوراق لبنانية، م ١، ص ٤٧٣.

(٢) المرجع نفسه، م ٣، ص ٦٥.

(٣) كمال الصليبي: تاريخ لبنان الحديث، ص ١٩٨.

التاسع عشر شددت الأوساط الأدبية والعلمية التي نشأت حول الكلية السورية الإنجيلية في بيروت ، على عروبة سوريا .

وفي بيروت ، ثم إنشاء «جمعية الآداب والعلوم»[1] سنة ١٨٤٧ ، وكانت تضم خمسين عضواً من المسيحيين المقيمين في بيروت ، ولم يكن فيها عضو مسلم ، وكان من أعضائها ناصيف اليازجي وبطرس البستاني.. وتعتبر الأولى من نوعها في بيروت وبلاد الشام ، كما تألفت من المسيحيين أيضاً ، «الجمعية الشرقية»[2] سنة ١٨٥٠ ، ثم حلت الجمعيتان ، وتبلورت فكرة إشراك المسلمين في هذا النوع من العمل السياسي . فأنشئت «الجمعية العلمية السورية» سنة ١٨٥٧ وقد تولى رئاستها الحاج حسين بيهم [3] من وجوه بيروت ، وتضم ١٥٠ عضواً ، واشترك فيها زعماء العرب من مختلف الطوائف والمناطق ، ففيها المسلم والدرزي إلى جانب المسيحي ، ومنهم حسين بيهم المسلم البيروتي ، والأمير محمد أرسلان الدرزي . . والرابط بينهم جميعاً الوحدة الوطنية والاعتزاز بالتراث العربي .

لكن أول صوت ظهر لفكرة القومية العربية ، كان في اجتماع سري عقده خمسة شبان [4] من المسيحيين الأعضاء في «الجمعية العلمية السورية» ، وذلك سنة ١٨٧٥ . ومنهم إبر هيم اليازجي ويعقوب صروف وفارس نمر ، وقاموا بإنشاء «جمعية ثورية سرية» . وأخذوا يجتمعون مساءً عند الشاطىء الصخري (الروشة) في رأس بيروت ، لتحقيق هدفهم الحقيقي ، وهو التخلص من الحكم العثماني الإسلامي ، عن طريق فكرة العروبة التي تعتبر قاسماً مشتركاً بين المسلمين العرب والمسيحيين العرب . والعروبة كشعار تستطيع إثارة الشعور بالقومية في نفوس المسلمين العرب[5]. وهكذا أحيا

(١) جورج أنطونيوس: يقظة العرب، ص ١١٧ .
(٢) المرجع نفسه، ص ١١٨ .
(٣) الحاج حسين بيهم (١٢٤٩ - ١٨٣٣/١٢٩٨ - ١٨٨١): حسين بن عمر بن حسين العيتاني بيهم البيروتي: فاضل له نظم جمع في ديوان و«رواية» وطنية مثلت في بيروت. ولد وتوفي في بيروت. وكان من وجوهها وناب عنها في مجلس النواب العثماني وتولى رئاسة الجمعية العلمية السورية بها. وكلمة «بيِّهم» عامية بيروتية معناها «أبوهم».
الزركلي: الاعلام، جـ ٢، ص ٢٥٠ .
(٤) جورج أنطونيوس: يقظة العرب، ص ١٤٩ .
(٥) زين زين: نشوء القومية العربية، ص ٦١ .

المسيحيون في بيروت فكرة القومية العربية [1] . وكان على أعضاء «الجمعية الثورية السرية» وهم من المسيحيين العرب ، استغلال فكرة القومية العربية لنشرها بين المسلمين العرب وبالتالي الوقوف في وجه الأتراك المسلمين. لذلك لجأوا إلى خطة إدخال بعض الوجهاء المسلمين الذين يشاركون في المحافل الماسونية في بيروت ، فانضم بعضهم إلى عضوية هذه المحافل بهدف استمالة المسلمين للانتماء إلى «الجمعية الثورية السرية» . ونجحت الخطة والتقى بذلك المسيحيون والمسلمون ، واتفقوا على محاربة الأتراك على أساس العروبة ، ومبدأ المساواة بين العرب والأتراك . وأخذت « الجمعية الثورية السرية » توزع المناشير المغفلة سنة ١٨٨٠ ، والتي تعلق على الجدران بعد منتصف الليل ، وبالقرب من مقر القنصليات الأجنبية في بيروت ودمشق وصيدا وطرابلس ، بهدف إثارة روح الوطنية في نفوس العرب ، والثورة على الأتراك . ففي ٢٨ حزيران سنة ١٨٨٠ أرسل جون ديكسون Dikson ، وكيل القنصل العام الإنكليزي في بيروت ، إلى ج . ت . غوشن G. T. Goshen السفير الإنكليزي في الأستانة ، يخبره أن «مناشير ثورية» ظهرت على جدران مدينة بيروت ، وأن مثل هذه المناشير ظهرت مراراً في بيروت ، وهي «تناشد الأهالي أن يثوروا» [2] .

كذلك أرسل القنصل الفرنسي العام في بيروت ويدعى سينكفتس Sienkiwiez ، رسالة في ٢ حزيران سنة ١٨٨٠[3] إلى وزير الخارجية الفرنسية فريسنيه Freycinet ، ذكر فيها شيئاً عن ظهور هذه المناشير في بيروت ودمشق ، وقال إنها تناشد الأهالي المطالبة باستقلال سوريا الذاتي .

ثم أرسل جون ديكسون الإنكليزي ، رسالة أخرى إلى سفير بلاده في الأستانة في ٣ تموز سنة ١٨٨٠ ، يقول فيها[4]: «يسعدني أن أخبركم بأن إصدار هذه المناشير

(١) تعتبر زاهية قدورة أن رسالة يوسف كرم من منفاه في إيطاليا والتي بعث بها إلى الأمير عبد القادر الجزائري الذي كان يقيم في دمشق وله مواقف مشرفة في مساعدة المسيحيين في فتنة ١٨٦٠ م، كانت تدور على فكرة إنشاء دولة عربية بزعامة الأمير عبد القادر الجزائري وفيها يقول يوسف كرم: «إن لا نجاة ولا نجاح للأقطار العربية جمعاء إلا بالاتحاد تحت رايتكم الشريفة».
زاهية قدورة: تاريخ العرب الحديث، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .
(٢) زين زين: نشوءالقومية العربيّة، ص ٦٢ .
جورج أنطونيوس: يقظة العرب، ص ١٥٣ .
(٣) زين زين: نشوء القومية العربية، ص ٦٣ .
(٤) المرجع نفسه، ص ٦٦ .

وتوزيعها لم يكن له من أثر في نفوس أهل بيروت، وإذا كانت قد أحدثت ضجة فإنها أقرب إلى أن تكون استغراباً وفضولاً في معرفة مصدرها، من أن تكون إحساساً وطنياً. لكنها قد تكون علامة تشير إلى أن في الأفق بوادر تذمر، وأن المسلم كالمسيحي أخذ يبدي معارضة صارخة ضد الحكم التركي » .

ومما لا شك فيه أن بعض هذه المناشير صدر عن «الجمعية الثورية السرية» التي تأسست في بيروت، ولعل البعض الآخر من المناشير الثورية صدر عن «جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية»[1]، التي تأسست منذ فترة قصيرة برعاية مدحت باشا. ثم أوقفت الجمعية الثورية السرية سنة ١٨٨٢ - ١٨٨٣، وأحرقت وثائقها، واعتبرت نفسها جمعية منحلة. ويرجع فشلها إلى أن المسلمين وإن اتفقوا مع أعضائها المسيحيين في محاربة الظلم والفساد التركي، إلا أنهم لم يتفقوا معهم في أساس هدف الجمعية السرية وهو طرد الأتراك من ولايتي سورية وحلب ومتصرفية جبل لبنان، لأن الأتراك مسلمون مثلهم. وبقي زعماء المسلمين إلى جانب الغالبية الساحقة من سكان الولايات العربية على ولائهم للأتراك المسلمين، حتى أن أعيان بيروت ووجهاءها وأغنياءها، وقعوا رسالة وبعثوا بها إلى والي بيروت، يعربون فيها عن ولائهم للسلطان، واستنكارهم لكل حركة ثورية[2].

وهكذا تباينت المواقف من جديد بين المسلمين والمسيحيين، فبينما كان المسيحيون يطالبون بالاستقلال السياسي والإصلاح السياسي، كان المسلمون يطالبون بتطهير الدولة العثمانية وإصلاح الإدارة فيها، وبالرجوع إلى الإسلام. وبقي ولاء المسلمين للخلافة الإسلامية المتمثلة بالسلطان العثماني. واستمرت الرابطة الدينية تشد المسلمين إلى الأتراك المسلمين.

---

(١) زين زين: نشوء القومية العربية، ص ٦٥.
(٢) المرجع نفسه، ص ٦٤.

الفصل السابع

ولاية بيروت
(١٣٠٦ - ١٣٣٦ / ١٨٨٨ - ١٩١٨)

في سنة ١٨٦٤، صدر قانون تشكيل الولايات[1]، وأصبحت بلاد الشام تضم ولايتين فقط هما ولاية سورية وولاية حلب، واختفت ولاية صيدا. وألحقت مدن بيروت وصيدا وطرابلس بولاية سورية، في حين قامت متصرفية جبل لبنان الذي نال استقلاله الإداري. وفي سنة ١٨٨٨، فصلت بيروت عن ولاية سورية وأنشئت ولاية بيروت ومركزها مدينة بيروت. واستمرت هذه الولاية ٣٠ سنة، شهدت فيها مدينة بيروت سلسلة من الأحداث السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية والعمرانية . . .

١ - إنشاء ولاية بيروت ومركزها مدينة بيروت (١٣٠٦ / ١٨٨٨):

برَّرت الدولة العثمانية إنشاء ولاية بيروت سنة ١٨٨٨، بأنه «نتيجة ازدياد أهمية مدينة بيروت وحساسيتها»[2]، وكذلك للوقوف في وجه النفوذ الأجنبي والتقليل من شأنه وأسبابه، بالإضافة إلى اتساع ولاية سورية واتخاذ ولاتها مدينة دمشق مركزاً لهم، الأمر الذي يجعل بيروت في وضع دون أهمية دمشق، لذلك استدعت الضرورة السرعة في جعل بيروت ولاية، بعد فصلها عن ولاية سورية.

وبمقتضى هذا التنظيم الإداري الجديد استمرت بلاد الشام (سورية) حتى انتهاء الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨، تنقسم إلى ثلاث ولايات هي دمشق وحلب وبيروت، وثلاث متصرفيات هي جبل لبنان والقدس ودير الزور[3].

---

(١) عبد العزيز عوض: الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ص ٦٦ - ٧٠.
(٢) المرجع نفسه، ص ٧٢.
(٣) يوسف الحكيم: سورية والعهد العثماني، ص ٥٠ و٥٢.

وأما ولاية بيروت ، فتمتد على طول ٣٥٥ كلم وعرض يتراوح بين ٣٠ و٩٠ كلم ، في مساحة تقدر بـ ٣٠٥٠٠ كلم٢ . وتقع بين خطي الطول ٣٢,٣٥° - ٣٤,١٠° ، وخطي العرض ٣١,٥٠° - ٣٥,٣٥° ، يحدها شمالاً ولاية حلب ، وشرقاً ولايتا حلب ودمشق ، وجنوباً لواء القدس ، وغرباً البحر المتوسط (١) .

وتشتمل ولاية بيروت على خمسة ألوية هي : بيروت واللاذقية وطرابلس وعكا ونابلس ، وتحوي كل منها أقضية ومديريات (٢) .

وكان لواء بيروت يضم أربعة أقضية هي : بيروت وصيدا وصور ومرجعيون ، مساحتها ٤٥٣٠ كلم٢ . أما الأقضية الأربعة : البقاع وبعلبك وراشيا وحاصبيا ، فكانت تتبع ولاية دمشق (٣) .

أما لواء اللاذقية فيضم أربعة أقضية ، هي «اللاذقية ومرقب وصهيون وجبلة ، مساحتها ٥٨١٠ كلم٢ . . وكان لواء طرابلس يضم أربعة أقضية أيضاً ، هي : طرابلس وعكار وصافيتا وحصن الأكراد ، مساحتها ٥٩٦٩ كلم٢ . ويضم لواء عكا خمسة أقضية هي : عكا وحيفا وصفد وطبريا وناصرة ، مساحتها ٧٥٢٧ كلم٢ ، وأخيراً كان لواء نابلس يضم ثلاثة ألوية فقط ، هي نابلس وبني صعب وجنين ، مساحتها ٦٦٦٤ كلم٢ .

وكان علي باشا ، أول من صدرت الإرادة السلطانية بتعيينه والياً على ولاية بيروت (٤) .

---

(١) التميمي وبهجت : ولاية بيروت، جـ ١، ص ٧.
(٢) التميمي وبهجت : ولاية بيروت، جـ ١، ص ٧ و٨، وجـ ٢، ص ١٩ و٢٠.
عبد العزيز عوض : الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ص ٧٢ و٨٠.
ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .
(٣) يوسف الحكيم : بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ٢٦ .
سورية والعهد العثماني، ص ٥٢ .
عبد العزيز عوض : الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ص ٧٤.
كمال الصليبي : تاريخ لبنان الحديث، ص ١١ - ١٢.
(٤) عبد العزيز عوض : الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ص ٧٢.

ولاية بيروت (١)

سنة ١٣٣٢ / ١٩١٣

اللواء	الأقضية	السكان	المساحة	النواحي	القرى والمزارع
بيروت	١ - بيروت	١٥٠٠٠٠			
	٢ - صيدا	٥٤٢٨٤			
	٣ - صور	٤١٢٤٠			
	٤ - مرجعيون	٣١١١٥			
		٢٧٦٦٣٩	٤٥٣٠ كلم٢	٨	٣٦١
عكا	١ - عكا	٤١٣٢٢			
	٢ - حيفا	٣٠٧٣٠			
	٣ - صفد	٣٢٢٣٧			
	٤ - طبريا	١٤١٩٠			
	٥ - ناصرة	٢٠٧٩٠			
		١٣٩٢٦٩	٧٥٢٧ كلم٢	٤	٢٥٥
طرابلس	١ - طرابلس	٦٦٥٤٨			
	٢ - عكار	٤٢٣٦٣			
	٣ - صافيتا	٣٧٩١٣			
	٤ - حصن الأكراد	٢٩٧٠١			
		١٧٦٥٢٥	٥٩٦٩ كلم٢	٥	٦٨٣

---

(١) التميمي وبهجت : ولاية بيروت، جـ ١، ص ٧ و٨، وجـ ٢، ص ١٩ و٢٠ .
عبد العزيز عوض : الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ص ٨٠ .
ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

تابع جدول ولاية بيروت سنة (١٣٣٢/١٩١٣)

اللواء	الأقضية	السكان	المساحة	النواحي	القرى والمزارع
اللاذقية	١ ـ اللاذقية	٥١٢٥٩			
	٢ ـ مرقب	٣٤٨١٦			
	٣ ـ صهيون	٣٢٩٧٢			
	٤ ـ جبلة	٢٨٦٥١			
		١٤٧٦٩٨	٥٨١٠ كلم٢	١٧	١٤٤٠
نابلس	١ ـ نابلس	٧٧٦٤٩			
	٢ ـ بني صعب	٣٥٨٠٩			
	٣ ـ جنين	٤١٩١٥			
		١٥٥٤٦٣	٦٦٦٤ كلم٢	٩	٢٢٨٠
المجموع	٥	٨٩٥٥٩٤	٣٠٥٠٠ كلم٢	٤٣	٥٠١٩

٢ ـ الأحوال العامة في ولاية بيروت :

بعد إنشاء ولاية بيروت سنة ١٨٨٨ ، كان وضع السكان والإدارة والعدل والقضاء والصحة والجيش والاقتصاد . . . كما يلي :

(أ) السكان :

تذكر سالنامة بيروت التي طبعت سنة ١٣٢٤/١٩٠٥، أن عدد سكان ولاية بيروت هو ٦٨٠٠٦٥ نسمة، منهم ٥٥٣٥٢٥ مسلمون [١]. وحسب دوائر النفوس سنة

(١) التميمي وبهجت: ولاية بيروت، جـ٢، ص ٢١.

١٣٣٢ / ١٩١٣ ، فإن العدد ارتفع إلى ٨٩٥٥٩٤ ، منهم حوالى ٦٧١٥٠٠ مسلمون . وعلى هذا الأساس يكون المسلمون ٧٤,٨ في المائة ، يغلب عليهم مذهب أهل السنة مع أقلية من المتاولة والدروز والاسماعيلية والنصيرية . أما المسيحيون فيمثلون ٢٣,٥ في المائة، وأكثريتهم من الأرثوذكس مع أقلية من الموارنة والأرمن والإنجيليين واللاتين [١] . وأخيراً يمثل اليهود ١,٧ في المائة ، وهم مع قلة عددهم ، يسكن معظمهم في لوائي بيروت وعكا . ففي مدينة بيروت نفسها ٢٧٨٤ يهودي ، وفي صفد ٦٠٧٥ ، وفي طبريا ٤٢١٠ ، وفي حيفا ١١١٧ ، وفي عكا ١٠٥ فقط[٢]. وبذلك يكون لواء عكا التابع لولاية بيروت ، قد شهد قيام المستعمرات اليهودية ، ففيه نشأت سنة ١٨٩١، جمعية تدعي «هجليليم » أي (الجليلين) مهمتها الحصول على الأراضي ليمتلكها اليهود . وكانت قد تأسست في قضاء صفد ، مستعمرة «روش فنا» سنة ١٨٨٢ ، و«خربة زبيد» سنة ١٨٨٣ ، و«عين الزيتون» سنة ١٨٩٠ . أما في قضاء حيفا ، فاشترت شركة روسية مستعمرة «زمار» سنة ١٨٦٢ ، و«خضيرة» سنة ١٨٩٠ ، وتملكت لجنة أحباء صهيون «ضيعة كفرعنا» سنة ١٨٩١ . . .

وقد انتشرت المستعمرات اليهودية بكثرة خارج ولاية بيروت في يافا والقدس وحوران وعبر الأردن [٣] .

أما مدينة بيروت ، فقد تطور عدد سكانها من ثلاثين ألف نسمة سنة ١٨٥٢ ، إلى أربعين ألف نسمة ١٨٧١ ، ومائة ألف سنة ١٨٨٥ . وعندما أصبحت مركز ولاية بيروت سنة ١٨٨٨ ، ارتفع الرقم حتى بلغ مائة وخمسين ألف نسمة سنة ١٩١٠ ، وكانت أغلبية السكان من المسلمين .

ويوضح الرحالة محمد بيرم التونسي، الذي زار بيروت سنة ١٨٨٠، الإلفة والمحبة بين أهالي بيروت ، الذين «وإن كانوا قسمين ، مسلمين ونصارى ، لكنهم جميعاً في غاية الإلفة بعضهم مع بعض ، وعوائدهم جميعاً واحدة ، حتى في محاسن أخلاقهم » [٤] .

ومن أبرز العائلات البيروتية الإسلامية : بيهم ، سلام ، الحص ، حمادة ،

(١) يوسف الحكيم: سورية في العهد العثماني، ص ٦٦.
(٢) التميمي وبهجت: ولاية بيروت، جـ٢، ص ٢٠.
(٣) هنري لامنس: مجلة المشرق، العدد ٢٣، أول كانون الأول ١٨٩٩.
(٤) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ١، ص ١٧٣.

داعوق ، طبارة ، القـاضي ، الصلح ، شبارو ، رمضـان ، نحاس ، نجـا ، أنسي ، مجذوب ، غزاوي ، طيارة ، علايا ، هبري ، كعكي . . أما العائلات البيروتية المسيحية فأبرزها: سرسق، بسترس، تابت، تويني، كرم، طراد، جبيلي، مناسترسكي، هاني ، ملكي ، فرعون ، ملحمة ، المدور . . ، وكانت تغلب عليهم العادات الغربية لكثرة أسفارهم إلى أوروبا ، دون أن يهملوا العادات الشرقية المألوفة في المجتمع البيروتي . وكان الرؤساء والوجهاء وأهل العلم والأدب ، مسلمين ومسيحيين ، يشتركون في الحفلات الرسمية التي تقام في العاصمة التركية، كما كانوا يزورون والي بيروت[1] ، ويتبادلون الزيارات في منازلهم يومي العطلة الأسبوعية «الجمعة والأحد» ، مما ساعد في زيادة التفاهم والمودة بين أبناء بيروت ، وهذا من التقاليد الاجتماعية الشرقية .

(ب) الإدارة :

كان يعين على ولاية بيروت والٍ تركي الجنسية، وكان مثل غيره من الولاة الأتراك ، تابعاً لوزارة الداخلية في العاصمة التركية . أما مدينة بيروت نفسها ، وهي مركز الولاية ، فكان يعين عليها متصرف تركي أغلب الأحيان [2] . وكانت القاعدة المتبعة في الإدارة هي المركزية ، أي الرجوع في كل إصلاح أو عمل هام إلى وزير الداخلية [3] ، مما أدّى إلى بطء تقدم الولاية في طرق الإصلاح الإداري والعمراني. وسنة ١٨٩٢ كان مجلس إدارة الولاية، يتألّف من الرئيس والي بيروت خالد بك أفندي؛ ومن خمسة أعضاء طبيعيين هم نائب الرئيس «قاضي الشرع» عبد الله كمال الدين أفندي، والدفتردار «رئيس المالية» حنيف أفندي، والمكتوبجي «أمين السر العام» عبد الله نجيب أفندي، والمفتي الشيخ عبد الباسط الفاخوري، ونقيب الأشراف الشيخ عبد الرحمن النحاس؛ ومن ستة أعضاء منتخبين، هم سعد الدين باشا القباني، وحسن بيهم، ومصباح الغندور، ونخلة التويني، والياس عرب، وميخائيل فرعون[4].

وكانت وظائف الدرجة الأولى، تقتصر على الأتراك، في معظم الأحيان، مثل الدفتردار والمكتوبجي والمدعي العام ومديري المعارف والصحة والنافعة والزراعة والبرق

(١) يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ٣٤.
(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٦ .
(٣) المرجع نفسه، ص ٢٧ .
(٤) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ١، ص ٣٩٧ ـ ٣٩٩.

والبريد والطابو «السجل العقاري» والشرطة والأمن العام وقائد الدرك. أما وظائف الدرجة الثانية فما دون، فكانت تقتصر على أبناء ولاية بيروت، وغيرهم من الولايات[1].

ولم يقبل المسيحيون في مدينة بيروت على وظائف الحكومة إلا نادراً، وانصرفوا إلى التجارة والمهن الحرة، مكتفين بالمناصب الإنتخابية كعضوية المجالس الإدارية والبلدية والقضائية، إذ كان نصف أعضائها من المسلمين والنصف الآخر من غير المسلمين .

(ج) بلدية بيروت :

تأسست بلدية بيروت سنة ١٨٦٧ ، بهدف تحسين وضع مدينة بيروت. وبعد إنشاء ولاية بيروت سنة ١٨٨٨ ، لم تستطع بلدية بيروت القيام بمهامها لتطوير المجتمع البيروتي، وذلك بسبب قلة واردات البلدية. وقد تولى رئاستها فخري بك[2] الذي عمل على نهضتها ، كما تولى محيي الدين حمادة رئاسة البلدية سنة ١٨٩٢ . وكانت شرطة بلدية بيروت تتألف من المفتش أحمد أفندي رمضان الذي يتقاضى ٦٠٠ غرش شهرياً، ومن ١٢ جاويش يتقاضى كل منهم ٣٠٠ غرشاً شهرياً[3]، وهم: محمد أفندي فائد، وأمين آغا قسطموني، ومتري أفندي شويري ، ونجيب أفندي فيعاني ، وعبد الرحيم أفندي عانوتي ، ونخلة أفندي سلامة ، وسعيد أفندي الأغر ، وبشارة أفندي الزند ، وسعيد أفندي نعماني ، وأحمد أفندي العرب ، وأسعد أفندي عقل ، والحاج خليل آغا منيمنة .

وسنة ١٨٩٩ تولى محيي الدين حمادة أيضاً رئاسة بلدية بيروت. وكان المجلس البلدي يتألف من الأعضاء: محمد أياس، موسى فريج، بشارة أرقش، خليل سرسق، جبور الطبيب، نخلة التويني، يوسف جدي، ملحم فياض، حبيب طراد، بشارة الهاني، ابراهيم الطيارة.

وكان أمين صندوق البلدية يدعى سليم البربير، والمهندس: يوسف خياط، ومعاون المهندس: نخلة فيعاني، والمفتش أحمد رمضان، وطبيب الكرنتينا: دلشيانوك[4].

(١) يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ٢٧.
(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٧ .
(٣) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ١، ص ٨٦ ـ ٨٧.
(٤) المرجع نفسه، م ٣، ص ١٨٤ ـ ١٨٦ .

ثم تقدمت بلدية بيروت بعد إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨، ولا سيما في عهد رئيسها منح بك رمضان [١].

(د) العدل والقضاء:

وفي العدل والقضاء، كان أهم ما يميز القاضي هو الوجاهة قبل العلم. وسنة ١٨٩٢ - ١٨٩٣، كان المدعي العام يدعى علي ياور، ويعاونه عمر لطفي. وكانت المحكمة البدائية للحقوق برئاسة يوسف النبهاني، يعاونه سعد الدين الغندور، وسليم الجارودي، والياس طراد. أما المحكمة البدائية للجزاء فيرئسها حميد أفندي، ويعاونه منح الصلح، ويوسف التيان، وسليمان أبي عكر. وكانت المحكمة الإستئنافية للحقوق برئاسة كمال الدين أفندي، ويعاونه محمد بدران، وعبد الرحمن العيتاني، وبطرس التيان، وبطرس داغر، ورسلان دية. في حين رئس اسماعيل حقي بك المحكمة الإستئنافية للجزاء، ويعاونه عبد القادر القباني، وعمر رمضان، وبشارة الصباغ، وحنا الخوري. وكانت هناك محكمة للتجارة برئاسة عبد القادر أفندي، ويعاونه عبد الله بيضون، وحسن البربير، وجبور الطبيب[٢]. وكان محمد اللبابيدي مأموراً لدائرة الإجراء. وفي سنة ١٨٩٩ كانت المحكمة الشرعية برئاسة القاضي اسماعيل رامز بك، يعاونه الشيوخ ابراهيم الأحدب، ويوسف الأسير، ويوسف عز الدين[٣].

وكان جميع أعضاء المحاكم البدائية والإستئنائية في بيروت يعيِّنهم وزير الداخلية والوالي والمتصرِّف لمدة سنتين، على أساس الوجاهة والمحسوبية. إلى أن أعلن الدستور سنة ١٩٠٨، وأصبحت الكفاءة الحقوقية هي الأساس الأول في تعيينهم، مما حفظ للقضاء هيبته وكرامته [٤].

(هـ) الجيش:

كانت القيادة العسكرية في ولايات سورية (دمشق وحلب وبيروت)، هي قيادة الجيش الثامن ومركزها دمشق، وقائدها الأعلى برتبة مشير (سميت بعد إعلان

(١) يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ٢٨.
(٢) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ١، ص ٣٩٧ - ٣٩٩.
(٣) المرجع نفسه، م ٣، ص ١٨٤ - ١٨٦.
(٤) يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ٢٩.

الدستور سنة ١٩٠٨ قيادة الفيلق الرابع ويرئسها فريق). كما يرئس القيادة في مراكز بيروت[١] وحلب والقدس فريق أو أمير لواء، وفي باقي مراكز الألوية ميرالاي (أي عميد وكولونيل).

ولم يظفر أهل مدينة بيروت والمدن الساحلية بالرتب العالية في الجيش العثماني، كما حصل لأهل دمشق وحلب، فمنذ أن تولى مدحت باشا ولاية دمشق سنة ١٨٧٩، عمل على إنشاء مدرسة عسكرية[٢].

(و) الصحة:

كانت الحالة الصحية في مدينة بيروت على وجه حسن بشكل عام، فالمحجر الصحي (الكرنتينا) يلعب دوره في حماية المدينة من القادمين إليها عبر البحر، وهناك المستشفى الفرنسي والمستشفى الأميركي إضافة إلى المستشفى العسكري، وغيرها من المستشفيات الخاصة، وقد لعبت دوراً بارزاً في أمور الصحة. وكذلك العناية المحدودة التي كانت تبذلها بلدية بيروت، والإدارة الصحية[٣]. أما في باقي أقضية ولاية بيروت، حيث الأرياف والقرى والمزارع، وحيث عشرات آلاف السكان، فكانت الحالة الصحية بعيدة عما وصلت إليه مدينة بيروت. وكانت أقضية صيدا وصور ومرجعيون، والألوية التي تتبع ولاية بيروت، مثل اللاذقية وطرابلس وعكا ونابلس، لا ينعم كل منها إلا بطبيبين أو ثلاثة أطباء، وأحياناً بطبيب واحد فقط وصيدلية واحدة في مركز القضاء.

وبنهاية القرن التاسع عشر أصبحت بيروت بلا منازع، أكثر أجزاء السلطنة العثمانية تقدماً، وظل المجتمع البيروتي في طليعة مجتمعات الولايات العثمانية[٤]. ففي سنة ١٨٩٢، كان أصحاب المهن الحرة يعملون في حقول مهنهم بإجازة من حكومة ولاية بيروت[٥]. فالمحامون وعناوينهم هم: سليم قشوع، وفائق غرغور (خان أنطون بك)، وبشارة القرداحي، وحنا نقولا الخوري، وأنطوان عيد صباغ (طريق الشام)، ونقولا النقاش (حي القيراط)، وأسعد ابراهيم الخوري، وبولس بركات، وسليم باز، ومحمد توفيق (الحميدية).

(١) يوسف الحكيم: سورية والعهد العثماني، ص ٥٢.
(٢) المرجع نفسه، ص ٥٤.
(٣) يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ٢٨.
(٤) المرجع نفسه، ص ٣٤.
(٥) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ١، ص ٤٧٣ - ٤٧٤.

أما الأطباء فهم: وليم فانديك، ابراهيم صافي، سليم الجلخ، عبد الرحمن الأنسي، أديب قدورة، اسكندر رزق الله، بشارة زلزل، ملحم فارس، حنينة، طبجي، سمعان خوري، ابراهيم تابت، ابراهيم مطر، داود برباري، فضل الله عسيلي، جان باسيليو، دندن، بوست، روبه، هاش، وبران، بوايه، نيكر، شاكر الخوري، نجيب بربور، شوفلر، بلس، أدامس.

أما أسماء الصيادلة وعناوينهم فهي: الياس عرب (قرب دار الحكومة)، داود نحول، مسعود حيمري، وشكري عرمان (الحميدية)، مراد البارودي ومسيو هاني (باب ادريس)، الياس نعوم ثابت وسليمان جبران كحيل (طريق الشام)، سليم فاخوري وفيليب مطر وجرجي أنطون شكر الله ويوسف نصر (السور)، بطرس أنطون شكر الله وجوزف حبيب سابا واسبيريدون واروقا ويوسف عيد بدران (البرج)، طنوس عون (زقاق البلاط)، نعمة مدور (نهر بيروت)، وخليل يوسف شبطيني (طريق النهر).

(ز) الاقتصاد:

وجه والي بيروت عزمي بك جهوده لتطوير الحياة الزراعية في ولاية بيروت، فقرر مجلس عمومي الولاية الذي اجتمع في مدينة بيروت في كانون الأول سنة ١٩١٣، تنظيم الأمور الزراعية. وتقررت ميزانية الزراعة الخصوصية لولاية بيروت في سنة ١٩١٤، بعد أن تقرر تأسيس مكتب زراعي في كل لواء من ألوية بيروت، وقد ابتاعت الولاية الأراضي اللازمة [1] لهذه المكاتب. وفي تشرين الثاني سنة ١٩١٣، افتتح عزمي بك نموذجاً زراعياً وداراً للحليب في مدينة بيروت، وأصدر أمره بافتتاح مكتب الألبان في نيسان سنة ١٩١٤، لتطوير صناعة الألبان والأجبان، كما تقرر قبول عشرين تلميذاً في كل عام يتعلمون صناعة الألبان والأجبان، على نفقة الحكومة [2]، فكان ذلك نواة المدارس المهنية الزراعية. وكان يوجد في بيروت دار للحرير [3] يصرف عليها من الميزانية العمومية منذ سنة ١٩٠٨. وتتولى مديرية الزراعة في بيروت، إدارة المؤسسات الزراعية، ويرجع إليها النظر على كافة مأموري الزراعة.

وكان يوجد في الجهة الجنوبية من مدينة بيروت، وعلى مساواة الرمل، حرج من

(١) التميمي وبهجت: ولاية بيروت جـ ١، ص ٦٢.
(٢) المصدر نفسه، جـ ١، ص ٦٣.
(٣) المصدر نفسه، جـ ١، ص ٦٣.

شجر الصنوبر مساحته ألفي دونم تقريباً. وعلو الشجرة يتراوح فيه بين خمسة وستة أمتار، ومحيط الشجرة ما بين ٤٠ و٥٠ سنتيمتراً[1].

وانتشرت معامل الطحين في أنحاء متفرقة من ولاية بيروت، منها مائة معمل تشتغل على الماء وعشر مطاحن على الهواء. كما كان هناك معاصر لاستخراج زيت الزيتون، إضافة إلى صنع الصابون في مدينتي طرابلس ونابلس، ولكنها كانت صناعات بدائية[2].

وكانت ولاية بيروت تصدر إلى أوروبا كل عام ٤,٨٥٣,٥٠٠ بيضة[3]، عدا عن البيض الذي تستهلكه، فازدهرت تربية الدجاج للاستفادة منه.

أما مدينة بيروت نفسها، فاشتهرت مع عكا وطرابلس بمنسوجاتها القصبية، وكذلك اشتهرت مع طرابلس وصيدا بالمنسوجات الحريرية والقطنية التي تسمى (الاجه) - ومن أجل ذلك ازدهرت زراعة التوت مع اتساع تربية دود القز لإنتاج الحرير، فبلغ عدد أشجار التوت في ولاية بيروت بما فيها مدن بيروت وصيدا وطرابلس، ٥٥٠ ألف شجرة[4].

كما نالت مصنوعات مدينة بيروت الفضية والذهبية التي تستعمل للزينة، رغبة وإقبالاً في أوروبا[5]. واشتهرت بيروت وصيدا والناصرة بصنع أوانٍ خشبية مطعمة بالصدف[6]، وهي من أجمل المصنوعات التي تنال رغبة أرباب الذوق السليم.

ونشطت التجارة عن طريق مرفأ بيروت، وخاصة بعد تأسيس الشركة العثمانية لمرفأ بيروت في سنة ١٨٨٨، والتي ساهمت في تطويره وتوسيعه.

٣ - المشاريع الإنمائية والعمرانية في مدينة بيروت:

استفادت مدينة بيروت من كونها مركز ولاية بيروت، فقامت المشاريع لتحسينها

(١) التميمي وبهجت: ولاية بيروت، جـ ١، ص ٤٧.
(٢) المصدر نفسه، جـ ١، ص ٥٤.
(٣) المصدر نفسه، جـ ١، ص ٥٥.
(٤) موريس شهاب: دور لبنان في تاريخ الحرير، ص ٣٦.
(٥) التميمي وبهجت: ولاية بيروت، ص ٥٥.
(٦) المصدر نفسه، ص ٥٦.

وتطويرها، بدءاً بالمرفأ والشوارع والأسواق وتسيير الترامواي الكهربائي . . . ومروراً بالسكة الحديد لربطها بدمشق . . . وأهم هذه المشاريع :

(أ) إنشاء الشركة العثمانية لمرفأ بيروت (١٨٨٨) :

اضطر ولاة الأمر للعمل على تحسين مرفأ بيروت ليصبح قادراً على إرساء السفن التجارية فيه . ومنذ سنة ١٨٦٣ ، والمحاولات جارية للحصول على امتياز المرفأ من قبل الشركات الخاصة وبلدية بيروت، حتى نال الإمتياز يوسف أفندي مطران بإرادة سلطانية مؤرخة بـ ١٩ حزيران ١٨٨٧ (١) ، ومدة الامتياز ستين سنة تنتهي سنة ١٩٤٧ . واحتفظت الحكومة بحق شراء المشروع بعد ثلاثين سنة ، وقد اشترطت عليه المباشرة بالعمل بعد سنتين .

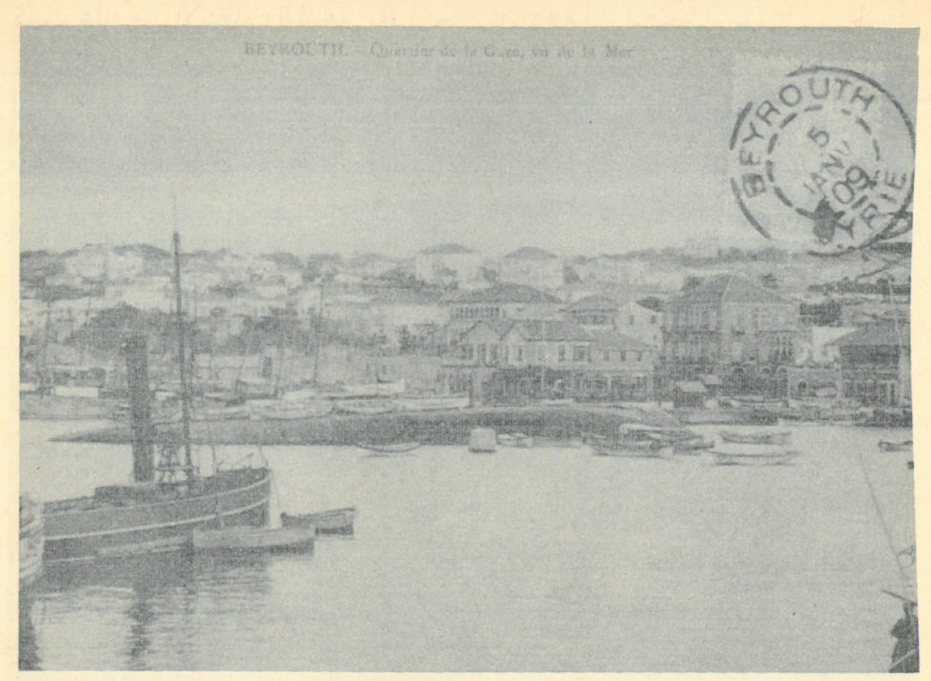
وعلى أساس هذا الإمتياز، نشأت الشركة العثمانية للمرفأ والأرصفة والمخازن . وقد بدأ العمل في المرفأ في كانون الثاني ١٨٩٠ ، وبعد أربع سنوات كان قد أنشىء سدَّان ، الأول يرتفع خمسة أمتار عن سطح البحر ويمتد مسافة ٨٠٠ متر ، والثاني صغير ويرتفع مترين ويمتد مسافة ٢٠٠ متر ، وبذلك أصبحت مساحة سطح المرفأ حوالى ٢٠ هكتاراً في تشرين الأول ١٨٩٤ . وبانتهاء العمل أصبح بإمكان المرفأ استيعاب ١٢ باخرة كبيرة في آن واحد ، دون أن تستطيع تفريغ حمولتها على الرصيف رأساً .

كما أقيمت موانىء جديدة في حوض المرفأ، مثل ميناء الخشب وميناء القمح . وكذلك مبانٍ على أرصفة الميناء، ومستودعات على الأرض التي ظهرت قرب البحر نتيجة أعمال الردم . فقد هدم خان أنطون بك، وأصبح مكانه يعرف بشارع رصيف الميناء .

سنة ١٩٢٥ تحولت شركة المرفأ، إلى شركة فرنسية برأسمال قدره خمسة ملايين فرنك، موزعة على عشرة آلاف سهم .

وبعد مدة وجيزة ظهر نقص في تجارة بيروت، ويرجع ذلك إلى الخلافات التي وقعت بين شركة المرفأ ووزارة البحرية العثمانية على مسألة دخول البوارج الحربية العثمانية إلى مرفأ بيروت، وكذلك الخلافات بين شركة المرفأ وإدارة الجمارك بشأن رسوم الحمالين والمخازن، ومنها زيادة رسوم الدخول إلى المرفأ. وتحكّم البحّارة وموظفو الجمارك، بالمسافرين القادمين إلى مرفأ بيروت ، وخاصة سكان ولايتي بيروت ، ودمشق ومتصرفية

(١) محمد كرد علي : خطط الشام، جـ ٥، ص ١٥٥ .



الحوض الكبير في مرفأ بيروت سنة ١٩٠٥

جبل لبنان العائدين من أميركا والبلدان الأوروبية ، فاضطرت الدولة العثمانية للسماح بنزول البواخر الأجنبية في مرفأي جونية والنبي يونس (١) . وأدَّت هذه الأوضاع إلى تحويل قسم عظيم من تجارة مرفأ بيروت إلى بقية المرافىء الشامية القريبة (٢) .

ومع ذلك بقيت بيروت «أم المدن الساحلية في سورية، اجتماعياً وثقافياً واقتصادياً»(٣) .

(ب) افتتاح سكة حديد بيروت ـ دمشق (٣ آب ١٨٩٥) :

دعت الضرورة إلى إنشاء السكة الحديدية بين بيروت ودمشق، لأن المركبات (الكارات) والحوافل (الدلليجانس) لم تعد كافية لتأمين نقل الركاب والبضائع، رغم ما

(١) يوسف الحكيم : بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ٣٠ .
(٢) محمد كرد علي : خطط الشام، جـ ٥، ص ١٥٦ .
(٣) يوسف الحكيم : بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ١٨٩ .

كانت عليه من الانتظام والسرعة. ففي حزيران ١٨٩١، استحصل حسن بيهم أمراً سلطانياً بامتياز خط حديدي بين بيروت ودمشق[١]، على أن تحتفظ الحكومة العثمانية لنفسها بحق شراء هذا المشروع بعد ثلاثين سنة، وعلى صاحب الامتياز أن يؤسِّس شركة مساهمة عثمانية خلال ستة أشهر. وسميت هذه الشركة باسم «الشركة المساهمة العثمانية لخط بيروت ـ دمشق الاقتصادي». ثم دمجت هذه الشركة مع شركة ترامواي دمشق وخط دمشق ـ حوران، التي أسسها يوسف أفندي مطران، وصدر مرسوم سلطاني بالدمج في ٢٢ تشرين الثاني ١٨٩١ ، وسميت الشركة الجديدة باسم «شركة الخطوط الحديدية العثمانية الاقتصادية لبيروت ـ دمشق ـ حوران في سورية»[٢]. وقد جرى افتتاح خط بيروت ـ دمشق في ٣ آب ١٨٩٥ ، بعد أن عمد المصور الفرنسي أدريان بونفيس إلى تصوير جميع مراحل إنشاء هذا الخط.

ونتج عن ذلك أن نقصت أجرة نقل البضائع إلى الثلث تقريباً بواسطة السكة الحديدية[٣]. وقد بلغ طول خط بيروت ـ دمشق ١٤٧ كلم، ويحتوي على أربعة أنفاق لا يتجاوز أطولها ٣٥٠ متراً، وهو يقطع جبال لبنان بواسطة الخطوط المسنَّنة على مسافة ٣٤ كلم.

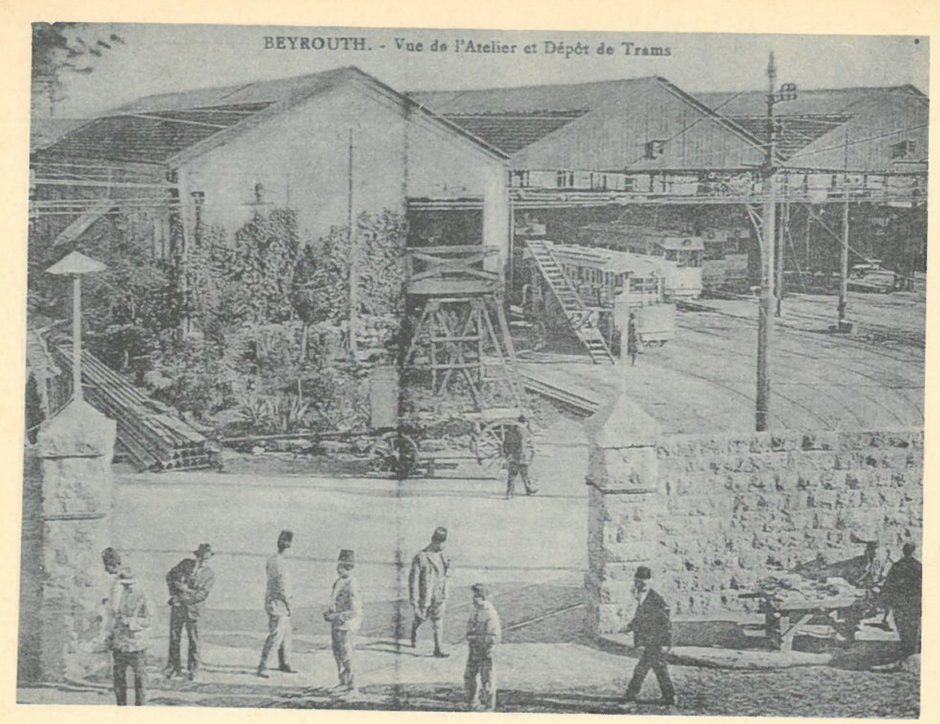
وكان قطار الركاب يقطع المسافة بين بيروت ودمشق في تسع ساعات، بينما يقطعها قطار الشحن في إحدى عشر ساعة[٤].

كما تم إنشاء خط حديدي آخر هو خط بيروت ـ المعاملتين[٥]، ويسير على شاطىء البحر. والقصد منه وصل مدينة طرابلس ببيروت، لكن لم يتم منه سوى ١٩ كلم عند قرية المعاملتين، بعد أن يمر ببلدة جونية. وهذا الخط هو ملك لشركة الترامواي.

(جـ) تسيير الترامواي الكهربائي (١٨٩٨):

ومما ساعد في تطوير الحركة داخل بيروت مد خطوط الترامواي الكهربائي سنة ١٨٩٨، عن طريق إحدى الشركات البلجيكية. فكان الترامواي يمر من نهر بيروت إلى

(١) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٥، ص ١٦١.
(٢) المرجع نفسه، جـ ٥، ص ١٦٢.
(٣) عبد العزيز عوض: الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ص ٢٧٤.
(٤) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٥، ص ١٦٣.
عبد العزيز عوض: الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ص ٢٧٧.
(٥) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٥، ص ١٦٤.



مستودع الترامواي

المنارة في رأس بيروت، ومن فرن الشباك والبسطة إلى جهة البحر، مما ساعد كثيراً في تنقل الأهالي داخل المدينة. بالإضافة إلى المركبات العامة والخاصة، وهي عبارة عن عربات تجرها الخيل والبغال على طرق معبَّدة، داخل المدينة وخارجها. وقد أنشىء مستودع كبير تدخل إليه حافلات الترام بعد انتهاء العمل وذلك على بعد مئة متر من الجميزة[١].

(د) تدشين المحطة البحرية (١٩٠٠):

وسنة ١٨٩٧، أنشأت شركة المرفأ محطة بحرية عند المرفأ ودشنتها سنة ١٩٠٠، وذلك لتسهيل انتقال المسافرين والحجاج المسلمين، القادمين من مرفأ بيروت، إلى دمشق بواسطة سكة حديد بيروت ـ دمشق، ومنها إلى الأماكن التي يقصدونها[٢]. وكذلك كانت بمثابة محطة للنقل في سكة بيروت ـ المعاملتين.

(١) F. Debbas: Beyrouth « Notre Mémoire», p 190.
(٢) المرجع نفسه، ص ٣٦.



المحطة البحرية



سبيل الحميدية في ساحة السور سنة ١٩٠٠

(هـ) بناء سبيل الحميدية في ساحة السور (١٩٠٠) :

وفي عهد رشيد بك والي بيروت، بنت بلدية بيروت سبيل ماء في ساحة السور بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لتتويج عبد الحميد الثاني، فسمي سبيل الحميدية . ومهندس السبيل هو يوسف أفتيموس، ونفذ بناءه المعلم اليان أبو السلو، ثم نقش عليه المعلم يوسف العنيد، كتابة مذهبة باللغتين العربية والتركية تفيد أن السبيل أنشىء سنة ١٣١٨ / ١٩٠٠ [١] . وعلوه ثمانية أمتار مغطى بالرخام الأبيض [٢] . وقد هدمت بلدية بيروت هذا السبيل في شباط ١٩٥٧ وأقيم مكانه تمثال رياض الصلح .

(و) افتتاح مخازن أوروزدي بك (أول أيلول ١٩٠٠) :

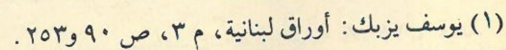
افتتحت مخازن أوروزدي بك الكبرى فرعاً لها في بيروت، في المكان الذي شغله مرفأ بيروت القديم قبل ردمه، وكان الافتتاح يوم أول أيلول سنة ١٩٠٠ بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لاعتلاء السلطان عبد الحميد الثاني العرش. ويعتبر أجمل فروع أوروزدي بك في الشرق، كما يعتبر أول المخازن المزودة بمصاعد. وقد أتى حريق مفتعل على هذه المخازن سنة ١٩٣٨، وقامت مكانها بعد فترة طويلة بناية فتال [٣] .

(ز) بناء البنك العثماني بهندسة معمارية أوروبية (١٩٠٦) :

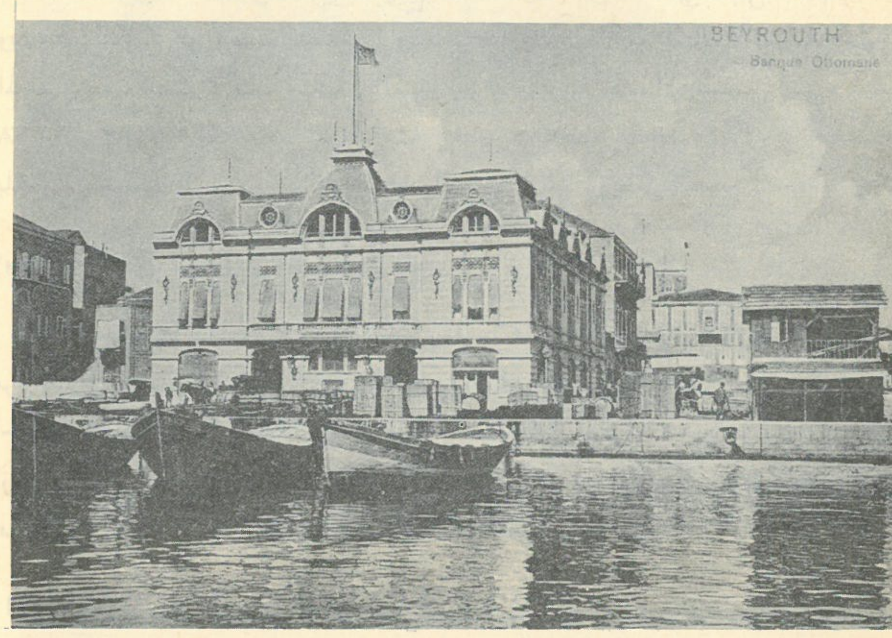
يعتبر البنك العثماني أول بنك رسمي عرفته بيروت، وقد نشأ في منطقة خان أنطون بك عند مرفأ بيروت، ثم تحول سنة ١٨٩٢ إلى ساحة البرج، ليعود من جديد سنة ١٩٠٦ إلى مواجهة البحر عند المرفأ حيث شغل بناية رائعة شيدت على الهندسة المعمارية الأوروبية. وقد أصبح هذا المبنى مركزاً لبنك سوريا بعد الحرب العالمية الأولى كما أصبح يدعى فيما بعد بنك سوريا ولبنان [٤] .

(حـ) مدرسة وحديقة الصنائع (١٩٠٧) :

أنشأ والي بيروت خليل باشا (١٩٠٣ - ١٩٠٨) بناءين متشابهين في الهندسة



(١) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ٣، ص ٩٠ و٢٥٣ .
(٢) F. Debbas: Beyrouth, «Notre Mémoire», p 92.
(٣) المرجع نفسه ، ص ٣٤ .
(٤) المرجع نفسه ، ص ٣١ .



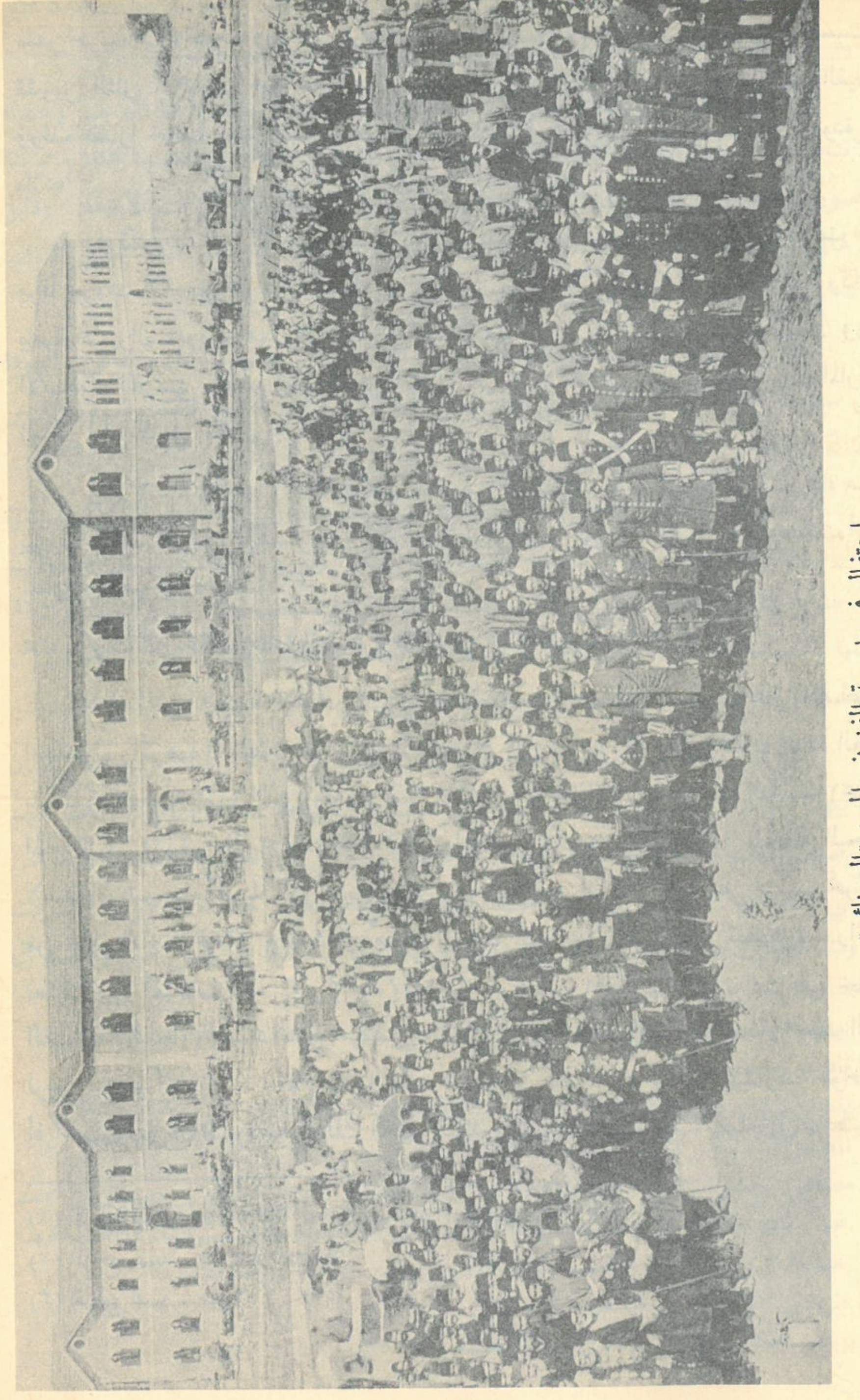
البنك العثماني

المعمارية ، أحدهما مدرسة للفنون والمهن «الصنائع» والثاني مستشفى . وقد دشنهما في ١٩ آب ١٩٠٧، بحضور القناصل الأجانب ووجهاء مدينة بيروت . وفي هذه السنة أنشأ الوالي حديقة عامة تتوسطها بركة ماء. وأصبحت المدرسة والحديقة والمنطقة تعرف بـ «الصنائع»(١).

٤ ـ زيارة القيصر الألماني غليوم الثاني لبيروت (٥ تشرين الثاني ١٨٩٨) :

اتبع غليوم الثاني قيصر ألمانيا، سياسة التقرب من السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، فزار اسطنبول سنة ١٨٨٩ . ثم زار ولايتي بيروت ودمشق سنة ١٨٩٨، فبعد

F. Debbas: Beyrouth, «Notre Mémoire» p 139. (١)



احتفال في مدرسة الفنون والمهن «الصنائع»

زيارته القدس وصل القيصر إلى مرفأ بيروت على يخته «الهوهنزولرن»، وكانت ترافقه ثلاث سفن حربية هي «الهيرت» و«اللورلي» و«الميلترنختسون». وكان في استقباله، صباح السبت ٥ تشرين الثاني ١٨٩٨، جمع غفير على رصيف المرفأ. وبعد إقامة يومين استقل القيصر ووفده قطاراً خاصاً نحو دمشق وبعلبك، ثم عادوا إلى بيروت ومنها في طريق العودة إلى بلاده[1].

ولم تكن السفن الألمانية وحدها التي وصلت مرفأ بيروت، فبعد عام وصلت تجاه مرفأ بيروت ١٢ مدرعة من الأسطول الفرنسي يوم ٣١ تشرين الأول ١٨٩٩ وكانت بإمرة الأميرال «فورنييه»، وهرع الناس لمشاهدتها من الروابي التي تحيط بالخليج. ورسا الأسطول الفرنسي معظم أيام تشرين الثاني، كما زار الأميرال الفرنسي البطريرك الماروني الياس الحويك في بكركي.

وفي ٧ ـ ١٠ أيار ١٩٠٦ قامت قطع من الأسطول الأميركي بزيارات تجاه مرفأ بيروت، مثل المدرعة «غالفستون» والمدرعة «شاتانوغا». وفي ٢٧ أيار ١٩٠٩ وصلت أيضاً المدرعة الأميركية «مونتانا»[2].

٥ ـ بيروت أثر إعلان إعادة الدستور العثماني في ٨ تموز ١٩٠٨:

قاد زعماء جمعية الاتحاد والترقي، الانقلاب العثماني واستولوا على العاصمة اسطنبول وأكرهوا السلطان عبد الحميد الثاني في ٢٤ تموز ١٩٠٨ على إعلان إعادة العمل بدستور مدحت باشا الذي وضع سنة ١٨٧٦، وإجراء الانتخابات النيابية (مجلس المبعوثان). فانقضى إلى حد ما عهد الحكم المطلق، وهرع البيروتيون إلى المحطة البحرية لاستقبال السجناء السياسيين الذين أطلق سراحهم بعد أن كانوا في المنفى بسبب تحركهم من أجل الأصلاح[3]. وقامت في مدينة بيروت أثر إعلان الدستور تظاهرات رائعة، تعالت فيها الهتافات للحرية والإخاء والمساواة، وأقيمت الحفلات التي توالت فيها خطب الفصحاء البلغاء، وأشاد الشعراء بفضل الدستور. ومما يجدر ذكره أن أنصار العهد البائد لزموا بيوتهم أثناء تلك الحفلات والتظاهرات، ومن ظهر منهم أسرع بمشاركة مواطنيه أفراحهم، على أن الشرفاء من ذلك العهد البائد والذين لم تصدر عنهم إساءة إلى مواطنيهم،

(١) F. Debbas: Beyrouth, «Notre Mémoire», p 212 - 13.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢١٤ ـ ٢١٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

ظلوا متمتعين بحرمتهم وكرامتهم في بيروت كما في غيرها من المدن، باستثناء عدد قليل منهم كان عرضة لانتقام بعض الأشرار الذين لا يخلو من أمثالهم مكان[1].

وكان أبرز عمل دستوري بعد إعلان الدستور سنة ١٩٠٨، هو إجراء الانتخابات النيابية التي تمت في هدوء، وفاز عن ولاية بيروت[2] وأقضيتها الثلاثة صيدا وصور ومرجعيون رضى بك الصلح وسليمان أفندي البستاني وكامل بك الأسعد. وقابل الأهالي في ولاية بيروت نتائج الإنتخابات بالسرور والهتاف[3]. فقد ضم مجلس النواب ١٥٠ نائباً تركياً و٦٠ نائباً عربياً.

ولكن السلطان عبد الحميد الثاني حاول القضاء على جمعية الاتحاد والترقي والعودة إلى سياسة الاستبداد، مما أدى إلى خلعه عن العرش، وتولية أخيه محمد رشاد الخامس مكانه في أواخر نيسان ١٩٠٩.

وبإعلان الدستور وإجراء الانتخابات النيابية، عاد إلى المجتمع البيروتي أبناؤه العلماء والأدباء والشعراء والصحافيون من مصر وأوروبا مشاركين إخوانهم في حرية إبداء الرأي، ومن مقتضى هذه الحرية كثرة الصحف الحرة في بيروت[4] ومنها: لسان الحال، الحقيقة، الاتحاد، الأحوال، النصير، البرق، الحارس، الإصلاح، الإقبال... فكانت جميعها أصدق تعبير عن شعور البيروتيين بالعهد الجديد.

وبقيت التكتلات العائلية والشخصية تأميناً للنفوذ في دوائر ومجالس بيروت، فكان آل بيهم وسلام وداعوق وقاضي يؤلفون صفاً قوياً لضمان الوصول إلى أهدافهم ويتزعمهم سليم سلام (أبو علي)، ويقابلهم فريق آخر من آل الصلح ورمضان ونحاس وأنسي ومجذوب... ممن يعملون تحت رئاسة المفتي مصطفى نجا[5]. وهكذا عرفت بيروت تجمعين سياسيين[6]، وانتقل الصراع بينهما إلى مدينة طرابلس حيث انضم آل

(١) يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ٣٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٦.

(٥) مصطفى نجا (١٣٦٩ ـ ١٣٥٠/١٨٥٣ ـ ١٩٣٢): مصطفى بن محيي الدين بن مصطفى بن محمد عبد القادر نجا مفتي بيروت منذ سنة ١٣٢٧ هـ وحتى وفاته. ولد وتوفي ببيروت، وله كتب فيها نصيحة الإيمان في التربية والتعليم وكشف الأسرار وتفسير جزء عمَّ وإرشاد المريد. الزركلي: الاعلام، جـ٧، ص ٢٤٦.

(٦) يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ٣٥.

المقدم إلى أنسبائهم آل الصلح، في حين تمكن سليم سلام من كسب عبد الحميد كرامه إلى جانبه.

وكان طبيعياً أن تتألف في العهد الدستوري الأحزاب السياسية، فكان أولها حزب الاتحاد والترقي الذي سيطر على حكم الدولة العثمانية، مما أدى إلى تأسيس حزب سياسي معارض سنة ١٩١٢ سمي حزب الائتلاف، وكان رضى بك الصلح نائب بيروت من أركان هذا الحزب الذي كانت تناصره أيضاً جريدة الإصلاح البيروتية لصاحبها الشيخ أحمد طبارة(١). وقد جمع حزب الائتلاف معظم النواب العرب.

وكان الحزبان يتناظران في الولايات العربية ولا سيما في بيروت ودمشق. وقد أقام حزب الائتلاف حفلة للدعاية في بيروت سنة ١٩١٢ وكان في الحضور شاب هو رياض بك الصلح(٢)، الذي يؤيد حزب الائتلاف كما يؤيده معظم المسلمين العرب، الذين يطالبون بحقوقهم ورفع شأنهم في مختلف المصالح الحكومية، وذلك تجاه حركة التتريك وبروز فكرة القومية التركية مما زاد الشقة بين المسلمين العرب والأتراك المسلمين، فنشطت حركة قومية عربية بين مسلمي سوريا اتخذت لها مراكز في بيروت ودمشق وحلب. وعلى هذا الأساس، أصبح هناك قوميتان تتصارعان على أرض واحدة: القومية العربية صاحبة الأرض العربية، والقومية التركية التي نظرت إلى العرب نظرة المستعمر لا نظرة الأخ في الدين(٣). لذلك لم يتأثر البيروتيون لهزيمة تركيا أمام إيطاليا التي احتلت ليبيا سنة ١٩١١.

٦ ـ السفن الحربية الإيطالية تقصف بيروت (٢٤ شباط ١٩١٢):

في أيلول ١٩١١ قامت إيطاليا بغزو ليبيا، ولم تستطع تركيا تقديم المساعدة بسبب الضعف الذي أصابها، فاتبعت سياسة تنظيم المقاومة الأهلية في ليبيا بمساعدة عدد من الضباط الأتراك، مما أزعج إيطاليا التي ردت بتوجيه سفنها الحربية لضرب المدن الساحلية العثمانية ومن جملتها مدينة بيروت(٤).

ففي ٢٤ شباط ١٩١٢، ظهرت سفينتان إيطاليتان هما المدرعة «جوسيب غاريبالدي» والمدرعة «فولترنا»، وأغلقتا باب مرفأ بيروت. ثم أرسل الأميرال الإيطالي

(١) يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ٣٧.
(٢) المصدر نفسه، ص ٣٨.
(٣) سليمان موسى: الحركة العربية، ص ٣٠.
(٤) المرجع نفسه، ص ٢٩.

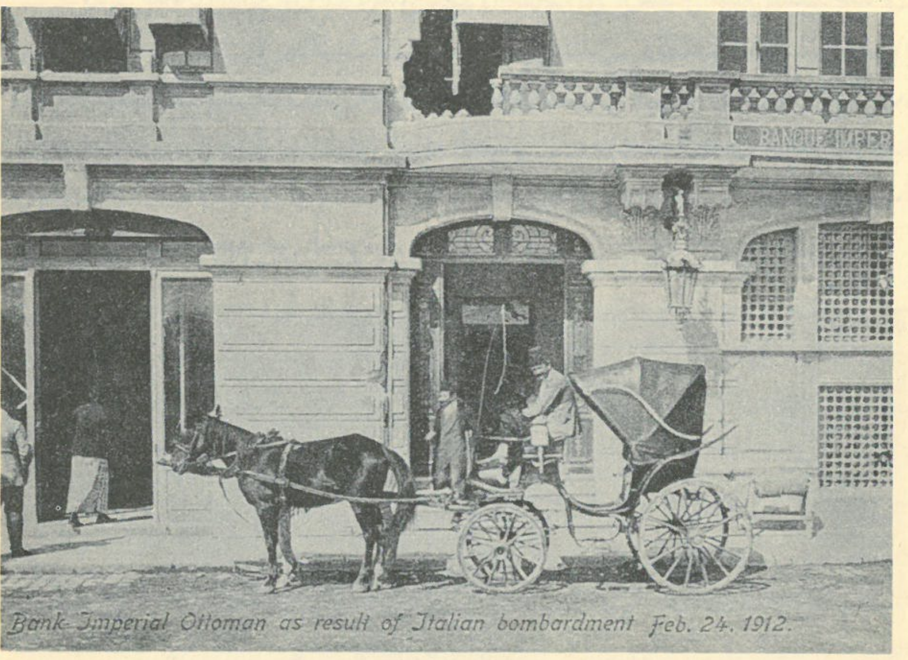
إنذاراً إلى عزمي بك والي بيروت، يطالبه باستسلام المدمرة التركية «أنغورا» وسفينة خفر السواحل «عون الله».

ونزل سكان مدينة بيروت بالمسدسات والخناجر إلى أرصفة الميناء للمساعدة في صد العدوان. وأطلق الإيطاليون النار نحو جموع الناس، وقصفوا المدينة والمرفأ، وشوهدت سفينة «عون الله» وهي تحترق، كما أنزلوا أضراراً جسيمة في الأبنية والمصارف المواجهة للبحر. فتضررت جدران البنك العثماني(١) وبنك سالونيك وبنك شاكال ومستودعات الجمارك ومؤسسات «أوروزدي بك» وأوتيل «غاسمان»، وكذلك أصيب حي المهن الحرفية البعيد عن البحر.



سفينة «عون الله» تحترق بعد القصف الايطالي

(١) يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ٣٩.



آثار القصف الإيطالي على البنك العثماني

وكانت ردة الفعل، أن اقتحم البعض مستودع الذخيرة في الثكنة، واستولوا على ألف بندقية، ثم انتشروا في مدينة بيروت يكسرون الواجهات ويتعرضون للأشخاص الذين يضعون القبعات على رؤوسهم سواء من المسيحيين أو الأوروبيين، فلجأ الكثير منهم إلى مخيم الجامعة الأميركية، حيث رفع رئيس الجامعة العلم الأميركي إشارة إلى الحياد. وسرعان ما أعاد الوالي الأوضاع في بيروت إلى ما كانت عليه من الهدوء والاستقرار(١).

وقد انتهت الحرب بعقد تركيا الصلح مع إيطاليا في ١٧ تشرين الأول ١٩١٢، وسحبت ضباطها من ليبيا. فاستاء البيروتيون والعرب من عجز تركيا، واعتبروا اتفاقها مع إيطاليا خيانة لهم.

(١) F. Debbas: Beyrouth «Notre Mémoire», p 218 — 219.

٧ ـ جمعية الإصلاح العام البيروتية (كانون الأول ١٩١٢ ـ نيسان ١٩١٣):

أدى فشل الاتحاديين في حربهم مع إيطاليا، إلى نفور الرأي العام منهم فاستقالت وزارتهم وتألفت وزارة حزب الائتلاف المعتدل برئاسة مختار باشا، ثم برئاسة كامل باشا (٢١ تموز ١٩١٢ ـ ٢٣ كانون الثاني ١٩١٣)(١).

وكانت السياسة الجديدة تقوم على الانفتاح والرغبة في تطبيق الإصلاحات على مبادىء اللامركزية. وعلى الأثر تألفت جمعيات إصلاحية في بيروت وحلب ودمشق والبصرة والقدس.

هذا وقد اختصت بيروت بعد سياسة الانفتاح أثناء حكم حزب الائتلاف ووزارة كامل باشا، «بجمعية الإصلاح العام في ولاية بيروت»(٢)، وكان عدد أعضائها ٨٦ عضواً، منهم ٤٢ مسلماً و٤٢ مسيحياً (اختصت طائفة الروم الأرثوذكس بأكثرية ١٦ عضواً) واثنين من اليهود. وقد عقدت الجمعية أول اجتماع لها في ١٢ كانون الأول سنة ١٩١٢ برئاسة الشيخ أحمد عباس الأزهري، وفي الاجتماع الثاني في ١٤ كانون الثاني سنة ١٩١٣ انتخبت الجمعية لجنة تنفيذية مؤلفة من ٢٥ عضواً هم(٣): أحمد مختار بيهم، الدكتور أيوب ثابت، سليم سلام، خليل زينية، جان تويني، كامل الصلح، بترو طراد، محمد ابراهيم الطيارة، ابراهيم حكيم، أحمد حسن طبارة، محمد الفاخوري، جان نقاش، رزق الله أرقش، سليم البواب، حسن الناطور، جميل الحسامي، جرجي رزق الله، ألبير بسول، حبيب فرعون، عبد الحميد الغندور، ألبير يوسف سرسق، عبد الباسط فتح الله، يوسف الهاني، فؤاد حنتش، جان بسترس. ثم أصدروا نشرة سموها «اليقظة» Reveil. وأسسوا لهم نادياً سموه «نادي الإصلاح» في باب ادريس.

ثم عقدت الجمعية الإصلاحية البيروتية جلستها العامة الثالثة، بإذن الحكومة، في

(١) سليمان موسى: الحركة العربية، ص ٣٠.
(٢) يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ٣٩.
زين زين: نشوء القومية العربية، ص ٩٨.
(٣) المقطم، عدد ٧٢٣٨، تاريخ ١٨ كانون الثاني ١٩١٣، ص ١.
زين زين: نشوء القومية العربية، ص ٩٨ و٢١٠.

دار المجلس البلدي ، يوم الجمعة ٣١ كانون الثاني ١٩١٣ ، ووضعت برنامجاً للإصلاح يتضمن ١٥ مادة (١) ، وأعلنته في منتصف شباط ١٩١٣ ، فقوبل بمظاهر الترحيب ليس في بيروت بل في ولايات الشام والعراق (٢) .

وفي التوطئة التي وضعت لبرنامج الجمعية، جاء أن «الحكومة العثمانية حكومة دستورية نيابية»(٣).

وجاء في المادة الأولى، أن المسائل الخارجية والعسكرية والجمارك والبريد والتلغراف وسن القوانين ووضع المكوس، منوط تقريره وإجراؤه بالحكومة المركزية. أما الشؤون الداخلية الخاصة بولاية بيروت، فمنوط تقريرها بمجلس الولاية العمومي(٤).

وحددت المادة الثانية، صفة الوالي وحقوقه ووظائفه. كما حددت المواد ٣ و٤ و٥ حقوق ووظائف وقرارات المجلس العمومي الذي يؤلَّف من ثلاثين عضواً، نصفهم من المسلمين، والنصف الآخر من غير المسلمين، ولمدة أربع سنوات(٥).

أما المادة السادسة، فهي عن كيفية تعيين الوالي والموظفين. والمادة السابعة، عن تعيين الحكومة المركزية مستشارين من الأجانب لبعض الدوائر في مركز الولاية، أي مدينة بيروت. وتحدد المواد ٨ و٩ و١٠ و١١ و١٢ و١٣، واردات الولاية وميزانيتها وأملاكها والأوقاف والبلديات وتأليف مجلس المستشارين(٦).

وأشارت المادة الرابعة عشرة، إلى أن اللغة العربية تعتبر اللغة الرسمية في جميع المعاملات داخل ولاية بيروت. وتعتبر أيضاً لغة رسمية كاللغة التركية في مجلسي النواب والأعيان(٧). أما المادة الخامسة عشرة والأخيرة، فتشير إلى جعل الخدمة العسكرية لمدة سنتين فقط، وتُقضى أيام السلم في ولاية بيروت.

لكن حكم حزب الائتلاف لم يدم سوى ستة أشهر، ففي ٢٣ كانون الثاني سنة

(١) ثورة العرب، ص ٩١ ـ ٩٩.
زين زين: نشوء القومية العربية، ص ٩٨.
(٢) جورج أنطونيوس: يقظة العرب، ص ١٩٠.
(٣) ثورة العرب، ص ٩١.
(٤) المصدر نفسه، ص ٩٢.
(٥) المصدر نفسه، ص ٩٣ ـ ٩٤.
(٦) المصدر نفسه، ص ٩٧ ـ ٩٨.
(٧) المصدر نفسه، ص ٩٨.

١٩١٣ هاجم الاتحاديون رئاسة الوزراء، فقتل وزير الحربية واضطر كامل باشا إلى الاستقالة. وعاد حزب الاتحاد والترقي للحكم. بعد أن تألفت وزارة محمود شوكت باشا (١) التي عمدت إلى خنق حركة اللامركزية، وكان في أول أعمالها أنها أغلقت الجمعيات الإصلاحية بالقوة في بيروت والمدن الأخرى (٢) .

وهكذا كانت ردة فعل السلطة التركية أنها أصدرت قراراً يقضي باعتبار «جمعية الإصلاح في بيروت» غير قانونية، فحضر رجال الشرطة في ٨ نيسان سنة ١٩١٣ إلى نادي الجمعية في باب ادريس، حينما كانت اللجنة التنفيذية مجتمعة فيه، وبلَّغوا أعضاءها قرار السلطة التركية بحل الجمعية(٣)، ومن ثم إقفال ناديها. وقد أحدث هذا الإجراء موجة من السخط فظهرت صحف بيروت في اليوم التالي ٩ نيسان وهي لا تحمل إلا قرار الإلغاء على الصفحات الأولى محاطا بإطار أسود، بينما تركت الصفحات الأخرى بيضاء باستثناء جريدة واحدة(٤).

وبعد ثلاثة أيام أقفلت المخازن التجارية في بيروت احتجاجاً على هذا القرار وحسب جريدة «المقطم» المصرية، كان المار في شوارع بيروت لا يرى إلا بعض الحوانيت الصغيرة فاتحة أبوابها، وأما المحلات التجارية الكبرى فكانت كلها مغلقة(٥). ولم تقتصر غضبة الاحتجاج البيروتية على الرد السلبي، إنما تخطته إلى مطالبة والي بيروت حازم بك، حسب عريضة وقعها ١٣٠٠ من أعيان بيروت، بالرجوع عن قرار اعتبار الجمعية غير قانونية. وعلى الأثر أرسل الصدر الأعظم سعيد باشا، رسالة يقول فيها إذا أراد أهالي بيروت أن يطالبوا بالإصلاح فليس لهم إلا أن يتصلوا بمجلس المبعوثان العثماني بواسطة نوابهم، فمجلس المبعوثان هو الهيئة الصالحة التي لها حق سن القوانين (٦) . وإلى جانب حل الجمعية انتهجت السلطة التركية سياسة العنف وتكميم الأفواه وكبت الحريات واعتقال الزعماء «وهي سياسة محبَّبة دائماً للسلطات التي لا تمثل الشعوب» (٧) . وأدَّت هذه السياسة إلى مزيد من الاستجابة

(١) سليمان موسى: الحركة العربية، ص ٣٠.
(٢) المرجع نفسه، ص ٣٦.
(٣) جورج أنطونيوس: يقظة العرب، ص ١٩٠.
(٤) زين زين: نشوء القومية العربية، ص ٩٩.
(٥) المقطم، عدد ٧٣١٢، تاريخ ١٦ نيسان ١٩١٣، ص ١٢.
(٦) لسان الحال، عدد ٧٢٧٥، السبت ٢٨ حزيران ١٩١٣، ص ٢.
(٧) جورج أنطونيوس: يقظة العرب، ص ١٩٠.

الوطنية ليس في بيروت فقط وإنما تخطتها إلى ولايات الشام ، لذلك اضطرت السلطة التركية إلى اللجوء إلى حل وسط، حينما أطلقت سراح الزعماء المعتقلين وأعلنت أن الإصلاحات بصورتها المطلوبة سوف تتم . وفي ١٥ أيار ، صدر القانون الجديد للولايات والذي منحت بموجبه مزيداً من السلطات التمثيلية . إلا أن ما تضمنه القانون كان أقل بكثير مما طالب به برنامج جمعية الإصلاح في بيروت ، حتى أن الناس رأوا في هذا القانون خطوة مقنعة نحو مزيد من مركزية السلطة التركية ، وتشديد قبضتها الخانقة على الحريات (١) .

٨ - وفد بيروت إلى مؤتمر باريس (١٨ - ٢٣ حزيران ١٩١٣):

وفي ١٢ أيار ١٩١٣، حضر إلى بيروت الصدر الأعظم السابق كامل باشا ، فاستقبلته بحفاوة، ونزل في فندق بسول في منطقة الزيتونة، وبحث مع وجهاء بيروت في أوضاع المدينة، خاصة وأنه كان متصرفاً عليها قبل أكثر من أربعين سنة، كما بحث في المؤتمر العربي المنوي عقده في باريس، ثم سافر في ٢٢ أيار إلى إزمير(٢).

وكان اضطهاد «جمعية الإصلاح العام في بيروت» وسجن فريق من أعضائها، من الدوافع التي أدّت إلى عقد مؤتمر باريس (٣) في ١٨ حزيران سنة ١٩١٣ ، حيث تقرر المطالبة بإعطاء العرب في الدولة العثمانية حقوقهم السياسية . وقد أجرى بعض المتحمسين اتصالات مع فرنسا وانكلترة ، وأصبحت دار القنصلية العامة الفرنسية في بيروت قبلة أنظارهم ، وقد سهّل انتشار الثقافة الفرنسية في بيروت وملحقاتها بفضل المؤسسات الفرنسية العديدة سبل الالتجاء إلى فرنسا قبل سواها من الدول الكبرى .

وقد أرسل زعماء الطوائف المسيحية لولاية بيروت برقية في ٢٦ أيار ١٩١٣ تفوض وفد بيروت المؤلف من: سليم علي سلام، الدكتور أيوب ثابت، أحمد مختار بيهم، ألبير جوزف سرسق، الشيخ أحمد حسن طبارة، وخليل زينية، بالذهاب إلى أوروبا للتعبير عن مطالب جميع السكان دون تمييز لدين(٤). وأثناء انعقاد المؤتمر أرسل

(١) جورج أنطونيوس : يقظة العرب ، ص ١٩٠ - ١٩١ .
(٢) مذكرات سليم علي سلام، ص ١٦٦ - ١٦٨ .
(٣) ثورة العرب، ص ١٠٤ .
(٤) مذكرات سليم علي سلام، ص ٢٧٥ - ٢٧٧ .

بعض وجهاء مدينة بيروت برقية تأييد إلى قادة المؤتمر العربي في باريس، وقد وقعها علي ومحمد القباني، وحسن ويوسف الحريري، ومصباح وكامل البربير، وفضول ربيز، وجورج كرم، وسعيد غالب(١).

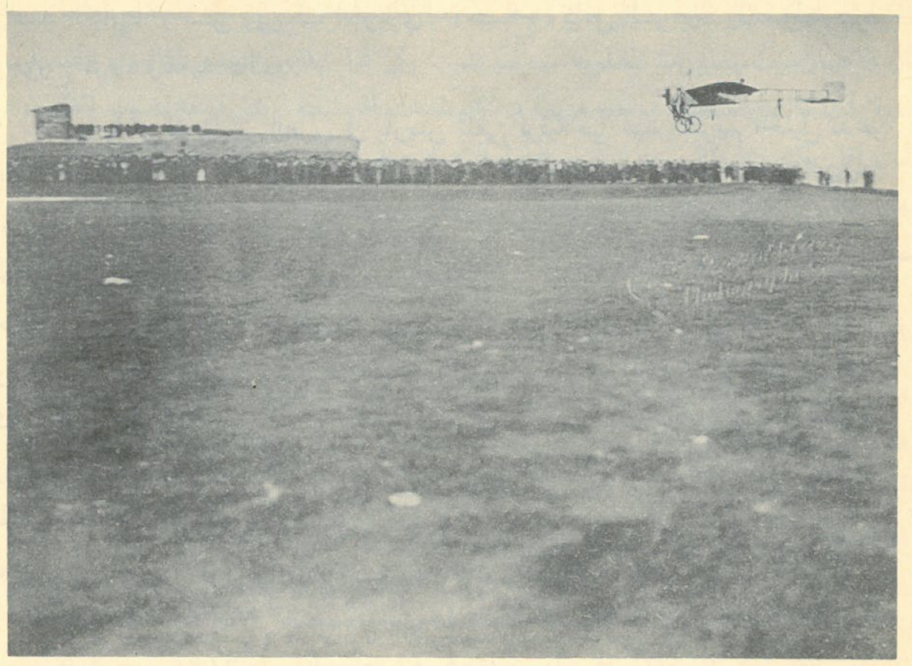
ومما يذكر أن المؤتمر العربي في باريس تلقى برقية من عبد الكريم الخليل تدعو أعضاءه إلى الحضور للآستانة لمراقبة تنفيذ الإصلاح، فأوفد المؤتمر ثلاثة من أعضائه البيروتيين، وهم سليم علي سلام والشيخ أحمد طبارة ومختار بك بيهم، فوصلوا الآستانة الساعة الواحدة بعد ظهر يوم الجمعة ١٥ آب ١٩١٣، وجرى لهم استقبال حافل(٢). وفي ٢٣ آب قابل الوفد البيروتي السلطان العثماني، وفي ٢٧ آب قابل ولي العهد حيث خطب سليم علي سلام بالتركية، والشيخ أحمد طبارة بالعربية(٣). كما خطب عبد الكريم الخليل واصفاً أهل بيروت بأنهم «أصحاب الغيرة والحمية»، و«هم الذين تجسم لهم خطر المسألة، وهبوا بما أوحته إليهم ضمائرهم الحية». وهتف طلعت بك: فلتحيى بيروت (٤) .

٩ - بيروت تستقبل أول طائرة فرنسية (٢٥ كانون الأول ١٩١٣)(٥):

غادر «جول فدرين» في طائرته الفرنسية مدينة نانسي في ١٩ تشرين الثاني ١٩١٣، فمر في براغ، فيينا، بلغراد، صوفيا، ثم وصل القسطنطينية في ٥ كانون الأول، فاستقبل استقبال الفاتحين. وبعد أيام من الراحة طار نحو قونية، طرطوس، ثم وصل طرابلس في ٢٤ كانون الأول. وفي اليوم التالي قطع المسافة من طرابلس إلى بيروت في عشرين دقيقة، وهبط في أرض الكرنتينا.

أما «بونييه» ، ومعه مساعده الميكانيكي «بارنييه»، فقد غادر باريس في ١٣ تشرين الثاني ١٩١٣ ، واتجه بطائرته نحو القسطنطينية، وهناك التقى بفدرين. لكن بونييه سلك طريقاً مغايراً له، فقد مرَّ بـ إسكي شهر، أضنة، ثم وصل بيروت في ٢٩ كانون الأول، أي بعد أربعة أيام من وصول الطائرة الأولى. ومما يذكر أن وهج الشفق أثناء الغروب منعه من رؤية إشارة الهبوط، فاضطر للنزول بطائرته في منطقة

(١) مذكرات سليم علي سلام، ص ٢٧٤ .
(٢) ثورة العرب، ص ١٢٣ .
(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٤ .
(٤) المصدر نفسه، ص ١٢٦ .
(٥) F. Debbas: Beyrouth.«Notre Mémoire», p 228.



طائرة فدرين في الكرنتينا

الرمال. وفي اليوم التالي لحق به القنصل الفرنسي «كولوندر»، وطارا سوياً فوق القصر الحكومي في بعبدا، وهبطا في الكرنتينا وسط الجموع الغفيرة.

١٠ ـ الانتخابات النيابية في ولاية بيروت (٩ نيسان ١٩١٤):

بعد عودة وفد بيروت من مؤتمر باريس، اتبع والي بيروت بكر سامي بك، سياسة احتضان المعارضة البيروتية لتحويلها إلى جبهة مؤيدة للحكومة التركية. وبذلك فوجئت بيروت بتعيين محمد بيهم ويوسف سرسق عضوين في مجلس الأعيان [١]، وكلاهما غير منتسب لحزب من الأحزاب السياسية، ولكنهما يميلان إلى أنصار الإصلاح الإداري في بيروت ودمشق وغيرهما.

وبتدبير مدروس من والي بيروت بكر سامي بك، جرت الانتخابات النيابية لولاية بيروت بعد ظهر الخميس ٩ نيسان ١٩١٤ في المجلس البلدي، ففازت لائحة سليم علي

(١) يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ١١٨.

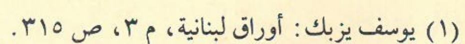
سلام (٣٥ صوتاً) ومعه ميشال ابراهيم سرسق (٣٢ صوتاً) وكامل بك الأسعد (٢٦ صوتاً)، وخسرت لائحة سامي الصلح (٣ أصوات) ومعه جان نقاش (٨ أصوات) وطه المدور (صوتاً واحداً) [١]. ومما يجدر ذكره أن نواب العرب عيِّنوا تعييناً، إلا في بيروت والبصرة وقسم من ولاية الشام [٢].

وهكذا وقع اختيار والي بيروت على كل من سليم علي سلام وميشال ابراهيم سرسق ليفوزا بالنيابة، وكلاهما من أبرز وجوه بيروت، ومن أهم أركان طلاب الإصلاح الإداري. أما النائب الثالث عن ولاية بيروت وهو كامل بك الأسعد، فأبقي عليه للاستعانة بنفوذه المحلي، وإجماع الأقضية الثلاثة صيدا وصور ومرجعيون على انتخابه.

وقد انتقد سامي الصلح أعمال والي بيروت بكر سامي بك، والتي أدت إلى فشله في الانتخابات، انتقاداً مراً في كتاب مفتوح عزّزه بالبراهين الدامغة، ونشره مطبوعاً باللغات العربية والتركية والفرنسية، وعدّد فيه الفضائح المقترفة أثناء الانتخابات [٣].

ومن هنا بدأ الصراع السياسي حول زعامة بيروت، بين آل سلام وآل الصلح [٤]، وانضم إلى كل منهما عائلات كثيرة من أهالي بيروت.

ولم يكتف والي بيروت بالانتخابات للقضاء على معارضة حزب الإصلاح الإداري، عندما ترك أبرز أعضائه سليم علي سلام وميشال ابراهيم سرسق يفوزان بالنيابة، فقد سهَّل فوزهما الحصول على امتياز مشروع استثمار أراضي الحولة، بعد أن كانا مع شريكهما أحمد مختار بيهم يلقون معارضة من الجبهة التي يتزعمها رضى الصلح. وقد أنهى والي بيروت النزاع بإعطاء شركة سلام ـ سرسق ـ بيهم ٨٠ في المئة ورضى



(١) يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ٣، ص ٣١٥.
(٢) ثورة العرب، ص ١٦٠.
(٣) مذكرات سامي الصلح، جـ ١، ص ٢٣.
يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ١٢٠.
(٤) استمر الصراع بين عائلتي سلام والصلح حوالى نصف قرن منذ انتخابات سنة ١٩١٤ وحتى انتخابات سنة ١٩٦٤. وقد بدأ الصراع بين رضى الصلح (والد رياض) الذي أيّد ابن عمه سامي الصلح ضد سليم علي سلام في انتخابات سنة ١٩١٤. ثم ظهرت زعامة رياض الصلح، وباغتياله في عمان سنة ١٩٥١، اشتد الصراع بين سامي الصلح وصائب سلام (ابن سليم علي سلام) وبلغ ذروته في حوادث سنة ١٩٥٨. وانتهى الصراع بوفاة سامي الصلح سنة ١٩٦٤.

الصلح وجبهته ٢٠ في المئة من أسهم الشركة [1] . وكان قد عين أحمد مختار بيهم رئيساً لبلدية بيروت مكان منح رمضان .

وبعدما صفا الجو لوالي بيروت التركي في أوائل سنة ١٩١٤ ، انتهز الاتحاديون الفرصة وأخذوا يعدون العدة لسحق العرب والقضاء على فكرتهم القومية ، ومنعهم من العودة ثانية إلى المطالبة بحقوقهم . وأنشأوا لهذه الغاية جمعية ترك أوجاغي [2] ، وجعلوا غايتها تتريك العناصر غير التركية .

وباندلاع الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، دخلت بيروت مرحلة خطيرة في تحول مسارها السياسي ، انتهت بها ولاية بيروت سنة ١٩١٨ .

(١) يوسف الحكيم : بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ١٢٠ .

(٢) ثورة العرب ، ص ١٩٩ - ٢٠٤ و٢١٠ - ٢٢٦ .

الفصل الثامن

بيروت خلال الحرب العالمية الأولى
(١٣٣٢ - ١٣٣٦/١٩١٤ - ١٩١٨)

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤، كانت تركيا لا تزال على الحياد، وكان قد صدر قانون «ضريبة الحرب» ويسري على بيروت وسائر الولايات، وبموجبه يستوفى من جميع موظفي الدولة ثلاثة بالمئة من رواتبهم ومخصصاتهم، ثم صدر قانون النفوس الجديد في ١٤ آب ١٩١٤، وقد نص على ذكر دين المسلم ودين ومذهب غير المسلم في السجل وورق الهوية (يبدو حتى الآن لم نتخلص من هذه البدعة التركية خلال الحرب)، وأخذت الدوائر المختصة تراقب المراسلات والبرقيات الصادرة والواردة. وفي نفس الوقت أخذ بعض شبان بيروت وملحقاتها يرسلون أهاليهم إلى داخل سورية، خشية المفاجآت التي قد تأتي من أساطيل الحلفاء ضد ساحل بيروت. وانقسمت صحف بيروت، فيما يتعلّق بأخبار الحرب، إلى ثلاث فئات: الفئة الأولى اتبعت سياسة الحكومة فسميت «الصحف الحكومية» وكانت تنشر أخبار انتصارات ألمانيا ، والفئة الثانية كانت تشيد بفرنسا وانكلترة، والفئة الثالثة التزمت الحكمة والاعتدال في أسلوبها . وكانت جريدة « الرأي العام » [1] من أهم الصحف الموالية لوالي بيروت .

١ ـ والي بيروت يتلقى برقية «إعلان الجهاد المقدس» (١٤ تشرين الثاني ١٩١٤):

وفي ١٤ تشرين الثاني ١٩١٤ ، تلقى والي بيروت بكر سامي بك برقية من وزارة الداخلية معممة لجميع الولاة ، تتضمن إعلان السلطان محمد رشاد، بصفته أمير المؤمنين، الجهاد المقدس على أعداء الإسلام محاربي الدولة العثمانية دولة الخلافة

(١) يوسف الحكيم : بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ١٣٩ .

الإسلامية (١). وعين الفريق جمال باشا حاكماً عسكرياً إدارياً على سورية وفلسطين والحجاز حتى الحدود المصرية .

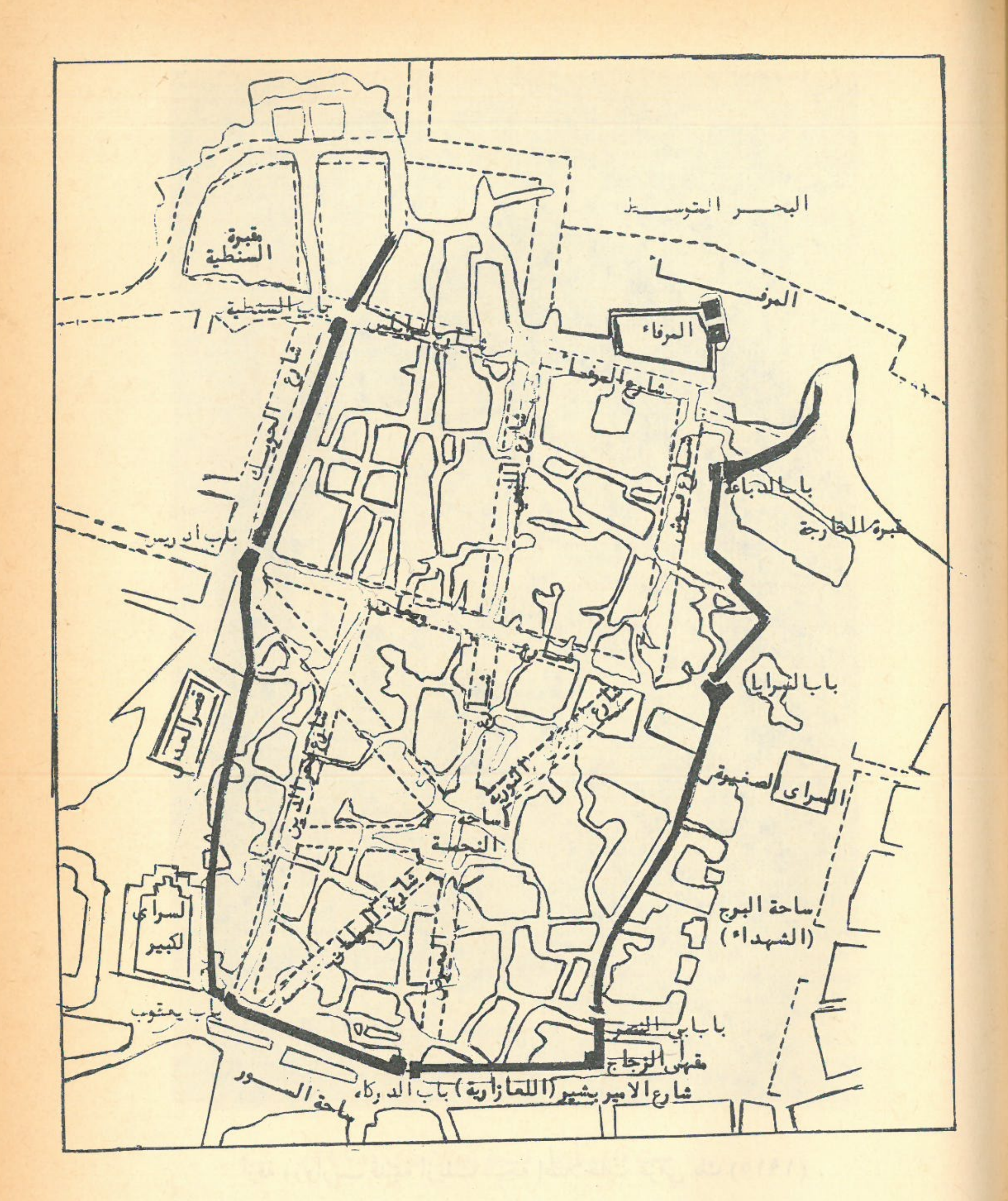
وفي أول كانون الأول ١٩١٤ ، شوهدت أمام ساحل بيروت مدرعة روسية ، ثم دخلت ميناء بيروت (٢) فظنها البيروتيون أنها من طلائع الأساطيل القادمة لاحتلال بيروت والساحل ، وقامت حكومة بيروت بنقل السجلات والملفات الهامة إلى صوفر ، لكن المدرعة ما لبثت وأن غادرت ميناء بيروت بسلام . وأصبح مألوفاً مشاهدة مثل هذه السفن في عرض البحر دون أن تقترب من ساحل بيروت .

٢ ـ إصلاحات عزمي بك (١٩١٥):

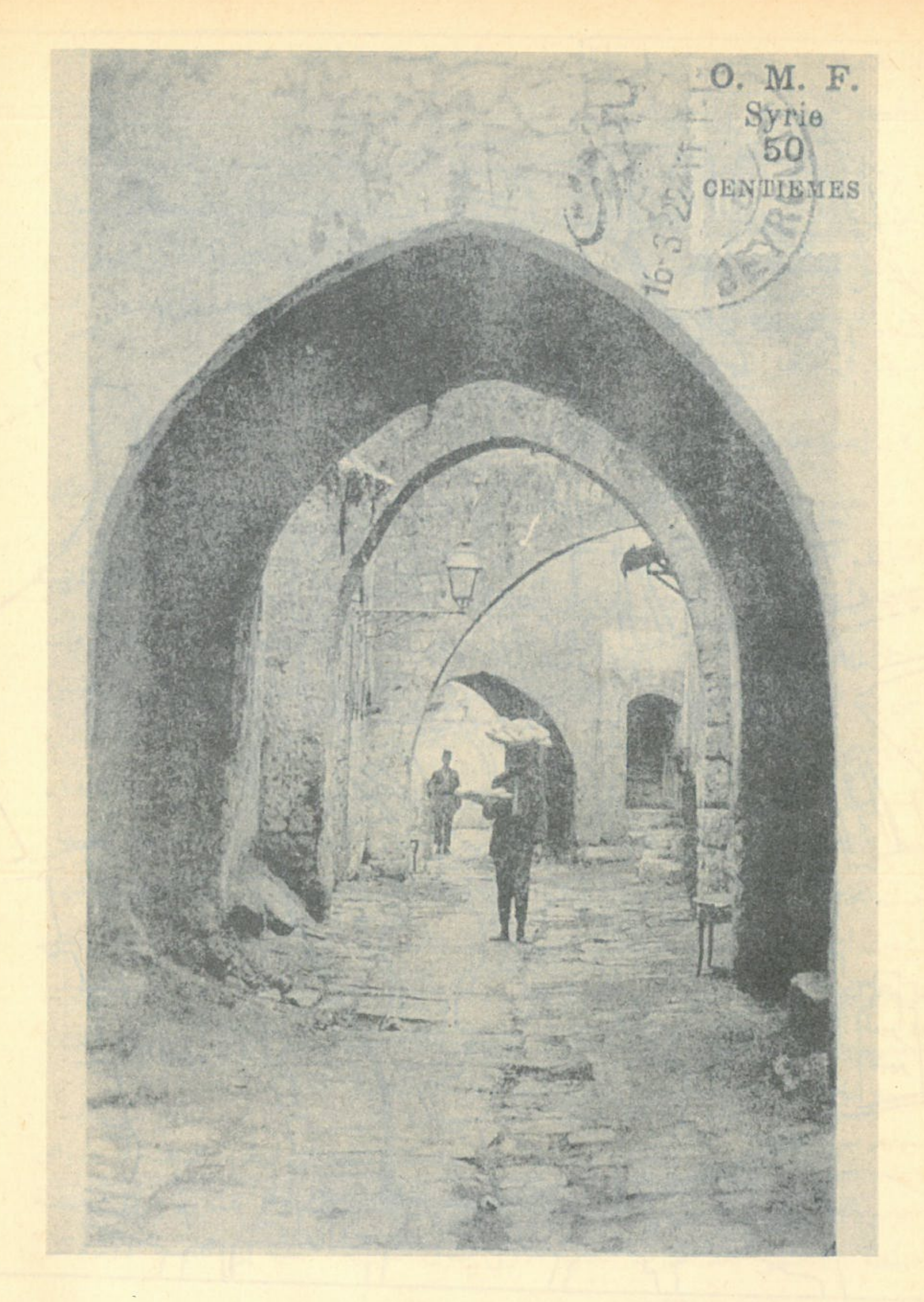
غادر الوالي بكر سامي بك بيروت في ٢٨ حزيران ١٩١٥ ، بعد أن نقله جمال باشا إلى حلب. وجاء عزمي بك خلفاً له في ٨ تموز ١٩١٥ ، وقد حصر اهتمامه في أمر ولاية بيروت وعمران مدينة بيروت (٣) ، وإليه يعود الفضل في تنظيم مدينة بيروت من ساحة البرج وباب ادريس إلى ساحل البحر، فقد ألَّف لجنة خاصة تابعة لبلدية بيروت التي يترأسها مختار بيهم ، وثمنت قيمة البيوت والمخازن القديمة التي كانت تشوه المدينة وتعيق السير والحركة فيها، وسلمت كلاً من أصحابها مضبطة بقيمة عقاره يستوفيها بعد هدمه. وكانت بلدية بيروت قد بدأت بإنشاء الشوارع منذ سنة ١٨٩٤ ، فقد كانت شوارع بيروت القديمة في حالة يرثى لها، وكانت الفوضى تسيطر عليها، حيث تجتازها قطعان الغنم وبقية الحيوانات في طريقها نحو المرفأ. وكان على بلدية بيروت أن تنظم قلب المدينة، فأنشأت طرقاً جديدة سنة ١٨٩٤ . وأنشىء الشارع الرئيسي الذي يجتاز المدينة من الشرق إلى الغرب، مكان الطريق الروماني «دقيمانوس مكسيموس»، وسمي شارع الفشخة، وهو يربط باب ادريس بباب السراي، ويدل اسمه على مدى ضيق الشارع (سمي شارع ويغان سنة ١٩٢٤).

وكان شارع السراي ، يبدأ من جنوب باب السراي ويسير بمحاذاة سراي فخر الدين القديمة التي هدمت سنة ١٨٨٢ ، وهذا الشارع يحتوي على أرصفة مبلطة . (سمي بعد الحرب العالمية الأولى سوق النورية ، نسبة إلى قديسة الأرثوذكس

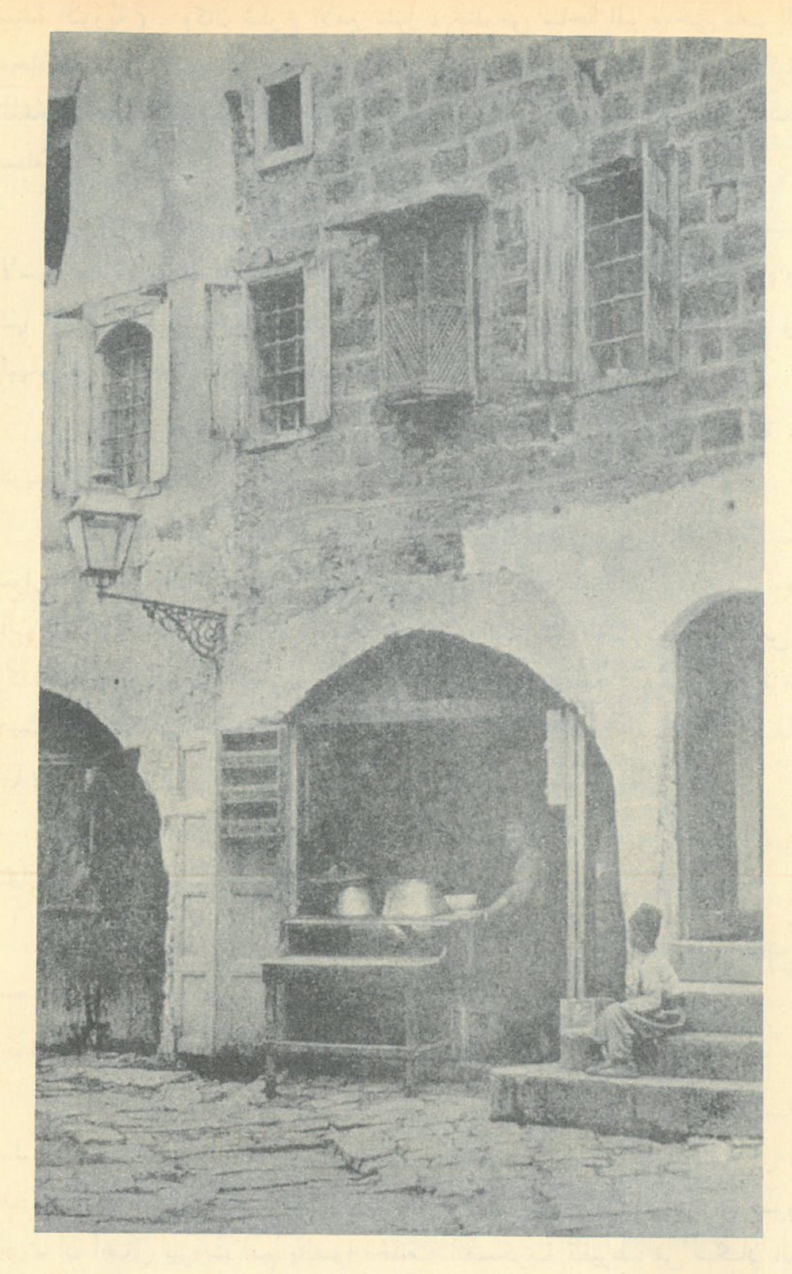
(١) يوسف الحكيم : بيروت ولبنان في عهد آل عثمان ، ص ١٥٢ .
(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٩ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٢١ .



تطور بيروت القديمة بعد إصلاحات (١٩١٥)



أزقة وزواريب قديمة أزيلت نتيجة إصلاحات عزمي بك (١٩١٥) .



بيت قديم أزيل نتيجة إصلاحات (١٩١٥)

سيدة النورية) . وكان شارع الأمير بشير ، يمتد من ساحة البرج حتى باب الدركاه ، بمحاذاة السور جنوب المدينة ، وقد سمي أيضاً بشارع البرج والدرب الكبير وشارع اللعازارية ، ويلتقى هذا الشارع بساحة البرج عند مقهى الزجاج ، حيث يجتمع روادها مساء حول الحكواتي .

أما ساحة السور، فكانت تقع جنوب غرب المدينة، وهي ساحة مستطيلة بين الأسوار وأبراج غرب المدينة، وتحولت إلى سوق لأحياء زقاق البلاط والباشورة والبسطة . كما كانت هذه الساحة تشهد الاحتفالات المتنوعة: ترويض الخيل، والألعاب البهلوانية . . . خلال شهر رمضان .

وكان شارع البطريرك حويك، يمتد مسافة طويلة من كنيسة الكبوشية عند باب ادريس إلى أوتيل غاسمان عند باب السنطية .

وقد أتت هذه الإصلاحات العمرانية على أسواق بيروت القديمة، لتنشأ مكانها شوارع جديدة ومتوازية مثل شارع اللنبي، وشارع المعرض الذي، هدم من أجل إقامته باب الدركاه وجامع الدركاه والحمام التركي والكنيسة الأرثوذكسية والقوس الروماني وكذلك شارع المارشال فوش، الذي نشأ بعد هدم جامع الدباغة زاوية البدوي، حيث أقيم مكانها جامع أبي بكر الصديق، ثم شارع فخر الدين[1]، (الذي سمي فيما بعد بشارع رياض الصلح) .

وفي سنة ١٩٢٢، قامت ساحة النجمة بعد هدم جامع شمس الدين وجميع الخانات القديمة .

وقبل أن يتم عزمي بك إصلاحاته العمرانية حل محله علي منيف بك، ثم اسماعيل حقي بك الذي انتهى معه الحكم التركي لبيروت سنة ١٩١٨ .

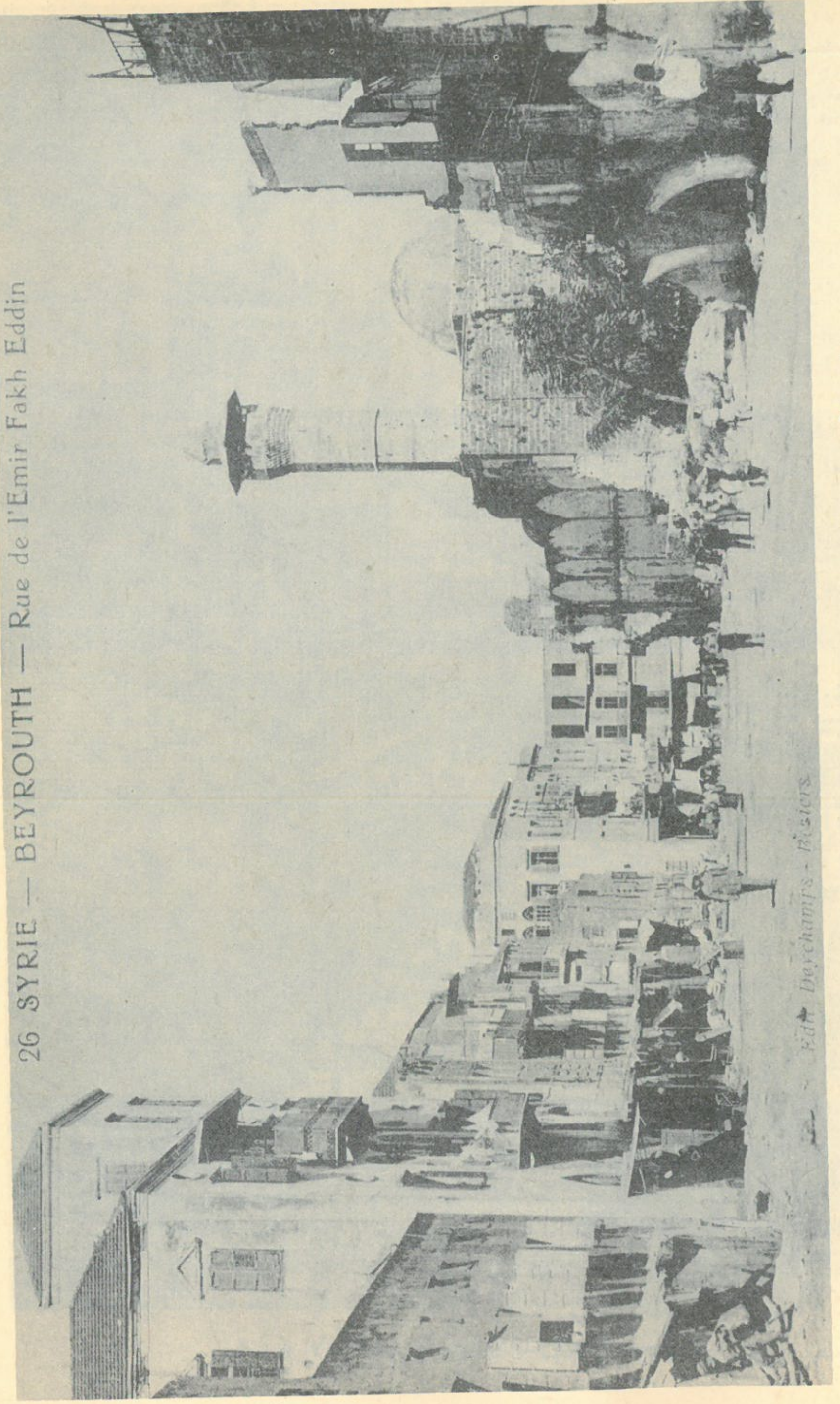
٣ ـ التجنيد العسكري الإجباري :

لم يشوه عهد ولاية عزمي بك، سوى حكم الإرهاب العسكري لجمال باشا بعد تكاثر عدد اللاجئين إلى بيروت من القرى المجاورة ، إضافة إلى التجنيد العسكري الإجباري وكان حسني بك رئيس شعبة أخذ العسكر في بيروت[2]. وحيث أن أهالي بيروت لم يألفوا الخدمة العسكرية كغيرهم من سكان الولايات

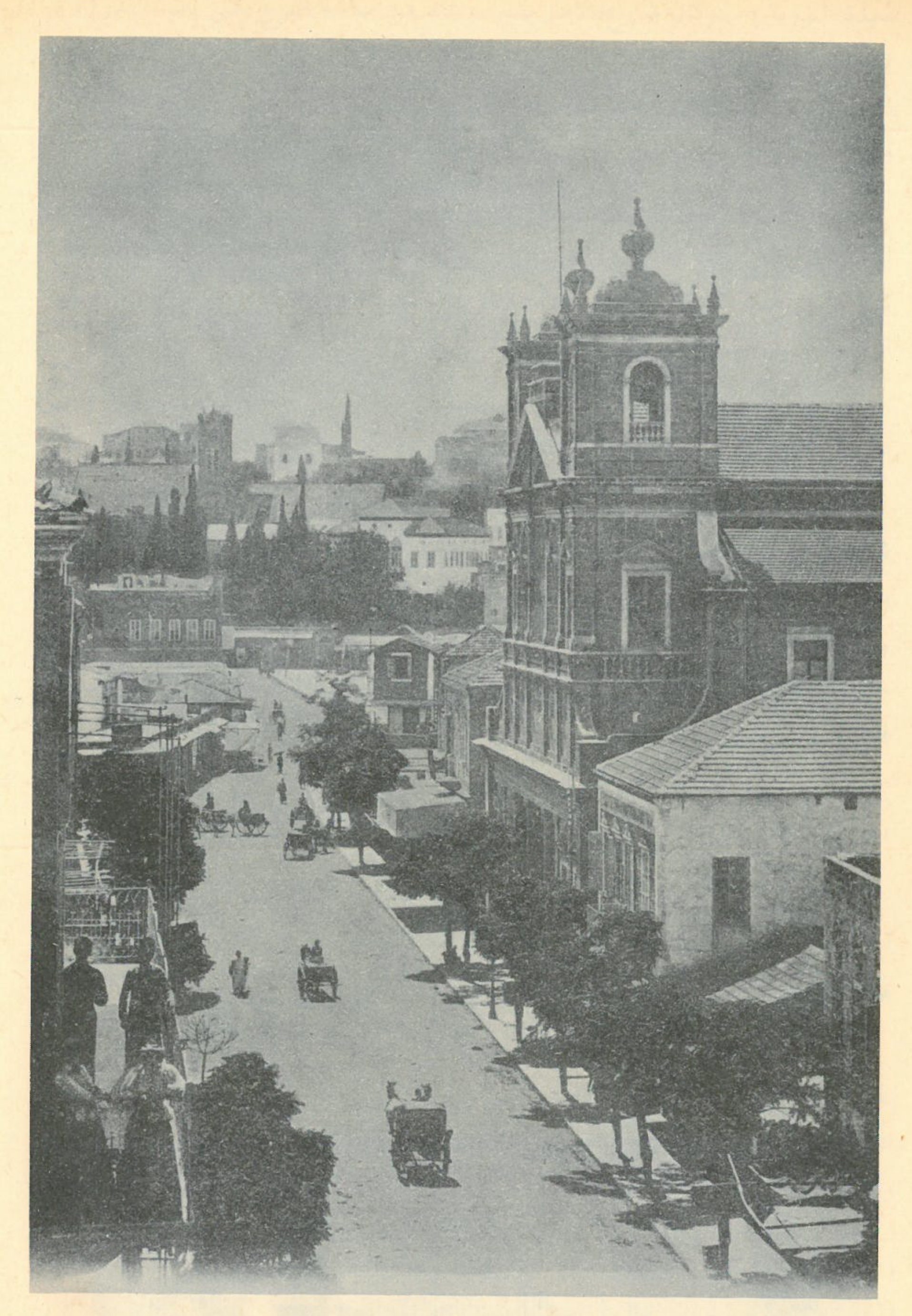
---

(١) F. Debbas: Beyrouth, «Notre Mémoire», p 45, 55, 62.

(٢) يوسف الحكيم : بيروت ولبنان في عهد آل عثمان ، ص ٢٢٢ .



شارع الأمير فخر الدين (رياض الصلح فيما بعد) ويبدو جامع الأمير منذر «النوفرة»



شارع الأمير بشير وتبدو الكاتدرائية المارونية

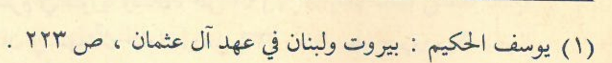
الأخرى ، لذلك لجأ عدد كبير منهم إلى جبل لبنان ، وبعض المدن والقرى الساحلية هرباً من الخدمة العسكرية . وكلما مرَّت أيام الحرب ازدادت حاجة تركيا إلى المجندين، فكانت فرقة المطاردة تطارد الفتيان والشبان في كل مكان، وتفاجئهم في الليل والنهار، في منازلهم وفي المقاهي ودور السينما . . مما أدى إلى فرار الكثيرين منهم، كما صدر أمر إنزال عقوبة الإعدام على كل فار من الخدمة[١] ، حتى وصل الأمر محاولة الكثيرين الفرار حتى بعد دخولهم الخدمة العسكرية .

واضطر الكثيرون إلى ترك بيروت إلى مصر، فيقول بشارة خليل الخوري : «توكلت على الله وركبت آخر باخرة إيطالية تركت ميناء بيروت يوم ١٢ من كانون الثاني سنة ١٩١٥، مع رفقاء عديدين وعائلات كريمة لبنانية وبيروتية هجرت البلاد بانتظار الفرج»[٢].

كما أن مقتضيات الحرب أدت إلى وضع يد الحكومة التركية على المؤسسات الأجنبية التابعة للدول الأوروبية المعادية لها ، فحولتها إلى معاهد عثمانية . وأصبحت الكلية الطبية اليسوعية تدعى كلية طبّية عثمانية ، وأساتذتها من الأطباء الترك ، وأعفت تلامذتها من خدمة العلم مدة الدراسة ، فكان إقبال الطلاب عليها عظيماً لرغبتهم في تحصيل الطب والخلاص من الجندية في الوقت نفسه . كما شمل الاستيلاء على المعاهد الأجنبية، الكلية الخاصة في بيروت، بعد نفي صاحبها الشيخ أحمد عباس إلى داخل سورية، ذلك أن معظم طلاب الإصلاح الإداري هم من خريجي مدرسة الشيخ عباس[٣].

٤ ـ تعليق المشانق في ساحة البرج (٢١ آب ١٩١٥ و٦ أيار ١٩١٦) :

أنشأ جمال باشا ديوان الحرب العرفي في عاليه لملاحقة المناوئين له . وفي شهر آب ١٩١٥، حضر جمال باشا إلى بيروت، فاستقبل كالملوك الفاتحين، ونزل في فندق بسول وكان البوليس بالألبسة الرسمية ممتداً على جانبي الطريق خلال إقامته في منطقة



(١) يوسف الحكيم : بيروت ولبنان في عهد آل عثمان ، ص ٢٢٣ .
(٢) بشارة خليل خوري : حقائق لبنانية، جـ ١، ص ٧٧ .
(٣) يوسف الحكيم : بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ٢٤٨ .

الزيتونة على البحر (١) . بموجب وشاية أحد الموظفين ، استولى على القنصلية الفرنسية في بيروت ، حيث عثر على وثائق ورسائل اعتبرت مستمسكاً لإدانة الكثيرين بالتواطؤ مع فرنسا ، ومنها مضبطة موقعة من أربعين شخصاً (٢) ، منهم الشيخ أحمد طبارة البيروتي ونخلة مطران وشفيق مؤيد العظم وميشال تويني ويوسف الهاني والأخوين فيليب وفريد الخازن ، يطلبون فيها حماية فرنسا ومعونتها في سبيل حصول سورية على استقلالها ، باعتبارها جزءاً عربياً لا يربطه بالدولة العثمانية سوى تغلب العنصر التركي عليه، مع المحافظة على استقلال جبل لبنان وتوسيع حدوده بحيث تنضم بيروت (٣) وسواها إليه (وهي الحدود التي تألفت منها دولة لبنان الكبير) . وقد اتهم فيليب زلزال (٤) ، الذي كان سكرتيراً للقنصلية الفرنسية قبل الحرب العالمية الأولى ، بأنه هو الذي أرشد جمال باشا إلى هذه الوثائق والرسائل . وعلى الفور بدأ جمال باشا بنفي الكثيرين إلى الأناضول، ومنهم مطران الطائفة المارونية في بيروت نخلة باشا مطران وقد قتل في الطريق إليها(٥)، كما أصبح معظم الموقعين على تلك المضبطة في سجون الديوان العرفي في عاليه ودمشق، واستصدر الأحكام بإعدام نخبة منهم بتهمة السعي لتفكيك الأجزاء العربية من الدولة العثمانية وتسليمها للدول الأجنبية، وهي تهمة الخيانة العظمى(٦). وتم نقل قسم منهم من عاليه إلى مدينة بيروت بواسطة السيارات، وهم

(١) مذكرات سليم علي سلام، ص ٢٠٩ .
(٢) يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ٢٣٤ .
(٣) المرجع نفسه، ص ٢٤٢ .
(٤) فيليب زلزل: من وجهاء بكفيا، ربيب فرنسا وأكبر ترجمان موظف في قنصليتها العامة في بيروت قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى (١٩١٤)، وقد نفي إلى دمشق بعد دخول الدولة العثمانية الحرب وخوفاً من نفيه إلى الأناضول ومقابل العفو عنه اعترف لجمال باشا بمخبأ الأوراق السياسية التي كان يحتفظ بها القنصل العام الفرنسي مسيو بيكو قبل سفره فإذا هو مستودع أعد في أحد جدران غرف القنصلية وطلي بابه بصورة تحول دون معرفته فظهرت الوثائق التي تدين الكثيرين وأفرج عن زلزل فعاد إلى بيروت ومنها إلى بكفيا حيث لازم بيته .
محمد جميل بيهم: سورية ولبنان، ص ١٨٩ .
يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .
(٥) محمد جميل بيهم: العهد المخضرم في سوريا ولبنان، ص ١٩١ .
يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ٢٣٩ .
فيليب حتي: تاريخ لبنان، ص ٥٨٩ .
(٦) زين زين: نشوء القومية العربية، ص ١٢٠ - ١٢١ .

ينشدون الأناشيد الحماسية ويترنمون بالأهازيج القومية (١) ، وسيق قسم آخر إلى دمشق في القطار الحديدي .

وهكذا أعدم ١١ شخصاً في ساحة البرج ببيروت في ٢١ آب ١٩١٥(٢)، (سميت فيما بعد ساحة الشهداء حيث نصب تمثال رمزي لهم ولمن بعدهم) وهم : عبد الكريم الخليل، مسلم عابدين، صالح أسد حيدر، نايف تللو، محمد ومحمود المحمصاني، عبد القادر الخرسا، محمود العجم، نور الدين القاضي، سليم عبد الهادي، وعلي الأرمناوي . وقد هتف محمد المحمصاني «فليحيى العرب» وأزاح بنفسه سدة المشنقة من تحته(٣).

وفي ٦ أيار ١٩١٦، أعدم جمال باشا في ساحة البرج ببيروت ١٤ شخصاً(٤)، هم: الشيخ أحمد حسن طبارة، سعيد عقل، عمر حمد، عبد الغني العريسي، عارف الشهابي، توفيق البساط، سيف الدين الخطيب، الأميرالاي أمين لطفي البخاري، جورج حداد، محمد الشنطي . وفي اليوم نفسه أعدم سبعة أشخاص في ساحة المرجة بدمشق . والجدير بالذكر أن السلطة في بيروت لم تدفن كل واحد من الذين أعدموا على حدة، بل كانت تقذف كل مجموعة منهم في حفرة واحدة في تلة كانت مهجورة ، وتعرف بتلة الدروز (٥) .

وأعدم الكثيرون بصورة إفرادية في بيروت(٦) وعاليه ودمشق، ففي بيروت أعدم الوجيه البيروتي يوسف بشارة الهاني(٧) في نيسان ١٩١٦ ، كما أعدم الأخوان

(١) ثورة العرب، ص ٢٥٣ .
(٢) محمد جميل بيهم: العهد المخضرم في سوريا ولبنان، ص ١٨٩ - ١٩٠ .
يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ٢٣٥ .
(٣) ثورة العرب، ص ٢٥٥ .
(٤) محمد جميل بيهم: العهد المخضرم في سوريا ولبنان، ص ١٩٠ .
(٥) المصدر نفسه، ص ١٩١ .
(٦) المصدر نفسه، ص ١٩١ .
(٧) ظهر بين الوثائق التي كانت مخبأة في القنصلية الفرنسية في بيروت عريضة تتضمن التماس مساعدة فرنسا لفصل لبنان وسورية عن الدولة العثمانية وحصولها على الاستقلال وكان بين التواقيع اسم الوجيه البيروتي يوسف الهاني الذي اعترف بذلك أمام والي بيروت عزمي بك ولم تنجح وساطة آل سرسق مع صديقهم جمال باشا لانقاذه من الإعدام حتى أن السيدة حنينة دوماني زوجة يوسف الهاني طرحت حليها القيِّمة أمام قدمي جمال باشا في قصر ميشال ابراهيم سرسق فداءً عن زوجها فأجابها =

فيليب وفريد الخازن(١) في ٥ حزيران ١٩١٦ . وكان أحمد مختار بيهم وسليم علي سلام في عداد المتهمين في بيروت، لكن موقفهما الرافض للتعاون مع فرنسا أثناء عقد مؤتمر باريس سنة ١٩١٣ ، شفع بهما عند الدولة العثمانية (٢) .

وهكذا لم يسلم البيروتيون من مشانق جمال باشا الذي أعدم الكثيرين، وفي مقدمتهم العديد من وجهاء بيروت المسلمين، أمثال الشيخ أحمد طبارة(٣)، وعبد القادر الخرسا (٤) ، وعبد الغني العريسي (٥) ، وعمر حمد (٦) ، دون أن ننسى الأخوين محمد ومحمود المحمصاني (٧) .

= جمال باشا: خذي حلاك واصرفي ثمنها على تعليم أبنائك حب وطنهم.
يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨ .

(١) المصدر نفسه، ص ٢٣٩ .

(٢) محمد جميل بيهم: العهد المخضرم في سوريا ولبنان، ص ١٩٢ ـ ١٩٣ .

(٣) الشيخ أحمد طبارة (١٢٨٨ ـ ١٣٣٤/١٨٧١ ـ ١٩١٦): أحمد بن حسن بن محي الدين طبارة: صحافي من أهل بيروت. تعلَّم في المدرسة السلطانية وعمل ١٧ عاماً في تحرير «ثمرات الفنون» ثم أصدر جريدة الإصلاح وناصر الحركة الإصلاحية التي قامت في بيروت تطالب باللامركزية وكان أبرز أعضاء مؤتمر باريس سنة ١٩١٣ اعتقله جمال باشا وحوكم في عاليه وقتل شنقاً في بيروت (١٦ أيار ١٩١٦) .
الزركلي: الاعلام، جـ ١، ص ١١٣ .

(٤) عبد القادر الخرسا (١٣٠٢ ـ ١٣٣٣/١٨٨٥ ـ ١٩١٥): ولد ونشأ في بيروت وعمل في التجارة واتهم بالانتماء إلى الجمعية اللامركزية فحكم الديوان العرفي في عاليه بإعدامه وشنق في بيروت.
المرجع نفسه، جـ ٤، ص ٣٨.

(٥) عبد الغني بن محمد العريسي (١٣٠٨ ـ ١٣٣٤ / ١٨٩١ ـ ١٩١٦) :صحافي ، ولد وتعلَّم في بيروت واشترك مع فؤاد حنش بإصدار جريدة المفيد اليومية . ودخل مدرسة الصحافة في باريس واشتهر بعلم السياسة الدولية وعندما طلبته الحكومة فرَّ مع زملائه عمر حمد وعارف الشهابي وتوفيق البساط ثم قبض عليه وعذِّب ونفِّذ فيه حكم الشنق في بيروت. وكان كاتباً رشيق الأسلوب ومن آثاره «البنين» و«المختار من ثمرات الحياة».
المرجع نفسه، جـ ٤، ص ٣٤.

(٦) عمر بن مصطفى حمد (ت ١٣٣٤ / ١٩١٦) : شاعر ، ولد ونشأ في بيروت وتعلم في الكلية العباسية ودخل جمعية «العربية الفتاة» السرية، قبض عليه في مدائن صالح بعد فراره مع عبد الغني العريسي ورفاقهما ثم قضى أربعة أشهر في سجن عاليه وقتل شنقاً في بيروت بحجة القاء قصائد تنفر العرب من الترك.
المرجع نفسه، جـ ٥، ص ٦٦ ـ ٦٧.

(٧) محمد المحمصاني من أدباء بيروت، تخرَّج في فرنسا، وحرَّر جريدة المفيد. جاء مصر بعد إعلان =

ومن المضحك، أنه بينما كانت المشانق تنصب في بيروت ودمشق، كان أعوان الإتحاديين الأتراك، يحطمون اللوحات التي توضع على المخازن والدكاكين لأنها مكتوبة بالعربية، ويأمرون أصحابها باستبدالها بلوحات مكتوبة بالتركية، حتى بلغ بهم الهوس أن أمروا الأطباء بتغيير لوحاتهم ، لتغيير حرف الكاف من كلمة « دكتور » واستبداله بحرف القاف ، ليكون هكذا « دقتور » (١) . وهذا ضمن محاولة تتريك بيروت والعرب .

ورغم المشانق واستبداد الأتراك، وقف البعض بجرأة يتحدون أوامر القادة الأتراك الذين لا يثقون بالعرب، فبرز رشيد بك مرعي البيروتي(٢)، يجهر بعروبته لا يخجل ولا يخاف .

٥ ـ افتعال المجاعة في بيروت :

لم يكتف جمال باشا بتعليق المشانق ، فقد افتعل المجاعة في بيروت وجبل لبنان . ففي مطلع نيسان سنة ١٩١٥ ، غزا الجراد بيروت ، وأخذت أسرابه تتوارد من الجنوب بكثرة هائلة ، تأكل كل أخضر من غرس ونبات ، كما هاجمت حدائق البيوت . وعبثاً حاول الأهالي مقاومة الجراد ، فكان ذلك نذيراً بخطر المجاعة التي استغلها التجار . وكانت أنواع الحبوب (٣) ، تباع في بيروت وغيرها بأثمان باهظة ، مما أدى إلى تزايد عدد الفقراء في

= الحرب العالمية الأولى، وكان بإمكانه البقاء فيها إلى أن تنتهي الأزمة، لكنه آثر العودة إلى بيروت للنضال ضد الأتراك.
أما محمود المحمصاني فقد كان موظفاً في مصلحة البريد العثمانية وشنق مع أخيه في يوم واحد.
ثورة العرب، هـ ، ص ٢٧١ ـ ٢٧٣ .

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٤٦ .

(٢) رشيد مرعي : كان برتبة قومندان آلاي وأصله من بيروت . وعندما أصدر الجنرال حامد فخري تعليماته بتوزيع الجنود العرب على جميع قطعات فرقته بالتساوي لأنه يخشى تجميعهم في قطعة واحدة، رفض رشيد مرعي تعميم هذه التعليمات على الجنود وتحدَّى رئيسه بكل جرأة فقد كان عربياً صميماً وبلغت الحادثة القيادة العليا ووزارة الحرب حتى اضطر الجنرال للاعتذار عما كتبه في أمره اليومي .
يوسف يزبك: أوراق لبنانية، م ٢، ص ٢٨٠ ـ ٢٨١ .

(٣) يوسف الحكيم : بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ٢٤٩ .

الطرقات وفي أسواق بيروت ، ولتدارك الأزمة نشط بعض الوجهاء في بيروت لتخفيف المجاعة من جهة والإثراء الشخصي من جهة ثانية، فأسسوا شركة تستورد الحبوب تحت إشراف ضباط عسكريين من داخل سورية، وتستلمها في محطات سكة الحديد لتوزيعها على الأهالي. وفي ٨ حزيران ١٩١٦، تأسس في بعبدا مركز رئيسي للإعاشة والتموين العام (١) ومع ذلك استحكم الغلاء في بيروت وجبل لبنان، بسبب فساد الإدارة وعلاقة القائمين عليها بمحتكري القمح وبيعه في الأسواق الحرة بأسعار فاحشة، مما حال دون وصول الفقراء إلى حقهم من رغيف الخبز، فانتشرت المجاعة، وقد أوى إلى بيروت، الكثيرمن سكان القرى، فانضموا إلى متسوليها وأصبحوا جيشاً كبيراً، قسم منه يطوف المنازل والمخازن للاستعطاء أو يبحث بين القاذورات على قشور الفاكهة والخضار ليشغل بها المعد الفارغة (٢)، أما القسم الثاني فقد خارت قواه من شدة الجوع، فانطرح على أرصفة الشوارع بانتظار الموت، والمخازن حولهم زاخرة بالمواد الغذائية وبيوت الأغنياء مزدانة بموائد الترف والبذخ، دون أن يجسر هؤلاء الفقراء على مهاجمتها (٣) .

وهكذا مات الفقير جوعاً في بيروت ، وباع متوسطو الحال أملاكهم بأبخس الأثمان لرفع خطر الموت عن أطفالهم وأولادهم ، رغم أن مقدار القمح الوارد أثناء الحرب إلى بيروت وجبل لبنان، عن طريق الشركة المذكورة، قد تجاوز ألوف الأطنان، ومع ذلك بيع في السوق السوداء بعشرة أضعاف وأحياناً بعشرين ضعف قيمته الأصلية (٤) ، وغش القمح بالزوان والكرسنة والتراب (٥) ، مما أدى إلى جني الأرباح الكبيرة وظهور طبقة أثرياء الحرب التي تعرفها كل الحروب والأزمات ، فتملأ جيوبها من الأموال المغموسة بدماء الأبرياء (٦) .

(١) يوسف الحكيم : بيروت ولبنان في عهد آل عثمان ، ص ٢٥٠ .
(٢) ثورة العرب، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ و٢٦٠ .
يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ٢٥١ .
(٣) ثورة العرب، ص ٢٥٧ .
يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ٢٥١ .
(٤) يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ٢٥٢ .
(٥) ثورة العرب، ص ٢٥٧ .
يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ٢٥١ .
(٦) ثورة العرب، ص ٢٦١ .

ويضيف محمد جميل بيهم (١) ، سبباً آخراً افتعل ليزيد من تفاقم الأحوال ، وهو « فقدان النقود الصغيرة من الأسواق وما رافقه من تدابير كانت مصيبة من مصائب الحرب الكبرى . . . وكان من جراء ذلك أن بارت البضائع ، ومنيت النفوس بالكبت ، وصعدت أرواح الجياع إلى الملأ الأعلى تشكو إلى بارئها قساوة الإنسان . . يحتاج المرء إلى النقد الصغير فيبدل الليرة بتسعين قرشاً، وفي اليوم التالي يقل هذا النقد تبعاً لكثرة الطلب عليه، فتسقط الليرة إلى ثمانين قرشاً وكلما تدنى ثمن الليرة فقدت الثقة بها . . والواقع أن الذي خلق هذه الأزمة ليست هي ندارة النقد في الأسواق فحسب، بل التدابير التي رافقت هذه الندارة، ذلك أن إدارات البرق والبريد والجباية وغيرها، وكذلك الشركات الرسمية مثل شركتي سكة الحديد والترامواي، تدعي كلها بأنها مأمورة بأن لا تتقاضى من المكلف إلا عين المطلوب لها فترفض ما يدفع لها زيادة ولو كان متليكاً (المتليك يساوي خمسة قروش)، كيلا تكون مدعوة لرد هذه الزيادة . . » (٢)

ووصف أحد الثقات ، الذين فروا من سوريا ، الحال الاقتصادية في بيروت ، فقال (٣) :

« إذا وصل المسافر إلى بيروت ، وفاز بالدخول إليها بسلام ، فأول ما يستوقف بصره فيها ، التغيير العظيم الذي طرأ عليها بعد إعلان الحرب ، فحركة الأخذ والعطاء فيها ساكتة ، ووجوه الناس قاتمة شاحبة ، وأبدانهم هزيلة وبطونهم خاوية ، والأسواق التي تباع فيها الحاجيات من مأكل وملبس ، لا تحوي إلا بضائع يسيرة ،

(١) محمد جميل بيهم (١٨٨٧ ـ ١٩٧٨): هو محمد جميل بن محمد بن مصطفى بن حسين بيهم بن ناصر العيتاني. ولد في بيروت وتلقّى علومه في مدرسة الشيخ أحمد عباس «المدرسة العثمانية» ثم استكمل دراسته في مدرسة أوليفيا الفرنسية (سميت فيها بعد الليسيه الفرنسية «لاييك»). وقد عرف برحلاته الكثيرة في أقطار العالم (أميركا الشمالية وأميركا الوسطى، الباكستان والهند، الاتحاد السوفياتي، أذربيجان، الصين الشعبية، كشمير، اليابان، الهند الصينية) إضافة إلى البلاد العربية. تزوّج من المجاهدة السورية نازك العابد التي سارت في طليعة الجيش العربي السوري لمقاومة فرنسا سنة ١٩٢٥ . انتخب عضواً في كثير من الجمعيات والمجالس والمنظمات كما ترأس معظمها حتى منحته الحكومة اللبنانية سنة ١٩٧٣ وسام الاستحقاق اللبناني من رتبة كومندور . وله مؤلفات كثيرة في العربية والفرنسية والانكليزية .
(٢) محمد جميل بيهم: العهد المخضرم في سوريا ولبنان، ص ١٩٩ ـ ٢٠٣ .
(٣) ثورة العرب، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٩ .

بعدما كانت مملوءة بالبضائع الكثيرة . وقد ارتفعت الأسعار ارتفاعاً هائلاً . . وأقفل الخياطون والتجار دكاكينهم ومخازنهم ، فمن النادر أن يفصِّل أحد بذلة جديدة . . فالقمح وسائر الحبوب قلت جداً لانقطاع وسائل النقل ، بعدما صادرت الحكومة الخيل والبغال وغيرها من الدواب ، لقضاء حاجيات الجيش ، فارتفعت الأسعار ، حتى صار الناس يطلبون الخبز فلا يجدونه إلا بقدر ، وهذا الخبز أسود قذر ، تعاف النفوس رؤيته ومع ذلك فثمن الرطل الشامي ١٧ غرشاً . وأذا سعى موسر ، فاز بشراء كيس من الدقيق ، فلا يجترىء أن ينقله إلى منزله ، خوفاً من أن يهجم الناس عليه ، ويتخاطفوه كما جرى مراراً .

فكيف جُلْت ببيروت ، وأين أدرت نظرك ، رأيت رجالاً وأطفالاً ونساءً عراة حفاة ، يشكون من ألم الجوع جهاراً ، ويقفون أمام كل من يدخل مطعماً ، من المطاعم القليلة الباقية مفتوحة ليأكل فيه . . . وضرب الفقر والجوع أطنابه فيها ، حتى صار فقراؤها ، يتزاحمون على قشور الليمون والبرتقال ومصاصة قصب السكر ، لكي يقتاتوا بها بعدما بارت فيها التجارة ، ووقف دولاب الصناعة ، وقلت الأيدي العاملة في الزراعة . . . وقد نفذ الفحم في سورية ، وقطعت الحكومة أشجار الغابات في متصرفية جبل لبنان وولايتي بيروت ودمشق فصارت البلاد جرداء . . وقد خلت البلاد من الأطباء بعدما أرسلتهم الحكومة مع جنودها إلى ساحات الحرب . . . اللهم إلا إذا استثنينا الأطباء القليلين ، في الكلية الأميركية ، وبعض الأطباء الباقين في المدن المختلفة لتقدمهم في السن ، وعجزهم عن تحمل مشقات الحرب ومرافقة الجيوش » .

وقال طبيب أميركي عاد من بيروت صيف سنة ١٩١٦ :

« كنت أرى في طوافي في شوارع بيروت وبعض القرى اللبنانية ، الأولاد والنساء والرجال يلتقطون قشر البطيخ والليمون من الأوحال ، ويأكلونه وشاهدت بأم عيني التراب وقشر الليمون في معد كثيرين ممن أجريت لهم العمليات الجراحية ، في أحد المستشفيات في بيروت . . . حتى أن تلاميذ الكلية الأميركية كانوا يفضلون البقاء في المدرسة ، على الذهاب إلى بيوتهم لعدم وجود الأكل الكافي فيها . ثم تفشت الأمراض وقلما شفي أحد منها لنفاذ الأدوية والعقاقير الطبية ، ولقلة الأطباء والجراحين » (١) .

(١) ثورة العرب، ص ٢٦٠.

وهكذا دعي أطباء ولايات بيروت ودمشق وحلب إلى خدمة الجيش التركي في شؤونه الصحية ، وخلت الصيدليات من الأدوية التي صودرت لعلاج الجنود (١) . كما تعذر على أهل بيروت الحصول على البترول للاستنارة والطبخ إلا بسعر باهظ بلغ خمس ليرات للصندوق (٢) . ثم دخل بيروت اللاجئون الأرمن والآشوريين ، فقد كان في معسكر اللاجئين التابع لمدينة بيروت خمسة عشر ألف لاجىء، وفي ضواحي بيروت عدد مماثل أيضاً، مما زاد الأمر سوءاً (٣) .

ومن طريف أخبار المجاعة ، أنه في ٢٠ شباط سنة ١٩١٦ ، أقيمت في بيروت أقواس النصر وزينت المكاتب والدوائر والشوارع بالأعلام، استعداداً لاستقبال أنور باشا وزير الحربية آتياً من زيارته دمشق والمدينة المنورة، وكان يرافقه، حين وصوله إلى الحازمية فبيروت، جمال باشا وعدد من القادة الألمان . وألقيت في بيروت والحازمية عدة خطب ترحيبية لم تذكر فيها أخبار المجاعة ، ولم يظهر في ذلك الوقت أحد من أولئك الجياع الذين كانوا يملأون طرق بيروت عادة ، فقد حجزتهم الحكومة مؤقتاً (٤) ، كي لا ينزعج من مرآهم أنور باشا أو مرافقوه الألمان .

وقد نزل أنور باشا في فندق غاسمن ببيروت، وعند دخوله الفندق أعطى ماسح الأحذية الجالس قرب الباب ريال مجيدي أجرة له .

وقد طرح السؤال ، لماذا لم يحاول أحد قتل جمال باشا الذي لقب بالسفاح ؟ الواقع أن جمال باشا كان يحلم بإقامة خديوية عربية مستقلة تضم ولايات بيروت ودمشق وحلب والموصل وبغداد والبصرة، وذلك مثل خديوية مصر، فأخذ يتقرب من الزعماء العرب . لكن البوليس السري في بيروت اكتشف محاولة لقتل جمال باشا، وفي دمشق اكتشف محاولة ثانية تعدها جمعية عربية ثورية للفتك به ، فامتلأ صدر جمال باشا حقداً على العرب (٥). كما أن الجاسوسية الألمانية في بيروت كشفت مخططه لإقامة

(١) ثورة العرب ، ص ٢٥٩ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٦٠ .
يوسف الحكيم : بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ٢٤٥ .
(٣) فيليب حتي : تاريخ لبنان، ص ٥٩١ .
(٤) يوسف الحكيم : بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ٢٣٦ .
(٥) يوسف يزبك : أوراق لبنانية، م ٢، ص ٣٣٠ .

خديوية عربية . فهل جعلته هذه الأمور يسجن وينفي ويشنق حتى لا يبقى مجال لتصديق ما قد يقال عنه من تقربه للعرب لإقامة خديوية عربية ؟

وفي سنة ١٩١٧ ، طرأ الاعتدال على سياسة جمال باشا ، فسمح باستيراد القمح من سورية [١]، وخص البطريرك الماروني الياس الحويك بشاحنات منه لتوزيعها على الفقراء ، وسمح بعودة بعض العائلات من منفاها ، مما أثار استغراب الأوساط الخاصة والأندية الاجتماعية ، لكن الأمر لم يدم طويلاً ، فقد استدعت الحكومة التركية جمال باشا وانتهى حكمه العسكري .

٦ ـ نهاية ولاية بيروت (تشرين الأول ١٩١٨) :

وبهزيمة تركيا في الحرب ، أعلن قيام حكومة عربية في دمشق برئاسة الأمير سعيد الجزائري في ٢٨ أيلول ١٩١٨ ، ورفع العلم العربي على سارية فوق مبنى البلدية . والعلم العربي ألوانه الأسود والأخضر والأبيض ، ويشمل الألوان الثلاثة مثلث أحمر [٢] . وفي بيروت انهارت السلطة العثمانية ، وسلم الحاكم التركي اسماعيل حقي بك مقاليد الحكم إلى عمر الداعوق رئيس بلدية بيروت [٣] في ٣٠ أيلول ١٩١٨ ، ثم وصلت برقية من الأمير سعيد الجزائري في دمشق يطلب فيها تشكيل إدارة عربية في بيروت [٤] ، باسم الحكومة العربية التي تأسست في دمشق . وعلى هذا الأساس تشكلت حكومة عربية في بيروت في أول تشرين الأول ، برئاسة عمر الداعوق ورفع العلم العربي على المباني العامة (مبنى بلدية بيروت ، سراي الحكومة . . .) . وفي صيدا رفع رياض الصلح العلم العربي الذي ارتفع أيضاً على سراي بعبدا . وعن رفع العلم العربي فوق سراي بيروت يقول صائب سلام [٥] : « ما زلت أذكر ذلك اليوم التاريخي المشهود الذي تولت فيه رفع العلم العربي على سارية السراي الكبير، فاطمة المحمصاني شقيقة الشهيدين محمد ومحمود المحمصاني، وكيف عمت البهجة والسرور الألوف المحتشدة من مسلمين ومسيحيين ،

---

(١) يوسف الحكيم : بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ٢٨٢ .
(٢) زين زين : الصراع الدولي في الشرق الأوسط، ص ٧٧ .
(٣) محمد جميل بيهم : العهد المخضرم في سورية ولبنان، ص ٧٧ .
(٤) زين زين : الصراع الدولي في الشرق الأوسط، ص ٧٨ و٢٩٩ .
(٥) صائب سلام : وهل فشل الاستقلال؟ ص ٢٨ .

يشتركون بالفرحة معاً ويتبادلون التهاني » . ولكن بشارة خليل الخوري يذكر رواية أخرى عن قيام الحكومة العربية في بيروت، فيقول [١] : «كانت فصيلة من الجيش العربي قد دخلت بيروت مع الجند البريطاني يأمرها اللواء شكري الأيوبي [٢] ، فرفعت علم الشريف فيصل بن الحسين [٣] على السراي والدور الرسمية، وعين شكري باشا عمر بك الداعوق حاكماً على بيروت، وحبيب باشا السعد حاكماً على جبل لبنان » . ويسمي هذا الأمر بـ « الاحتلال العربي » [٤] . وفي رواية ثالثة أن أعيان مدينة بيروت، بعثوا ببرقية إلى القيادة العربية العليا في دمشق [٥]، طلبوافيها إرسال ممثل للشريف حسين لينظم أمر الحكومة العربية في بيروت، فبعث نوري باشا السعيد برقية جوابية طلب فيها رفع العلم العربي على جميع المباني الحكومية، بعد أن وصف شكله وألوانه، ثم أرسل الأمير فيصل قوة عسكرية إلى بيروت بقيادة شكري باشا الأيوبي .

وعلى كل، شكل عمر الداعوق حكومة عربية مؤقتة مع أعضاء مجلس بلدية بيروت، لتتولى أدارة الشؤون الضرورية، وقد شاركه في المسؤولية لفيف من وجهاء البلد مسلمين ومسيحيين دون تمييز [٦] . وتم اختيار أحمد مختار بيهم مديراً للأمن العام ويعاونه سليم

---

(١) بشارة خليل الخوري : حقائق لبنانية، جـ ١، ص ٩٢ .
(٢) شكري الأيوبي (١٢٦٧ ـ ١٣٤٠/١٨٥١ ـ ١٩٢٢): ولد وتوفي بدمشق تخرَّج من الكلية الحربية في اسطنبول واتهم في الحرب الأولى بالخروج على سياسة تركيا فسجن في «خان البطيخ» بدمشق . وبعد الحرب عيَّنه الأمير فيصل بن الحسين نائباً عنه في بيروت ولم يرض عنه الفرنسيون فعاد إلى دمشق وعين حاكماً عسكرياً في حلب إلى أن توفي .
الزركلي : الاعلام، جـ ٣، ص ١٧١ ـ ١٧٢ .
(٣) فيصل الأول (١٣٠٠ ـ ١٣٥٢/١٨٨٣ ـ ١٩٣٣): فيصل بن الحسين بن علي الحسني الهاشمي، أبو غازي، ملك العراق، ولد بالطائف واختير نائباً عن «جدة» في مجلس النواب العثماني سنة ١٩١٣ ، وتنقل بين الحجاز والآستانة وزار دمشق وعندما ثار والده على الأتراك تولى قيادة الجيش الشمالي ثم سمِّي «قائداً عاماً للجيش العربي» في فلسطين ودخل سورية سنة ١٣٣٧ / ١٩١٨ ، بعد جلاء الترك عنها وناب عن والده في مؤتمر الصلح في باريس وفشل في إقامة ملك له في سوريا حيث سيطرت فرنسا وبمساعدة انكلترة أصبح ملكاً على العراق سنة ١٩٢١ وتوفي بالسكتة القلبية في سويسرا .
المرجع نفسه، جـ ٥، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ .
(٤) بشارة خليل الخوري : حقائق لبنانية، جـ ١، ص ٩٢ .
(٥) زين زين : الصراع الدولي في الشرق الأوسط، ص ٧٨ .
(٦) صائب سلام : وهل فشل الاستقلال؟ ص ٢٨ .

الطيارة وجان فريج ، كما تم اختيار حسن قرنفل ونسيم مطر مديرين للإعاشة ، وشارك في مسؤولية الحكومة سليم علي سلام وألفرد سرسق ورامز سركيس . . كما احتفظ عمر الداعوق لنفسه بإدارة المؤسسات الخيرية يعاونه محمد فاخوري ويوسف عودة .

لكن الحكم العربي لم يدم في بيروت سوى أحد عشر يوماً ، فما أن دخل الأمير فيصل دمشق حتى أرسل شكري باشا الأيوبي إلى بيروت ، واستلم حكم جبل لبنان باسمه على أن تكون مدينة بيروت هي مقر حكمه (١) ، ودخل الأيوبي بيروت كما توجه إلى بعبدا حيث رفع العلم العربي هنا وهناك كما ذكرنا ، لكن حكم الأيوبي لم يدم إلا أياماً قليلة أسوة بالحكومة العربية في بيروت (٢) ، ذلك أن فرنسا كانت قد اتفقت مع انكلترة بموجب معاهدة سايكس ـ بيكو على أن تكون ولايتا دمشق وحلب وولاية بيروت (ألوية بيروت وطرابلس واللاذقية) ومتصرفية جبل لبنان ، من نصيب فرنسا بعد انتهاء الحرب ، كما أن المسيحيين في جبل لبنان امتعضوا من سيطرة الحكم العربي على بيروت وبعبدا .

٧ ـ سيطرة فرنسا على بيروت (١٩١٨ ـ ١٩٢٠) :

أسرع الفرنسيون إلى تنحية شكري الأيوبي عن الحكم ، ففي صباح ١٨ تشرين الأول سنة ١٩١٨ ، منعوه من مغادرة الفندق الذي يقيم فيه ومن الذهاب إلى عمله في السراي الكبير، وأرسلوا فرقة عسكرية بقيادة الكولونيل دي بياباب أنزلت العلم العربي عن السراي، ثم أصدروا الأمر إلى شكري الأيوبي بمغادرة بيروت، على أن يبقى جميل بك الألشي (الذي كان يرافق الأيوبي) في بيروت، بوصفه معتمداً عربياً (٣) لدى الفرنسيين . وهكذا انسحب الجيش العربي وشكري الأيوبي إلى دمشق عاصمة المنطقة الشرقية، وأصبحت بيروت عاصمة المنطقة الغربية (الساحلية) بما فيها جبل لبنان وبلاد العلويين وكيليكيا ، ويحكمها حاكم إداري هو الكولونيل الفرنسي نياجر بإشراف المفوض السامي . وكان جورج بيكو ، قنصل فرنسا السابق في بيروت ، أول مفوض سام يعاونه المسيو روبرت كولندر والكابتن دام (٤) .

(١) زاهية قدورة : تاريخ العرب الحديث، ص ٢٧٨ .
(٢) محمد جميل بيهم : العهد المخضرم في سوريا ولبنان، ص ٧٩ .
(٣) المصدر نفسه، ص ٨٠ .
(٤) بشارة خليل الخوري : حقائق لبنانية، جـ ١، ص ٩٢ .

وفي هذه الأثناء رست في بيروت بارجة حربية فرنسية على ظهرها المحامي الماروني إميل اده (١) ، أحد كبار دعاة القومية اللبنانية والاستقلال اللبناني ، وكانت السلطات العثمانية قد حكمت عليه بالإعدام ، فقضى سنوات الحرب في باريس (٢) حيث وطد علاقاته بالمسؤولين الفرنسيين، ورأى هؤلاء في إميل إده الزعيم اللبناني الأمثل ، فقرروا دعمه وأوفدوه إلى بيروت مستشاراً لبنانياً للموفض السامي الفرنسي جورج بيكو . وأصبح الحكم بيد الفرنسيين، رغم وجود الجيوش الفرنسية والانكليزية في بيروت، التي بقيت تحتلها كما تحتل متصرفية جبل لبنان وسائر الساحل السوري من ولاية بيروت، وذلك بانتظار ما سيقرره مؤتمر الصلح في باريس . وتحولت فرحة المسلمين بالحكم العربي إلى فرحة المسيحيين بالحكم الفرنسي، ويذكر بشارة خليل الخوري ذلك بعد عودته من مصر فيقول : «وصلت بنا الباخرة إلى بيروت في ٢١ نيسان ثاني عيد الفصح ، وعندما مررت بساحة البرج في طريقي إلى فرن الشباك ، كان المطران اغناطيوس مبارك قد انتهى من إقامة القداس القنصلي التقليدي بحضور ممثلي السلطة الفرنسية في كاتدرائية مار جرجس ، والشباب مجتمعون أمامها يطلقون الرصاص من مسدساتهم ويهزجون : « فرنسا أم الدنيا عموم اعتزوا يا لبنانية» (٣) .

كما يذكر صائب سلام أن أستاذه الخصوصي الخوري يوسف زهار كان يقبل صورة الشريف حسين ويعلن شكره على نعمة التحرر في ظل ملك عربي، ولكن « وبعد زوال الحكم العربي ومجيء البوارج الفرنسية إلى المرفأ ؛ كان الخوري زهار نفسه ، في طليعة من نزل إلى المرفأ لاستقبال الفرنسيين منادياً بأعلى صوت : « تحيا فرنسا (٤) ـ Vive la France » (٥) . وفي هذا الوقت كانت أغلبية سكان ولاية بيروت تطالب

(١) إميل إده (١٣٠١ ـ ١٣٦٨/١٨٨٤ ـ ١٩٤٩): محام لبناني ماروني أقام مدة الحرب العالمية الأولى في مصر وخدم الفرنسيين فلما استولوا على لبنان بعد الحرب ولُّوه رئاسة الوزارة اللبنانية ثم رئاسة الجمهورية اللبنانية (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) وعيَّنوه «رئيساً للدولة» أيام اعتقالهم الزعماء اللبنانيين سنة ١٩٤٣ في راشيا وأبعد عن الأعمال الحكومية بعد جلاء الفرنسيين عن لبنان ومات في صوفر ودفن في بيروت.
الزركلي: الاعلام، جـ ٢، ص ١٤ .
(٢) كمال الصليبي : تاريخ لبنان الحديث، ص ٢٠٧ .
(٣) بشارة خليل الخوري : حقائق لبنانية، جـ ١، ص ٩١ .
(٤) يوسف السودا: في سبيل الاستقلال، جـ ١، ص ١٥٠ .
(٥) صائب سلام : وهل فشل الاستقلال؟ ص ٢٨ .

بالانضمام إلى الدولة العربية السورية بدمشق تحت لواء الأمير فيصل بن الحسين ، بينما كانت أغلبية سكان جبل لبنان ترفض هذا الانضمام وتصر على الاستقلال، مطالبة بتوسيع الجبل بحيث يشمل مدينة بيروت وبعض الأقضية التي كانت تابعة لولاية بيروت أو ولاية دمشق . وهنا اتضح موقف الأغلبية المسيحية التي تسترت في مقاومة الأتراك المسلمين تحت ستار القومية العربية، في حين لم يجد المسلمون حرجاً في التمسك بهذه القومية والمطالبة بدولة عربية كبرى. وفي مؤتمر الصلح بباريس سنة ١٩١٩ ، كان الأمير فيصل يمثل الفئة الوحدوية من السكان ، بينما تألف وفد الثانية برئاسة البطريرك الماروني الياس الحويك ، ومع ذلك لم يقرر مؤتمر الصلح شيئاً في هذا الخصوص .

ولكن المباحثات الجانبية بين الأمير فيصل ورئيس الوزراء الفرنسي كليمنصو، أدت إلى اتفاق تعترف به فرنسا بحكم الأمير فيصل على سوريا، لقاء اعترافه بالانتداب الفرنسي [1]، وإقناع مواطنيه في سوريا بالاعتراف بمثل ذلك، ووقف الثورات التي كانوا يشعلونها ضد فرنسا . وفشل اتفاق فيصل ـ كليمنصو أمام معارضة الفئتين : فئة المطالبين بالاستقلال السوري الشامل ورفض الانتداب الفرنسي، وفئة المطالبين باستقلال لبنان عن سوريا مفضلين الحكم الذاتي تحت الانتداب الفرنسي . وفي هذه الظروف جاء الأمير سعيد الجزائري (حفيد الأمير عبد القادر الجزائري)، من منفاه في حيفا إلى مدينة بيروت، حيث استأجر داراً في محلة برج أبي حيدر[2]، وهو مشبع بالنقمة على الإنكليز الذين أخرجوه من دمشق ونفوه، وبالحقد على الأمير فيصل الذي اتهمه بقتل أخيه الأمير عبد القادر وبالتواطؤ مع الإنكليز على نفيه، وكان يحلم أن يخلف فيصل على ولاية سوريا ، فوجدت فيه فرنسا غايتها ، والتف حوله سكان جبل لبنان وقلة من البيروتيين الموالين لفرنسا وأيدوه، وعاش في بيروت على مستوى الأمراء الحقيقيين [3] .

والحقيقة أن سفر الأمير فيصل إلى فرنسا ومباحثاته مع كليمنصو أوقعت الفرنسيين، كما يقول بشارة خليل الخوري : « بين نارين : مجاملة الأمير من جهة ، ولذلك أحسنوا وفادته وأهداه كليمنصو رئيس وزارتهم جواداً عربياً أصيلاً، ومن جهة أخرى إبقاء جبل لبنان خارج نطاق نفوذ الأمير »[4] . لذلك أعد الفرنسيون للأمير فيصل بعد عودته من فرنسا

(١) محمد جميل بيهم : العهد المخضرم في سوريا ولبنان، ص ٨٨.
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٦ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٩٣ .
(٤) بشارة خليل الخوري : حقائق لبنانية، جـ ١، ص ٩٤ ـ ٩٥.

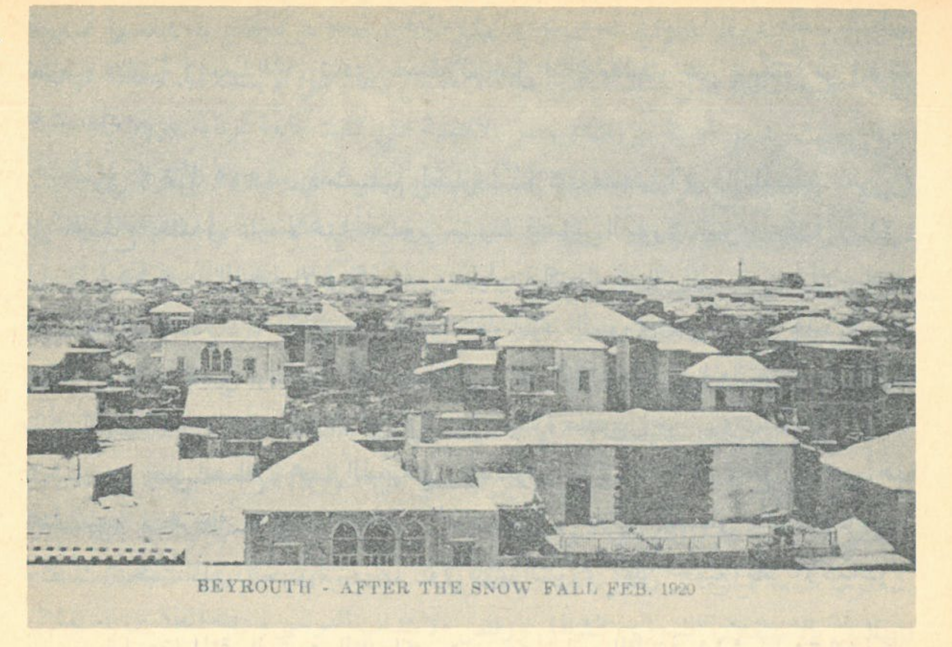
ومروره في بيروت استقبالاً رسمياً حافلاً، وفي الوقت نفسه أوعزوا إلى رجالهم بتنظيم تظاهرة حماسية في بعبدا[1]، تنادي باستقلال جبل لبنان وذلك حتى يتمكنوا من إبقائه تحت نفوذهم .

وفي ٢ تموز ١٩١٩ ، دعا سليم الطيارة [2] (كان مستشاراً في دار المعتمد العربي) إلى اجتماع يعقد في داره لاختيار مندوبي بيروت للمؤتمر السوري المنوي عقده بدمشق، لمناسبة قرب مجيء اللجنة الأميركية المعروفة بلجنة كنج ـ كراين إلى سوريا للاستفتاء حول مطالب السكان . وكانت الغاية من عقد المؤتمر السوري هو مواجهة هذه اللجنة بموقف موحد، يقضي برفض الانتداب الفرنسي ومطالبة الحلفاء بالوفاء لوعودهم المتكررة بشأن تقرير المصير. وانتخب بالاقتراع السري عشرة مندوبين من بيروت هم[3]: محمد جميل بيهم، رضى الصلح ، محمد اللبابيدي، الدكتور فريد كساب، سليم علي سلام، أحمد مختار بيهم ، جرجي حرفوش ، محمد الفاخوري ، عارف النعماني ، جان تويني ، وكذلك انتخبت المدن الأخرى مندوبيها . وفي المؤتمر السوري أعلن الجميع رفض الانتداب .

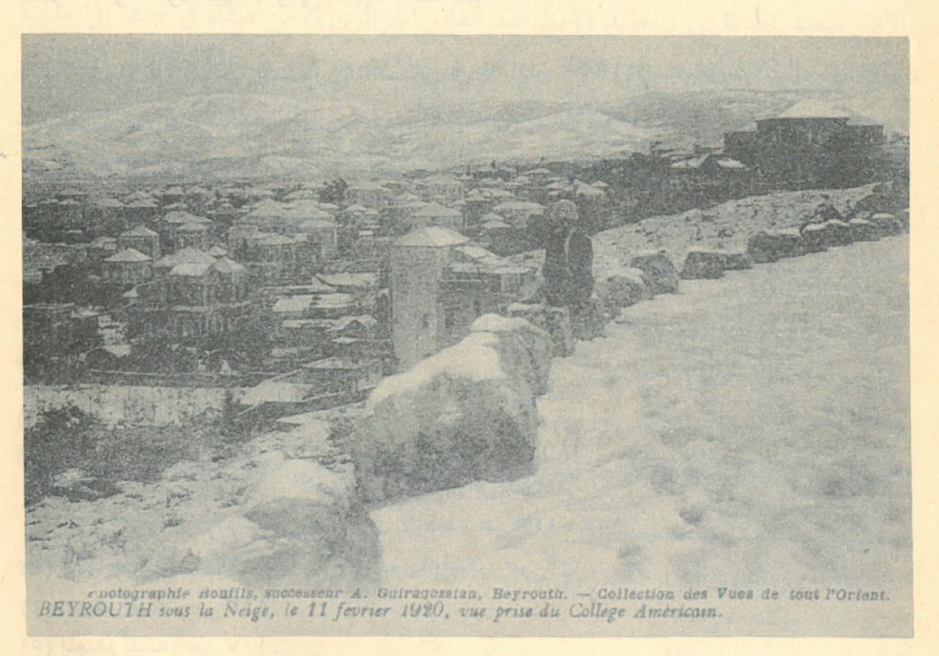
وقبل عقد المؤتمر السوري الثاني اكتست بيروت ببياض الثلج في ١١ شباط ١٩٢٠ فكان منظراً يندر حدوثه فيها ، وهي المدينة الساحلية .

ثم كان المؤتمر السوري الثاني في ٧ آذار ١٩٢٠ في دمشق [4] والذي أعلن استقلال سوريا بحدودها الطبيعية ومنها فلسطين استقلالاً تاماً، واختيار الأمير فيصل ملكاً دستورياً عليها بلقب صاحب الجلالة الملك فيصل الأول[5]، على أن تراعى أماني اللبنانيين الوطنية في كيفية إدارة جبل لبنان ضمن حدوده المعروفة قبل الحرب ، بشرط أن يكون بمعزل عن كل تأثير أجنبي [6] . كما أعلن المطالبة باستقلال العراق .

(١) بشارة خليل الخوري : حقائق لبنانية ، جـ ١ ، ص ٩٥ .
(٢) محمد جميل بيهم : العهد المخضرم في سوريا ولبنان، ص ١٠٨ .
يوسف السودا : في سبيل الاستقلال، جـ ١، ص ٢٤٠ .
زين زين: الصراع الدولي في الشرق الأوسط، ص ١٤٣ ـ ١٥٧ .
(٣) محمد جميل بيهم : العهد المخضرم في سوريا ولبنان، ص ١٠٩ .
(٤) المصدر نفسه، ص ١١٣ .
(٥) المصدر نفسه، ص ١١٧ .
(٦) المصدر نفسه، ص ١١٨ .



الثلج في منطقة زقاق البلاط (١١ شباط ١٩٢٠)



الثلج في منطقة عين المريسة (١١ شباط ١٩٢٠) .

٨ - بيروت عاصمة دولة لبنان الكبير (أول أيلول ١٩٢٠) :

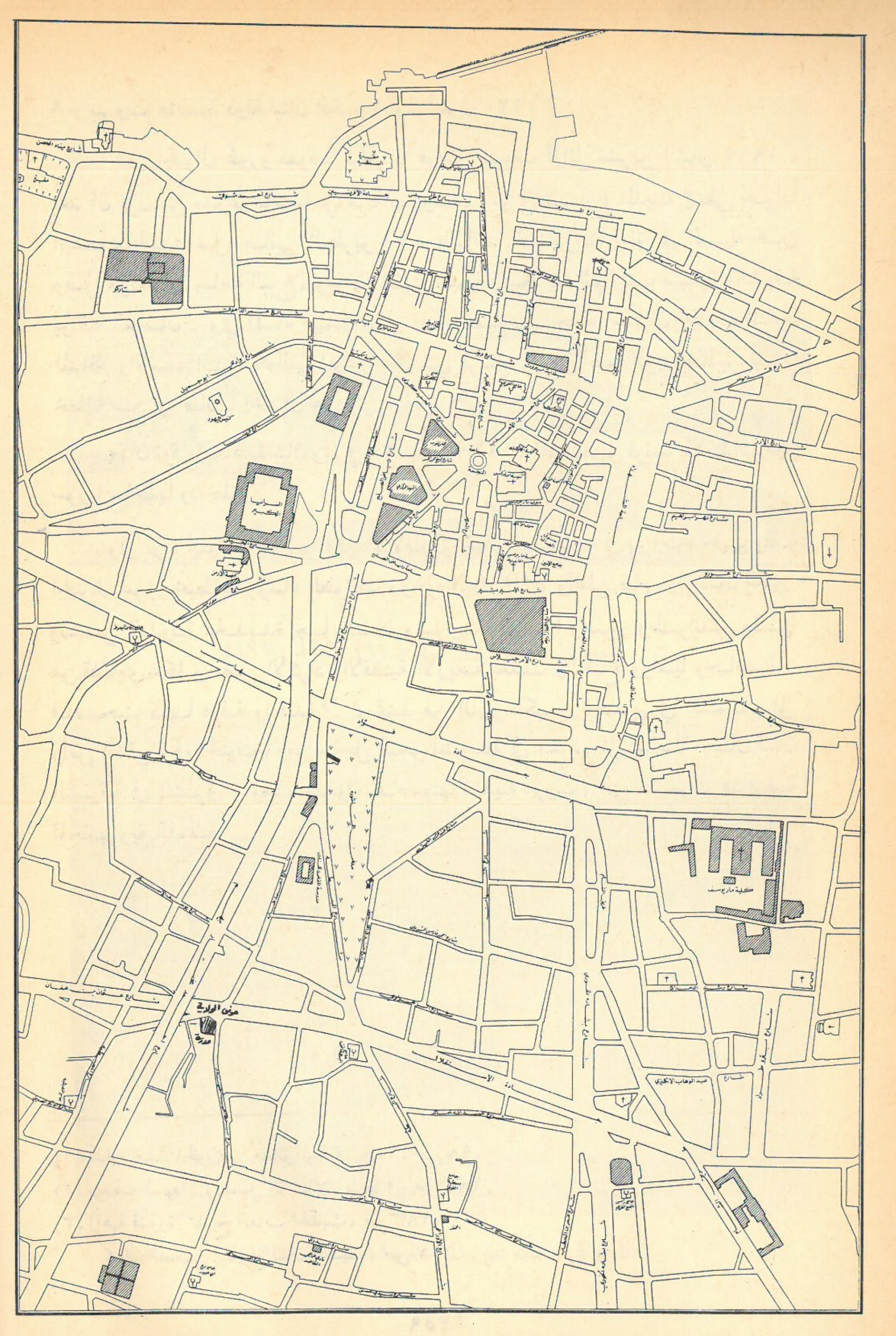
عين الجنرال غورو مفوضاً سامياً ، فوصل بيروت أوائل تشرين الثاني ١٩١٩ ، بعد أن نزل من مدرعة فرنسية في مرفأ بيروت ، ومر في شوارع المدينة يمتطي جواداً أبيضاً والجنود على جانبي الطريق [(١)] . وكانت الطائرات تحلق في السماء حين وصل موكبه إلى ساحة البرج، وعرض القوى البرية والبحرية، ثم ركب سيارة مكشوفة يواكبه الفرسان . وفي المساء أقيمت ، في قصر الصنوبر ، حفلة استقبال أطلقت أثناءها المدافع والأسهم النارية، وألقى المركيز جان دي فريج ، وهو أحد الوجوه البيروتية ، خطاباً عدد فيه مناقب الجنرال غورو .

وكان توقيع معاهدة سان ريمو في ٢٥ نيسان ١٩٢٠ ، قد عهد إلى فرنسا بالانتداب على سوريا ساحلها وداخلها .

وفي أول أيلول ١٩٢٠ ، تدفق الألوف إلى قصر الصنوبر في بيروت، حيث وقف الجنرال غورو يحيط به رؤساء الطوائف ووجوه البلاد [(٢)] ، وأعلن قيام دولة لبنان الكبير. وتشمل الدولة الجديدة جبل لبنان وبيروت وصيدا وصور وطرابلس وقسماً من قضاءي عكا وحصن الأكراد والأقضية الأربعة بعلبك والبقاع وراشيا وحاصبيا ، فأصبحت كلها دولة واحدة [(٣)] ، تمتد من النهر الكبير الجنوبي في الشمال إلى رأس الناقورة في الجنوب، ومن ساحل البحر المتوسط في الغرب إلى سلسلة جبال لبنان الشرقية في الشرق . وهذه الدولة عاصمتها مدينة بيروت، التي استمرت عاصمة للجمهورية اللبنانية . .

---

(١) بشارة خليل الخوري : حقائق لبنانية، جـ ١ ، ص ٩٨ .
(٢) يوسف السودا : في سبيل الاستقلال، جـ ١ ، ص ٢٨١ .
(٣) زاهية قدورة : تاريخ العرب الحديث، ص ٢٨٣ .
كمال الصليبي : تاريخ لبنان الحديث، ص ٢٠٧ .



تطور مدينة بيروت منذ إصلاحات (١٩١٥) وحتى اندلاع الحرب (١٩٧٥)

الخاتمة

تعتبر بيروت من أقدم المدن على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، ولعل هذا الموقع جعلها تدفع ثمن الحروب والصراعات التي تدور حولها ، فتنعكس أحياناً إلى حروب وصراعات داخل أرضها ، على مراحل مختلفة، فإما أن ترتفع إلى قمة المجد والعظمة أو تهوي إلى قاع الحضيض والنسيان . وعلى هذا الأساس كانت بيروت ممراً للغزاة الفاتحين، عبروها في حروبهم حول السيطرة والتوسع ، كما كانت مستقراً لبعض هؤلاء أقاموا فيها إمارتهم أو مملكتهم .

واختلفت بيروت مع المدن الساحلية ، التي يجمعها التاريخ والحضارة والأصل الواحد ، في كيفية التعامل مع الغزاة الطامعين بها . فقد كانت مدن صيدا وصور وعكا . . تغلق الأبواب وترفع الأسوار مما يؤدي إلى حصارها وتدميرها وتشريد سكانها بالقتل والسبي والنهب ، حتى اهتمت بها المصادر التاريخية القديمة تحكي مآثرها ، وغفلت ذكر بيروت لأنها على نقيض هذه المدن ، كانت تفتح الأبواب ، فلا غرو أن تشهد بيروت بصمات بعض كبار الغزاة الفاتحين وعظماء التاريخ . . ففي الألف الثاني قبل الميلاد عبرها فراعنة مصر من أحمس وتحوتمس الثالث إلى رعمسيس الثاني الذي ترك نصباً تذكارياً عند صخرة نهر الكلب .

وفي الألف الأول قبل الميلاد عبرتها الجيوش الآشورية والبابلية والفارسية واليونانية ثم الرومانية. فشهدت آسرحدون الآشوري سنة ٦٧٥ ق. م، وقد ترك أيضاً نصباً تذكارياً عند نهر الكلب، وفتحت أبوابها أمام الاسكندر المقدوني سنة ٣٣٣ ق. م، ورفعها أغسطس قيصر الروماني إلى « مستعمرة رومانية » سنة ١٥ ق. م، وسماها باسم ابنته جوليا. وفي القرن الثالث الميلادي أصبحت بيروت منارة العلم والثقافة، تشهد بذلك « مدرسة الحقوق الرومانية » .

ومع الفتح العربي الإسلامي سنة ٦٣٤ م ، عرفت بيروت هويتها الحقيقية ، وتحولت إلى مدينة المرابطين المسلمين، وفي مقدمهم الإمام الأوزاعي ، يدافعون عنها ويذودون عن الساحل العربي الإسلامي . ومهما كانت تسمية الشعب الذي سكن بيروت منذ مطلع الألف السادس ثم في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد ، فإن هذا الشعب من أصل سامي نزح من شبه الجزيرة العربية، وتكرس هذا الأصل مع الفتح العربي الإسلامي في القرن السابع الميلادي ، ولا يجوز طرح هذه المسألة من حين لآخر بهدف إلقاء ظلال من الشك والريبة حول هوية سكان بيروت التي تعتبر جزءاً لا يتجزأ من المنطقة التي تحيط بها . ويبدو أن الغرب المسيحي أزعجته هوية بيروت وبيت المقدس والمدن الساحلية العربية الإسلامية ، فحاول زعزعة هذه الهوية وإزالة معالمها، عندما شهدت بيروت الصراع بينه وبين الشرق الإسلامي ، كما شهدت إقامة بارونية أو مملكة صليبية فوق أرضها، تحكمها أسرة دي ابلن في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي . واستطاع صلاح الدين الأيوبي، الذي استرد بيروت لمدة عشر سنوات، أن يغرس فيها وفي سائر المدن الإسلامية « بذور الوحدة » ، فأضاف إلى هوية بيروت والمنطقة التي تنتمي إليها عنصراً توحيدياً تحت راية الخلافة الإسلامية . وتكرست هذه الوحدة مع المماليك (١٢٩١ - ١٥١٦ م) الذين أعادوا إلى بيروت هويتها وطهروها نهائياً من الصليبيين ، ومع الأتراك العثمانيين (١٥١٦ - ١٩١٨ م) حيث تكاثر المسلمون في بيروت يرابطون فيها للدفاع عنها ، تحت راية المآذن المنتصبة في مختلف أحيائها وشوارعها وزواريبها ، وداخل أسوارها وأبوابها السبعة وابراجها الكثيرة وقلعتها القديمة . وأصبحت بيروت دار حرب وإيمان .

وهذه الهوية والوحدة جعلت بيروت منفتحة على محيطها الكبير وغير متقوقعة على نفسها، فهي المحور والمركز والعاصمة . كانت سنجقاً يتبع ولاية الشام سنة ١٥٢٠م، ومقراً للأمير فخر الدين الثاني ومركزاً تتجمع فيه قواته للسيطرة والتوسع، وسنجقاً يتبع ولاية صيدا (عكا) سنة ١٦٦٠م، وملجأ للمظلومين والمنكوبين، وخاصة الأغنياء منهم ، بسبب الظلم والاستبداد والضرائب الباهظة ، كما أصبحت مركزاً لولاية بيروت سنة ١٨٨٨م، ثم عاصمة الشرق ثقافياً وفكرياً وسياسياً واقتصادياً ، فلا غرو أن تشهد بيروت الصدام والصراع بين مختلف الأمراء حول السيطرة والنفوذ، أو بين بعض هؤلاء الأمراء والسلطان العثماني حول الانفصال والاستقلال . وفي ذلك كله ، اشتركت مصالح الدول الأوروبية التي لم يتورع بعضها عن التدخل المباشر ، فتعرضت بيروت لقصف الأسطول الروسي سنة ١٧٧٢ م ، وقصف الأسطول الإنكليزي سنة ١٨٤٠ م ، واختيرت كمركز دولي لحل أزمة جبل لبنان سنة ١٨٦٠م، فدخل مرفأها الأسطولان

الفرنسي والتركي ، ثم تعرضت لقصف السفن الإيطالية سنة ١٩١٢ م .

ولا غرو أيضاً أن تشهد ولاية بيروت قيام المستعمرات اليهودية ، في داخلها (لواء عكا) وخاصة صفد وحيفا، حيث قامت جمعية « هجليليم » (الجليليين) سنة ١٨٩١م، تسعى للحصول على الأراضي ليمتلكها اليهود ، وفي خارجها في يافا والقدس وحوران وعبر الأردن ، حتى كان التدخل الإنكليزي بوعد بلفور سنة ١٩١٧م .

وكان التحدي الكبير لهوية بيروت ، بروز فكرة القومية التركية ومحاولة تتريك بيروت التي تمسكت بهويتها، وكان البيروتيون أول من أحيا فكرة القومية العربية . وهكذا استجابت بيروت للتحدي التركي، وبدأ الصراع بين القوميتين اللتين تجمعهما راية الإسلام والوحدة الدينية . فرغم استقبال بيروت للقائد جمال باشا التركي كالملوك الفاتحين في آب ١٩١٥ ، فقد حول ساحة البرج إلى ساحة للمشانق سنتي ١٩١٥ - ١٩١٦ ، وافتعل المجاعة . وكان هذا الخلاف الثغرة التي نفذ منها حلفاء اتفاق سايكس - بيكو سنة ١٩١٦ منتصرين على الأتراك المسلمين سنة ١٩١٨ ، فدخل الجنرال غورو الفرنسي إلى بيروت في تشرين الثاني ١٩١٩، في احتفال لم تشهد مثله من قبل، واجتاز شوارعها وهو يمتطي صهوة جواده الأبيض متجهاً نحو ساحة البرج في عرض بري وبحري وجوي . وفي ظل الحراب الفرنسية والوفاق الدولي بين فرنسا وانكلترة ، كان التحدي الفرنسي عندما أعلن الجنرال غورو في أول أيلول ١٩٢٠ ، قيام دولة لبنان الكبير وعاصمته بيروت . ومن هنا بدأ كيان لبنان «المعروف حالياً» بالظهور ، دون أن نغفل الهوية ، والوحدة لأغلبية سكان العاصمة بيروت وسائر المناطق التي ضمت إلى هذه الدولة الجديدة ، هذه الأغلبية التي تطالب بالوحدة مع سوريا بشكل خاص، وبالوحدة العربية بشكل عام . لكن الفرنسيين حاولوا القضاء على آمال الوحدة، فغرسوا بذور الاختلاف الطائفي والمذهبي ، التي نبتت على أساسها دعائم هشة لاستقلال لبنان وعاصمته بيروت سنة ١٩٤٣، هذه العاصمة التي استجابت لجميع التحديات وما زال ردها أنها عاصمة العروبة والإسلام .

البحر المتوسط

المناطق الرئيسة في بيروت سنة ١٩٧٥

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية :

١ ـ ابن الأثير علي بن محمد الجزري الملقب بعز الدين (ت ٦٣٠/ ١٢٣٢)
* الكامل في التاريخ ١٢ جـ
دار صادر ـ بيروت ١٩٦٥

٢ ـ ابن حجر العسقلاني شهاب الدين أحمد بن علي (ت ٨٥٢/١٤٤٩)
* الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٤ جـ
حيدر آباد ١٣٥٠ هـ .

٣ ـ ابن خلكان شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم الشافعي (ت ٦٨١ / ١٢٨٢)
* وفيات الأعيان وأنباء أبناء آخر الزمان ٦ جـ
نشر محيي الدين عبد الحميد . القاهرة ١٩٥٠ .

٤ ـ ابن خردزابة أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله
* المسالك والممالك
مكتبة المثنى ببغداد .

٥ ـ ابن حوقل النصيبي * كتاب صورة الأرض
مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٦٢ .

٦ ـ ابن طولون
* **أعلام الورى بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى**
دمشق ١٩٦٤ .

٧ ـ ابن عبد الظاهر
* **تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور**
القاهرة ١٩٥٦ .

٨ ـ ابن عساكر
* **تاريخ دمشق ٧ جـ**
القاهرة ١٩٣٢ .

٩ ـ ابن القلانسي
أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي (ت ٥٥٥/١١٦٠)
* **ذيل تاريخ دمشق**
بيروت ١٩٠٨

١٠ ـ ابن مماتي
الأسعد بن المهذب
* **كتاب قوانين الدواوين**
تحقيق عزيز سوريال عطية ـ القاهرة ١٩٤٣ .

١١ ـ ابن واصل
جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم الشافعي (ت ٦٩٧ / ١٢٩٧)
* **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب** .

١٢ ـ ابن شداد
عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم (ت ٦٨٤/١٢٨٥).
* **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ٢ جـ**
نشر سامي الدهان، دمشق ١٩٦٣ .

١٣ ـ ابن يحيى
صالح
* **تاريخ بيروت** .
تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي وكمال سلميان الصليبي مع آخرين
دار المشرق (المطبعة الكاثوليكية) بيروت ١٩٦٧ .

١٤ ـ أبو شامة
عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم شهاب الدين الشافعي الدمشقي (ت ٦٦٥ / ١٢٦٨)
* **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ٢ جـ**
القاهرة ١٢٨٧ هـ .

١٥ ـ الأصفهاني
أبو عبد الله عماد الدين محمد (ت ٥٩٧/١٢٠)
* **الفتح القسي في الفتح المقدسي**
تحقيق محمد صبيح . القاهرة ١٩٦٥ .

١٦ ـ الأنطاكي
يحيى بن سعيد
* **صلة كتاب سعيد بن بطريق**
بيروت ١٩٠٩ .

١٧ ـ البلاذري
أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي (ت ٢٧٩ / ٨٩٢)
* **فتوح البلدان جـ ١** .
تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٥٧ .

١٨ ـ بيهم
محمد جميل
* **العهد المخضرم في سوريا ولبنان (١٩١٨ ـ ١٩٢٢)**
دار الطليعة ـ بيروت ١٩٦٨

١٩ ـ التميمي وبهجت
رفيق ومحمد
* **ولاية بيروت ٢ جـ** .
دار لحد خاطر ـ بيروت ١٩٧٩ .
عن طبعة الإقبال ـ بيروت ١٣٣٣/١٩١٧ .

٢٠ ـ التونسي
محمد بيرم
* **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار ٥ جـ**
مطبعة المقتطف ـ مصر ١٣١١ هـ .

٢١ ـ الحكيم — يوسف
* **بيروت ولبنان في عهد آل عثمان**
المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٦٤
* **سورية والعهد العثماني**
بيروت ١٩٦٦ .

٢٢ ـ الخالدي — أحمد
* **لبنان في عهد الأمير فخر الدين الثاني**

٢٣ ـ خوري — بشارة خليل
* **حقائق لبنانية جـ ١**
منشورات أوراق لبنانية (بدون تاريخ)

٢٤ ـ الدويهي — اسطفان
* **تاريخ الأزمنة**
تحقيق الأباتي بطرس فهد
دار لحد خاطر ـ بيروت ـ طبعة ثانية ١٩٨٣ .

٢٥ ـ سلام — سليم علي
* **مذكرات سليم علي سلام (١٨٦٨ ـ ١٩٣٨)**
تحقيق حسان حلاق
الدار الجامعية ـ بيروت ١٩٨١

٢٦ ـ الشدياق — طنوس
* **كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان ٢ جـ**
تعليق فؤاد أفرام البستاني
منشورات الجامعة اللبنانية ـ بيروت ١٩٧٠

٢٧ ـ شهاب — الأمير حيدر أحمد
* **تاريخ أحمد باشا الجزار**
نشره وعلق عليه الأب أنطونيوس شبلي
والأب أغناطيوس عبده خليفة .
مكتبة أنطوان ـ بيروت ١٩٥٤ .

٢٨ ـ صفي الدين — عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي (ت ٧٣٩/١٣٤٠)
* **مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع جـ ١**
وهو مختصر معجم البلدان لياقوت .
تحقيق وتعليق «علي محمد البجاوي». دار إحياء
الكتب العربية «عيسى البابي الحلبي وشركاه»
القاهرة طبعة أولى ١٩٥٤ .

٢٩ ـ الطبري — أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠/٩٢٣)
* **تاريخ الأمم والملوك ١٠ جـ**
دار القاموس الحديث ـ بيروت .

٣٠ ـ القلقشندي — أبو العباس أحمد (ت ٨٢١/١٤١٨)
* **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ١٤ جـ**
القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩١٩ .

٣١ ـ مشاقة — مخائيل
* **مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان**

٣٢ ـ المقدسي — شمس الدين أبو عبد الله محمد
* **كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**
ليدن ١٩٠٦ .

٣٣ ـ المقريزي — تقي الدين أحمد (ت ٨٤٥ / ١٤٤٢)
* **السلوك لمعرفة دول الملوك**
تحقيق محمد مصطفى زيادة القاهرة ١٩٣٦
* **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ٢ جـ**
القاهرة ـ بولاق ١٢٧٠ هـ .

٣٤ ـ اليعقوبي — أحمد بن أبي يعقوب بن واضح
* **تاريخ اليعقوبي ٢ جـ**
دار صادر بيروت ١٩٦٠
* **كتاب البلدان**
ليدن ١٨٩١ .

ثانياً : المراجع العربية :

١ ـ أبو شقرا — يوسف خطار
* **الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية**
رواية حسين غضبان أبو شقرا ، وتعليق عارف أبو شقرا

٢ ـ أمين — أحمد
* **فجر الإسلام**
مكتبة النهضة العربية ـ القاهرة طبعة عاشرة ١٩٦٥ .

٣ ـ حمدان — جمال
* **المدنية العربية**
معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٤ .

٤ ـ الحصري — ساطع
* **البلاد العربية والدولة العثمانية .**
دار العلم للملايين ـ بيروت طبعة ثالثة ١٩٦٥ .

٥ ـ الحوت — عبد الرحمن
* **الجوامع والمساجد**
بيروت ١٩٦٦

٦ ـ داغر — يوسف
* **بطاركة الموارنة**
المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٥٧ .

٧ ـ الرافعي — عبد الرحمن
* **عصر محمد علي**
القاهرة طبعة ثالثة ١٩٥١

٨ ـ رافق — عبد الكريم
* **بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت (١٥١٦ ـ ١٧٩٨م)**
دمشق طبعة ثانية (١٩٦٨) .

٩ ـ رستم — أسد
* **بشير بين السلطان والعزيز (١٨٠٤ ـ ١٨٤١م) ٢ جـ**
منشورات الجامعة اللبنانية ـ بيروت طبعة ثانية ١٩٦٦ .
* **لبنان في عهد المتصرفية**
دار النهار للنشر ـ بيروت ١٩٧٣
* **ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا**
القاهرة ١٩٤٨ .

١٠ ـ رستم والبستاني — أسد وفؤاد افرام
* **لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني**
* **لبنان في عهد الأمراء الشهابيين**
منشورات الجامعة اللبنانية ـ بيروت ١٩٦٩

١١ ـ الريحاني — أمين
* **فيصل الأول**
دار ريحاني طبعة ثانية ١٩٥٨

١٢ ـ الزركلي — خير الدين
* **الاعلام ٨ جـ**
(قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)
دار العلم ـ بيروت ـ طبعة خامسة أيار ١٩٨٠

١٣ ـ زين — زين نور الدين
* **نشوء القومية العربية**
دار النهار ـ بيروت طبعة ثانية ١٩٧٢
* **الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان**
دار النهار ـ بيروت ١٩٧١ .

١٤ ـ سالم — عبد العزيز
* **دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي**
جامعة بيروت العربية ـ بيروت ١٩٧٠

١٥ ـ سلام — صائب
* **هل فشل الاستقلال ؟**
محاضرة الرئيس صائب سلام في جامعة بيروت الأميركية، قاعة الاجتماعات الكبرى في ١٩/١١/١٩٨١ .

١٦ ـ السودا — يوسف
* **في سبيل الاستقلال جـ ١**
دار الريحاني ـ بيروت ١٩٦٧

١٧ ـ شهاب — الأمير موريس
* **دور لبنان في تاريخ الحرير**
منشورات الجامعة اللبنانية ـ بيروت ١٩٦٨ .

١٨ ـ شيخو — لويس
* **بيروت وتاريخها**
بيروت ١٩٢٥

١٩ ـ الصليبي — كمال سليمان
* **تاريخ لبنان الحديث**
دار النهار للنشر ـ بيروت طبعة ثانية ١٩٦٩

٢٠ ـ طبارة — شفيق
* **الإمام الأوزاعي**
بيروت ١٩٦٥

٢١ ـ طربين — أحمد
* **أزمة الحكم في لبنان**
دمشق طبعة أولى ١٩٦٦

٢٢ ـ عاشور — سعيد عبد الفتاح
* **مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك**
دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧٢

٢٣ ـ العريني — السيد الباز
* **المغول**
بيروت ١٩٦٧ .

٢٤ ـ عوض — عبد العزيز محمد
* **الإدارة العثمانية في ولاية سورية (١٨٦٤ ـ ١٩١٤م)**
تقديم أحمد عزت عبد الكريم. القاهرة ١٩٦٧ .

٢٥ ـ فريحة — أنيس
* **أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها ـ دراسة لغوية**
منشورات كلية العلوم والآداب، الجامعة الأميركية في بيروت.
سلسلة العلوم الشرقية ، الحلقة السابعة والعشرون .
بيروت ١٩٥٦ .

٢٦ ـ قدورة — زاهية
* **تاريخ العرب الحديث**
دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٦٨
* **بحوث عربية**

٢٧ ـ كرد علي — محمد
* **خطط الشام ٦ جـ**
مكتبة النوري . دمشق طبعة ثالثة ١٤٠٣/١٩٨٣

٢٨ ـ كنعان داود

* بيروت في التاريخ

بيروت ١٩٦٣

٢٩ ـ المخلصي قسطنطين باشا

* تاريخ أسرة آل فرعون . أصولها وفروعها .

مطبعة القديس بولس. حريصا ١٩٣٢

٣٠ ـ مصطفى صالح لمعي

* مساجد بيروت

منشورات جامعة بيروت العربية ـ ١٩٦٨ .

٣١ ـ معلوف عيسى اسكندر

* تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني

وقف على نشره رياض المعلوف. المطبعة الكاثوليكية

بيروت ١٩٦٦ .

٣٢ ـ مكي محمد علي

* لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني

دار النهار ـ بيروت ١٩٧٧ .

٣٣ ـ موسى سليمان

* الحركة العربية (١٩٠٨ ـ ١٩٢٤)

دار النهار. بيروت ١٩٧٠

٣٤ ـ النابلسي عبد الغني

* التحفة النابلسية

بيروت ١٩٧١

٣٥ ـ نوار عبد العزيز

* تاريخ العرب المعاصر «مصر والعراق» .

بيروت ١٩٧٣

٣٦ ـ الولي محمد طه

* تاريخ المساجد والجوامع الشريفة في بيروت

دار الكتب. بيروت طبعة أولى ١٣٩٣/١٩٧٣

٣٧ ـ يزبك يوسف

* أوراق لبنانية ٣ م.

دار الرائد اللبناني ـ بيروت ١٤٠٣/١٩٨٣ .

٣٨ ـ يني جرجي

* تاريخ سوريا

بيروت ١٨٨١

٣٩ ـ أحد أعضاء الجمعيات السرية العربية

* ثورة العرب ضد الأتراك

تحقيق وتقديم عصام محمد شبارو

دار مصباح الفكر ـ بيروت ١٩٨٦

٤٠ ـ لجنة من الأدباء

* لبنان مباحث علمية واجتماعية ٢ جـ

منشورات الجامعة اللبنانية ـ بيروت ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠

٤١ ـ منشورات جامعة بيروت العربية

* بيروت ١٨٧٥ ـ ١٩٧٥

خرائط وصور

جامعة بيروت العربية ١٩٧٧

ثالثاً : المصادر والمراجع المعربة

١ ـ أنطونيوس جورج
* **يقظة العرب (تاريخ حركة العرب القومية)**
تعريب ناصر الدين الأسد وإحسان عباس
دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٦

٢ ـ باركر أرنست
* **الحروب الصليبية**
تعريب السيد الباز العريني
دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٦٧

٣ ـ حتي فيليب
* **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ٢ جـ**
الجزء الأول، تعريب جورج حداد وعبد الكريم
رافق. دار الثقافة. بيروت ١٩٥٨
الجزء الثاني، تعريب كمال اليازجي
دار الثقافة: بيروت طبعة ثانية ١٩٧٢ .
* **تاريخ لبنان**
تعريب أنيس فريحة.
دار الثقافة، بيروت طبعة ثانية ١٩٧٢

٤ ـ روبنسون ادوارد
* **يوميات في لبنان جـ ١**
دار المكشوف. لبنان ١٩٤٩ .

فصول اختارها وترجمها عن الانكليزية أسد
شيخاني من كتاب ادوارد روبنسون «بحث توراتي
عن فلسطين والأقاليم المجاورة» المطبوع في لندن ١٨٦٠ .

٥ ـ طافور
* **رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي**
تعريب حسن جشي. القاهرة ١٩٦٨

٦ ـ غيز هنري
* **بيروت ولبنان منذ قرن ونصف القرن ٢ جـ**
دار المكشوف . بيروت. طبعة ثانية ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠
تعريب مارون عبود عن كتاب هنري غيز:
Relation d’un sèjour de plusieurs années à Beyrouth
et dans le Liban . Paris 1847 .

٧ ـ فولني س. ف.
* **ثلاثة أعوام في مصر وبر الشام ٢ جـ**
دار المكشوف. بيروت. طبعة ثانية ١٩٤٩ .
تعريب ادوارد البستاني عن كتاب فولني :
«رحلة في سوريا ومصر أثناء السنوات ١٧٨٣
و١٧٨٤ و١٧٨٥» المطبوع في باريس ١٧٨٧

٨ ـ كارن جون
* **رحلة في لبنان في الثلث الأول من القرن**
دار المكشوف . بيروت طبعة ثانية ١٩٤٨
تعريب رئيف خوري عن كتاب جون كارن:
«سوريا والأرض المقدسة وآسيا الصغرى الخ الخ»

٩ ـ لورته لويس
* **مشاهدات في لبنان**
دار المكشوف. بيروت. طبعة ثانية ١٩٥١
تعريب كرم البستاني عن كتاب لورته:
«سوريا اليوم» الصادر في باريس ١٨٨٤ .

رابعاً : المراجع الأجنبية

1) Debbas — Fouad
ˆ **Beyrouth «Notre Mémoire»**
Paris 2 Février 1986.

2) Lamartine — ˆ **Voyage en Orient**
Vol 1 Paris 1822

3) N. Elisséeff — ˆ **Encyclopèdie de l Islam**
I (Layde, 1960)
S. V: **Bayrut**

4) République Libanaise
«Conseil Exécutif des grands projets de la ville de Béyrouth :
ˆ **Plan directeur de la ville de Beyrouth**
Beyrouth. Mars 1968

فهرس
الخرائط والصور

١ ـ الخرائط

٢ ـ الصور

فهرس
الأعلام والأماكن

١ ـ أمراء وولاة بيروت

٢ ـ أسماء العائلات

٣ ـ الأعلام

(ج)

(ح)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

٤ ـ الأماكن

(أ)

(ش)

(ص)

٥ ـ الجرائد والمجلات

٦ ـ الجمعيات

٧ ـ المعارك

٨ ـ السفن البحرية والحربية

٩ ـ الحيوان

١٠ - النبات

فهرست

من منشوراتنا :

- الجذور التاريخية للمشروع الصهيوني في لبنان
تأليف : بدر الحاج
- دولة الخزر الجديدة (أو إسرائيل)
تأليف : عبد الرحمن شاكر
- تسعون ميخائيل نعيمة (وقوف في المواجهة)
إعداد : رياض فاخوري
- النفس الطاهرة (بين جبران والحويك)
تأليف : رياض فاخوري

* * *

تحت الطبع :

- فنون الطهي والحلويات
إعداد : أمل حلبي كريدية
- أزمة الاقتصاد العالمي وموقع الدول النامية
تأليف : د. علي الطفيلي
- قاضي القضاة في الإسلام
تأليف : د. عصام شبارو

تاريخ بيروت

مُنذ أقدَم العُصُور حَتىّ القَرن العِشرين

○ هذا الكتاب يشمل تاريخ مدينة بيروت منذ نشأتها قرية صغيرة في نهاية الألف السابع ق.م، ثم علاقتها بمصر الفرعونية في الألف الثاني ق.م، وبالمدن الفينيقية في الألف الأول ق.م. حيث كانت ممراً للجيوش الغازية من آشورية وكلدانية وفارسية ويونانية. ويشمل هذا الكتاب القرون السبعة التي عاشتها تحت حكم الرومان حيث ذاعت شهرة مدرسة الحقوق، حتى عرفت بيروت هويتها الحقيقية مع الفتح العربي - الإسلامي (٦٣٤ - ١١١٠ م). وبالرغم من المحاولات المستمرة لسلبها هذه الهوية مع الاحتلال الغربي - الصليبي (١١١٠ - ١٢٩١ م)، فإن بيروت تمسكت بهويتها وطردت المحتل لتعيش في ظل دولة المماليك (١٢٩١ - ١٥١٦ م)، ثم دولة الأتراك (١٥١٦ - ١٩١٨).

○ ويحكي هذا الكتاب تاريخ إحدى أقدم مدن الشرق، التي أصبحت عاصمة دولة لبنان الكبير سنة ١٩٢٠، وتاريخ إحدى أقدم المدن العربية - الإسلامية التي تحولت مع الزمن إلى عاصمة هذه المدن ثقافيا واقتصادياً وسياسياً وعسكريا... ودور المقاومة البيروتية لكل من حاول تدنيس بيروت.

○ وهذا الكتاب يضم سبع خرائط عن تطور مدينة بيروت وخمسة وثلاثين صورة توضح جميعا معالم هذه المدينة من المرفأ والسور والقلعة والأبواب والأبراج، إلى الأسواق والمتاجر والبنوك والخانات والحمامات والفنادق والمدارس والجامعات، مروراً بالشوارع والأزقة والزواريب والمقابر وموانىء الصيد، دون أن نغفل الجوامع والزوايا والكنائس التي تشهد على تعايش الأديان السماوية.

دار مصباح الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع